(مَعَ سَبقِ الإصرَارِ وَالتَّرصّد)

سهام الغامدي

(مَعَ سَبقِ الإصرَارِ وَالتَّرصّد)

إهداء...

«إلى كل من ينبض قلبه باسم امرأة»

* كل الأحداث في هذه الرواية هي من وحي الخيال وأي تشابه بين أحداثها وشخصياتها مع الواقع هو محض صُدفة.
* كل المقولات وأبيات الشعر التي لم يُشر إلى قائلها هي للكاتبة نفسها.

الفصل الأول

«رائحة عطرك المفضل.. والبقية مما كتبت يداك
وعيناك الزائغتان في طين الحياة.. كلها مازالت
عندي.. أحملها كأمانة!»

كان سعيد يذرع السعودية عرضاً وطولاً، محتفياً بعروسه الجميلة، المثقفة، ولا يترك فرصة للسعادة دون اقتناص. وهناك... في منزلنا الكئيب، كانت هناء تصارع الألم كما كانت دائماً.. بينما تقوم إيمان وأمل وسناء بتجهيز غرفة العريس الجديدة وعروسته ولابد أن تنتهي الجواري من العمل قبل أن يأتي السيد فيتضايق من التأخير وأمي تملي عليهن اللمسات الأخيرة: تغيير المجلس إلى غرفة نوم أوسع وتحويل غرفة سناء وإيمان إلى غرفة لجلوس العريس وزوجته، في حين تنتقل سناء وإيمان إلى غرفة العروس التي أفلت!!

في طريقنا إلى مكة طلبت من حمدان التوقف في مكان يوجد به جامع أنيق كنا قد تحدثنا بجانبه أنا وفيصل كثيراً وكان الجو رائعاً، لذلك تحججت برغبتي في أداء

الصلاة جماعة في حين كان مستعجلاً كعادته لكنه وافق على مضض.. مشيت بهدوء إلى أن وصلت إلى المكان الذي وقفت فيه مع فيصل وتذكرت كلماته عن الإيمان والروح والحب والحرية والإنسان وأشياء كثيرة تحدثنا عنها في هذا المكان وختمنا كل حديث بكلمة «أحبك» التي كانت من فمه كالمسك..

ـ أدخلي يا حرمة لا حد يشوفك حتى الحيا ما تستحين!!

ـ من يشوفني ظلام في ظلام الحمد لله على العافية.

ـ أنا بقعد واقف هنه ما باصلي مع الرجال بأراقبك الين تصلين ونمشي أنا أول مرة أشوف وحدة مجنونة تحب الصلاة.

ـ ليش من المجنون اللي مرفوع عنه القلم وما يصلي وإلا اللي أصرت تصلي جماعة.. والله حالة..

دخلت متأففة منه ومن خناقِهِ الضيق عليّ إذ أنه بحالته هذه لن أستطيع الهرب بسهولة.. أجلت التفكير في ذلك إلى ما بعد الصلاة والتأمل والذكريات الجميلة في هذا المكان قبل أشهر..

في الطريق الصمت مرة أخرى لا شيء يمكن أن ألتقي فيه مع هذا الرجل البدين، أشعر معه بأنني نزيلة لأخطر السجون في العالم ويتم نقلي بكل حذر إلى أحد فروعه الأخرى بسرية لا يتقنها أحد سواه.

كثيراً ما التفت للتأكد من وجودي متسمرة بنفس الشكل الذي أمرني بالجلوس به.. والتأكد من وجود القفازين في يدي وأنني سواد في سواد يا للفتنة.. ويا لحواء!!

عند الإشارة يتحول تماماً إلى عشرة أعين في كل اتجاه يرقب كل السيارات المحيطة إذا ما كان بها أحد يريد اختطافي كم هو معجز هذا الجهل الذي يعانونه وكم هو ضيق ذلك القبر الذي ارتهنوا إليه.. كم هي رحبة الحياة في عيني.. ضيقة إلى درجة أن يطلب مني عدم التنفس في عينه!!

قبل وصولنا إلى الميقات للإحرام فكرت كثيراً أن يكون هو محطة الهرب لأن قسم وضوء النساء بعيد عن الرجال كثيراً.. ويمكنني أن أفعلها بسهولة.. لكن لا أدري لماذا حننت إلى مكة والحرم.. والسيرة الأولى.. ورحلة كفاح محمد بن عبد الله صلاة الله وسلامه عليه في سبيل تحرير الإنسان من عبودية الإنسان والصنم والأشجار والشمس والقمر إلى عبوديته للخالق المبدع وحده لا شريك له.. شعرت أنني لابد أن أذهب إلى هناك من أجل استجلاء مشاعره حين كان في مكة بين أهله يتعرض لأشد أنواع التنكيل والتسفيه والعذاب لكنه أصرّ وجاهد ووصل ونجح.. أبتسم بصمت حين أذكر وصف حمدان لي بالمجنونة.. وأستعيد وصف قريش لرسول الله بالمجنون والساحر والكاهن.. يا لها من مفارقة!!

بعد الإحرام خرجت مسرعة لأجد أبدع شكل شاهدته في حياتي حمدان في الإحرام.. لقد كان مثل البالون الأبيض.. وهو يرمقني بنظرة استعجال..

ـ يا الله نبغى نلحق قبل الليل عشان نلقى حجز في الفندق.

ـ حتى في العبادة مستعجل.. بتلقى حجز تطمن.. الجن ما يحبون العجلة يحبون يخرجون على مهلهم!! ههههه..

أضحك بأعلى صوت هازئة بعقله الضئيل بجانب جسمه.. أشفقت عليه في بعض الأحيان.. عندما طلبت منه الماء نزل مسرعاً لإحضاره من إحدى البقالات كان في قمة الغبطة أنني طلبت منه شيئاً.. يا لسخفه..

كنت أزفر بكل حنين وأشعر بالطمأنينة رغم الخوف من حمدان وعدم قدرتي على الفرار منه.. وصلنا الحرم بعد صلاة العصر بساعة، وهناك بدأت إلى جانبه في الطواف كان يحكم قبضته على يدي بكل قوته، ولا يترك لي حتى فرصة رفع عباءتي عن الأرض يجرُّني حيناً، ويشتِمُني آخر، كان طوافه كله لعنة على سعيد ودعاء عليّ وعلى كل من يمرّ بجانبه من الرجال يا لها من عبادة.. مرة أخرى أشفق عليه من الصندوق الذي يحيط برأسه يا له من مسكين!!

بعد السعي.. طلبت منه أن أستعد للتقصير في أحد

دورات المياه.. فسمح لي على مضض، توجّهت مسرعة واستخدمت مقصاً اختطفته من يدِ إحدى العاملات وبعجالة قصصتُ شعري، تلفت يمنة ويسرة ولم يكن أمامي.. أسرعت في الهرب.. كنت متعبة.. خرجت إلى الحوض حيث الطواف.. انطلقتُ أجري بين الناس بحثاً عن باب السلام.. حمدت الله كثيراً على اختتام أعمال العمرة، والتَّحلُّلِ من الإحرام.. وتوجهت لاهثةً حيث رأيت الباب لأخذ حذائي و.. لا يهم المهم أن أنفذ بجلدي.. خرجت حافية إلى الشارع.. وبدأت أبحث عن سيارة تقلني.. لكن من سيتجرأ على إركاب امرأة وحيدة معه هنا!! أسرعت حتى وصلت إلى مطعم كودو في الشارع المتقاطع مع الشارع الرئيسي.. طلبت بعض الطعام يكاد أن يغمى علي من الجوع والظمأ والحفاء والبؤس.. اخترت زاوية ضيقة بجانب المحل وبدأت بالأكل وقوفاً حتى لا يراني أحد.. وبعد أن شعرت ببدء الروح تدبّ في عروقي واصلت المشي إلى أن وجدت مجموعة نسوة للتو قد خرجن من الفندق متوجهات إلى الحرم لأداء صلاة العشاء.. بعد الحديث معهن تبيّن لي أنهن كويتيات طلبت منهن مساعدتي في الوصول إلى مواقف السيارات في العزيزية وبعدها سأمشي بعد أن أخبرتهن بأن شقتي هناك وأنني تهت عن أهلي.. كن في منتهى اللطف والمساعدة ركبت معي اثنتين منهن إلى أن وصلنا بسيارة الأجرة إلى العزيزية بعدها أردت الدفع.. لكن

إحداهن أصرّت أن تفعل وهممن بالنزول لإيصالي لكني ألححتُ بشدّة أنني أعرف الطريق إلى شقتي وسأذهب لوحدي وأنه لا داعي لتأخيرهن أكثر.. وأطلقت لساقي الريح.. هنا شعرت فقط أنني ملك لنفسي.. كان الخوف رغم كل هذه الحرية يستولي عليّ، كلما مرّت أمامي سيارة.. ركضتُ في الشارع العام كثيراً إلى أن أرهقت قدمي.. لاشك أن حمدان إذا ما عجز في البحث عني فسيبلغ الشرطة وسيبدؤون البحث.. بكثير من الرعب تقدمت إلى أحد الباعة المفترشين واشتريت منه حذاءً... ووجدتني أسير في الأزقة بين البيوت، سألت قلبي عن اتجاه المدينة.. طيبة.. حيث سأعود هناك إلى الزمن النقي، سأستبدل به كل آباء الأرض.. سأشكو إليه حالي وحالها وحالهن جميعاً.

اعذرني يا فيصل.. فلست أنا من تحب.. ألم أقلها منذ البداية؟! صدقني إن اللوم والعار والفضيحة جريمتي من دون أن ارتكبها، وصدقني إن الموت هو مصيري لو فعلتُها!.. ما كان ينبغي أن يعشق العبيد قبل أن يتحرروا.. سامحني يا فيصل فلن آتي في الموعد الذي اتفقنا عليه.. وعد الحر دين عليه ولم يقل أحد على مرّ التاريخ أنه دين على العبيد.. سامحني فلم يبق للحب في عالمي مكان.. كيف سأختار الحب وأبقى في خوف بقية عمري ملعونة من المجتمع، وكيف أقضي بالترمل عليك أو عليّ ونحن لما نبتدئ بعد.. سامحني يا فيصل فأنت أغلى من أن تموت

على يد سعيد.. وأنت شاب مازلت في بداية حياتك، وأوصيك أن لا تختار «أَمَةً» لتحبها بعد اليوم.. سامحني يا فيصل فلن أكون هناك.. سيطول انتظارك وستتعب قدماك وتجلس ثم تقوم ثم تغادر على أمل العودة ولن أعود.. سامحني يا فيصل فلن نذهب إلى أي قاض ولا إلى أية محكمة لأن تهمة الخلوة غير الشرعية ستكون بانتظاري... فلابد أن أفعلها.. لابد أن أوقف هذا الظلم لابد أن تفعلها إحدانا.. لابد أن يكون هُناك قُربان ولابد أن يكون هناك ثمن.. سامحني يا كل الحب ويا نبض الروح سأقتل حبك في قلبي كما تُقتل النعاج.. وسأهرب منك ومن حمدان ومن سعيد ومن خالي ومن عبوديتي ومن كل هذا المجتمع... كل الحلول غير مُرضية ولن أستطيع الوفاء بديون المحبين.. ولأن الرشاش بانتظاري في يد كل رجال القرية.. سامحني يا فيصل فأنا أفضل أن أموت حرة ولو لساعة واحدة في حياتي.

هُناك في الطائف.. ستعدُّ يا فيصل الساعات والدقائق لقدومي ولن تعرف للنوم طعماً ولا للراحة معنى..

حملت معي الكثير من الماء وقليلاً من الطعام وبدأت المشي في الجبال بعيداً عن المساكن حتى لا يراني أحد.. كان المشهد مرعباً لقلبي الصغير..الذئاب تعوي، والرياح لها فحيح، والخوف يكشر عن أنيابه لي في كل مكان...آه يا محمد هل عشت ما عشته هل تنفست وحشة الجبال

وتبسمت في وجه كل هذه الصخور.. هل شعرت أنك أقوى منها وأنت بينها وفي داخلك إيمان لم تحمله هي وأشفقت منه!! سأواصلُ صعودي... وعلى نفسِ الوتر.. تذكرت جار الله المجنون وتساءلت كيف قضى كل تلك الليالي بين الجبال استرجعت حكاياته.. ونومه في الجبال..وسعيه الحثيث لبل ظمأ الحنين الذي طال انتظاره.. عليّ أن أدفع ثمن كل شيء جميل في حياتي.

وأما حمدان فسيقلب الأرض في البحث عني وسيشعر أن التحدي لما ينته بعد فليس هو من تهزمه امرأة وسيجعل حكايتي والبحث عني على كل لسان وربما استعان بالصحافة لفعل ذلك متهماً إياي بالجنون وعلى من يجد المجنونة أن ينتبه منها ورغم ذلك سأواصلُ الصعود ولن أتراجع لحظةً واحدة..حتى ولو بحث عني الجميع!..

الصلاة كانت بعد التيمم دائماً لأنه لا يوجد لدي ماء.. ولا حتى أمل في إيجاد بيوت مسكونة فقد أرهقني المشي الطويل ولما أجد أحداً أستأنس به ما كان ينبغي أن ابتعد عن المنازل إلى هذا الحد لقد تُهت لكن قلبي هو الذي سيقودني أشعر بذلك.

الفصل الثاني..

كل صباحاته داكنة تماماً كسمرته البليدة وخوائه الجبري.. لم تكن تلك الظهيرة غير عادية بالنسبة له.. فهو.. كما هو منذ خمسة أعوام مضت.. خارج الحياة حتى اشعار آخر يتأمل كأس الشاي أمامه والملابس المهترئة التي تصرّ والدته علي غسيلها وتعليقها علي الجدار المقفر بلا ألوان كل صباح جمعة!..

يتنفس ببطء..ويلعق حسراته متثائباً سنوات عمره تتراءى أمامه ترى هل هناك هدف؟! أسئلة حمقى تتوارد إلى ذهنه هذه الظهيرة ربما لوقع الخطبة التي يسمعها من أحد المساجد القريبة تأثيرها في هذه الموجة من الإحساس المفاجئ لكن سرعان ما يحرّك رأسه كمن ينفض عنه غبار التفكير ويعاود سباته المقنع، إنه اليوم ولأول مرةً منذ زمن يستيقظ في هذا الوقت المبكر بالنسبة له.

عيناه زائغتان وسحنته مثقلة بالحزن.. وكل شيء في هيئته ينذر بأنه لا يملك من اسمه شيئاً.. شيئاً على الإطلاق!.

العاشرة مساءً مدينة أبها شرطة محافظة خميس مشيط الجمعة ليلة السبت.

اتصال هاتفي تتلقاه أمي من خالي الذي لا أسمع سيرته أو وجوده في حياتنا إلا وأعلم حينها أن هناك مصيبة قد حصلت، وهذا بالفعل ما حصل، إنه يشتم ويرفع صوته بتلك العبارات التي حفظتها أمي عن ظهر قلب فباتت لا تتكلف في البحث عن ردودها «الله المستعان» «أدري إني مقصرة لكن وش أسوي» ومن هذه العبارات التي يشعر من يسمع أمي لأول وهلة أنها المسؤولة الأولى عن تفجيرات 11 سبتمبر/أيلول أسمع اسم سعيد بين ثنايا الكلام فأعلم يقيناً عندها أن هذا اللاسعيد قد فعل شيئاً جديداً من مغامراته البليدة في تقطيع أو ربما «مطمطة» وقته الضائع هدراً وحسرة في أوج الشباب ولكنها ظروف الحياة وقسوتها..لكن ما يشغلني حقاً هو ماذا هذه المرة؟ هل كسر زجاج سيارة أبو أحمد جارنا كما يتسلى دائماً.. أم وقع في يد أحد رجال الهيئة أو رجال القرية وهو يتعاطى سُمَّهُ القراح.. أم ماذا وماذا؟ فهو سلسلة لا تنتهي من المشاكل لدرجة مللت معها الحديث عن مشاكله لأنني شعرت ذات «ليلة سوداء» لن أنساها أبداً أن هذا الشخص بالذات قد بات بلا روح ولا حياة، فهو يدفع ذلك الجسد المرهق دفعاً نحو الموت ولكنه ينجو كل مرة ربما لأن المادة أصبحت أكثر قوة من أرواحنا في زمن العجائب هذا من يدري.. «هذا الولد بيقصّ عمري قص» واضعة يدها على وجهها كمن يحاول إخفاء خجله وعاره.. كان المنظر أكثر

تأثيراً هذه المرة لملمت بقايا أملي.. وسألت أمي بكل برود «وشفيه؟» إلا أنها صمتت طويلاً.. ربما لأنها هذه المرة بالذات لا تمتلك في معجمها اللغوي البسيط أي مفردة تصف بها ابنها الوحيد وأملها المشرئب بتلابيب الموت كل مرة.. واغرورقت عيناها بدموع حسبتها تبكي فيها الكرامة المهدورة والزمن القاسي والابن العاصي.. وكل شيء..

وفي الواقع لم أستغرب فسرعان ما علّقت على صمتها حتى لا أتسبب بمزيد من الألم لقلبها المنهك حقاً.. وقلت متظاهرة بأنني لا أرغب معرفة السبب فماذا سيكون؟!

«إن شاء الله يلقى وظيفة أنا متأكدة إنه رح يتوب الدعاء يا أمي مخ العبادة» وانصرفت بعدها والإثارة تملأني لمعرفة آخر عنتريات سعيد هذه المرة!.

أكاد أفقد عقلي كلما أبحرت في التفكير بهذه الطريقة فقد أمضيت الليل بطوله متحجرة داخل روح ابن خلدون واجتماعياته وأفلاطون ومدينته الفاضلة وأرسطو وفلسفته الموغلة في المنطق.. استعمرتني أخيلتهم طيلة الليل، فلا أنا التي استفدت شيئاً مما يهذي به عقلي في هذه الساعة من الليل ولا هذه الأشباح فارقتني لأرتاح من يوم طويل من العمل المنزلي الشاق، أتقلب على فراشي كعاشق هجرته محبوبته دون أن تشرح له الأسباب، أو كطفل تركته أمه في صحراء شاسعة ووعدته بأن تعود سرب من الحمائم

والكثير من الورود.. وأمل طويل مفعم وابتسامة يتبعها عبوس. . على اليمين هذه المرة أضع يدي تحت رأسي وأتلو سورة الفاتحة والمعوذات لكن السهر يطول ويطول في آخر السرير هناك حيث قدماي مرفوعتان إلى الأعلى أشعر أني مسؤولة عن أمة بأكملها!

تشرِّق بي الأفكار وتأبى الحلول أن تغرب بي.. أخي.. أين هو الآن ماذا حصل.. الساعة الثانية ليلاً.. العادة اليومية هي أن تستيقظ أمي في موعدها تتوضأ وتستعد لصلاة الليل، يُوقظني صوتها المحموم ودعواتها غير المفهومة من سلسلة طويلة من الأحلام لا تنقطع لأعود بعدها وأغرق في بحر لجي من الأفكار.. أتذكر أيامي الماضية وأتطلع إلى المستقبل وأشعر بهمِّ المحيطين بي أكثر من شعورهم بأنفسهم.

أتفقد أمي.. إنها ساجدة في سجادتها وتدعو الله، أسمع اسم أخي كثيراً، كانت ليلة مختلفة من لياليها الساهرة.. إنها تبكي بأزيز يقطع نياط القلوب. أرملة، وحيدة، في قرية نائية، لا تملك من حطام الدنيا سوى هذا الولد الذي ملأ حياتها شقاءً وألماً منذ أن شعر بأنه المسؤول الوحيد عن تصرفاته وحياته.

الساعة الثالثة والنوم لم يزرني بعد، أتفقد أخواتي جميعهن يقبعن في أسرتهن يأسرهن نوم عميق.. أعمق مما

أتخيل.. إذاً لا أحد يحتمل اعتكار مزاجي سواها.. كتبي، وأقلامي، وقصائدي، والشموع، ومرسمي أيضاً!!.. أشعلها وأبدأ في سرد يومياتي.. وأحلامي.. ومخاوفي.. وأمنياتي.. كل شيء هنا لن يفشي لي سراً أبداً.. مكتبتي توأم الروح التي كلما تضيق عليَّ السبل أجدها تفتح لي ذراعيها كل وقت وعلى كل حال فلم تتذمر يوماً..

أستمر في الكتابة حتى خيوط الفجر الأولى إنه أذان الفجر.. وأمي لا تزال تصلي.. أتمنى لو أستطيع التسرية عنها لكن الكثير من الحواجز تفصلني عنها وهي معي.. وقطعة مني ولكن.. لا أدري..

أتأهب باكراً للحاق بنقل القرية المتوجه إلى كلية التربية الأقسام الأدبية بأبها، أشعر بأن النوم يباغتني هذه اللحظة بالذات وهو الذي جافاني طيلة الليل..

لم يكن قسم التاريخ ليغريني يوماً، لكنها الحياة التي تقوم بدور الاختيارات بالنسبة لمدينتي التي لا يوجد بها جامعة، وكان حلماً بالنسبة لي أن ألتحق بقسم علم النفس أو علم الاجتماع، ولكني بذلك تعلمت أن الفشل بإمكانه أن يكون نجاحاً وأن التاريخ ليس إلا محطة أستشرف بها تاريخ البشرية وأطوارها لذلك كنت أعتسف النجاح اعتسافاً.

أستيقظ مثقلةً اليوم وكل يوم رغم أن أمي ذات ليلة أخبرتني وهي تغالب عبرتها أن الحياة جهاد وعلقت كلماتها

بذاكرتي الصدئة من تراكم الأيام والأحداث ولم أنسها يوماً.. فهل كانت الأم فعلاً مدرسة؟!

إن أمي في الواقع سهرت على تربيتنا وأفنت أحلى سنين عمرها في تربيتنا لكن ما هي؟! وأي تربية.. هل كانت تربية جسد!.. أم تربية روح وجسد!.. وهل صنعت منا أولاداً صالحين أقوياء لمواجهة الحياة أم أجساداً أرهقتها الهموم، والشحوم؟! نعم.. فقد كانت معظم أخواتي يعانين من السمنة وكذلك أخي.. لكن الصعاب التي واجهتنا طيلة حياتنا لم نجد لها أماً تفهمها حتى اقتنعنا مع الأيام أنها لا تفهمنا أبداً أبداً.. وتطول النقط والفواصل حتى ننسى أن نزفر أمامها في أي يوم لأنها حتماً ووفقاً لما تصورناه.. لن تفهمنا، لكن اليوم وفي هذه اللحظة بالذات أرى في قسماتها هالة من الحكمة والصمت تجبرني على الإخبات والتأمل أهي تتقن فهم ابنها اليوم أكثر من أي يوم مضى..!

«صباح الخير.. ليه ما نمتِ يا بنتي؟».

كلماتها مليئة بالوقار والحزن المثقل بالسنين.. لم يكن يناسبها من ردودي شيئاً..

أمي.. كيف سعيد؟ سألتها

«الله يهديه وإلا يريحني منه أنا تعبت»

ردّها كان كافياً أن أتوسل الوقت ليمر سريعاً ويأتي

النقل ولا أعرف أكثر فحتى أنا وصلت تقريباً إلى مرحلة اللاأشعور تجاه هذا الشخص بالذات..

«إيمان ممكن استعير بلوزتك البيضاء اليوم».. عيناها غائران وسط حيرة لا أستطيع التكهن بمصدرها «خذي اللي تبغينه يعني هي فارقة معي أصلاً إذا لبستها أطلع كني دب قطبي».

أشعر أن في كلماتها عتاب أو حتى ملامة لأنني طلبت منها شيئاً من ممتلكاتها المعدودة، على أية حال فقد كانت إيمان أكثر أخواتي حرصاً إلى درجة البخل وهذا ما كنت أتحاشاه دائماً عندما أهمّ بطلبها شيءٍ ما، لكنني دحضت هذه النظرية عندما رأيتها في «ليلتي السوداء».. تفديني بروحها وعلمت أنها من أشد الناس كرماً في تلك الساعة بالذات.

لا أدري هل المحبة الوراثية هي التي تجبرنا دائماً أن نسامح من تجري في عروقنا وعروقهم نفس الدماء أم هو مجرد الهروب من الإحساس بالذنب إذ كثيراً ما شعرت أن عائلتي لا يربطني بها سوى هذا الدم المرهق بأسف السنين وزعاف الليالي؟..

مقلق هذا الشعور عندما تسنح لك فرصة للهرب سواءً كان هرباً جسدياً أم هرباً روحياً فقط، إذ أنه يجعلك لا تبالي بطول المسافات وحجم البعد وتترك لروحك العنان لتنطلق بعيداً عن أجسادهم (الخراب) وتمرّ السنين بك دون

أن تشعر لتكتشف في لحظة من لحظات الألم أنك لا تشبههم ولا تشاطرهم مشاعرهم ولا تستطيع أن تجاملهم وو.. حتى بابتسامة بلهاء! يسكنون صنماً واحداً وكتلة اسمنت يشبهونها كثيراً، تقربهم فيزياء الجاذبية الأرضية وخوارق الطبيعة، وتفرقهم أرتال من الهموم ارتأى كل قلب أن يحملها لوحده، وأن لا يشاركه في ألمه أحد فاستحال أنانياً، محبطاً، يرميه الحزن في أحد أركان ذلك الصنم، ويتلو عليه لعنات الخيبة والفراغ!..

تُرى هل كان سعيد يشعر بغربته مثلي؟.. وإلى أين اتجهت به هذه الغربة؟!

أسئلة حيرى أسألها نفسي بينما يحيطني الكثير من الصخب الصباحي في هذا (الجمس) اكتمها.. لكن صديقاتي وزميلات الرحلة اليومية لا يفتأن يقطعن هذا الخيط المترهل من الأفكار واسمي واضح هذه اللحظة:

ـ سحر وش وفيك؟ والله ما أنتِ معانا..

دائماً ما تصرّ نادية على اقتحامي حتى عندما أبالغ في رفضها، ففي كل مرة أجدها أكثر تمسكاً بي!! رغم أني لا أحفز من حولي على صداقتي فأنا كثيرة الصمت، والتأمل، والفلسفة، وكثيراً ما تنعتني أمل بأنني فيلسوفة! وأن نيتشه ربما لو عشت في عصره لقذفني بالحجارة!:

«ولا شيء بس البارح ما نمت وحاسة بصداع خفيف»..

لا تترك نادية فرصة للألم في حياة من حولها دون أن تحاول جاهدة أن تجد لها حلاً، ولا حتى حلقة مفرغة من الكلام دون أن تسبر أغوارها وتخرج بما تريد:

«ليه ما نمت؟ وش اللي يسهر القمر؟!»

أعرفها جيداً هذه اللهجة التي تغريني بها نادية للحديث لكني لم أشك يوماً بأنني أشبه القمر! لأنني وكما أعتقد من أكثر سكان الأرض وفاءً لهذا الكوكب، فأنا أبقى بجانبه حتى أودعه في ساعات الصباح الأولى! في الحقيقة لقد تقاسمنا الليل والعمر سوياً، هو يعلّمني كيف أصنع هالة من الضوء والكبرياء رغم قسوة الليل، وأنا أعلمه كيف أحتضن الألم لأشبعه من حليب الأمل ليغدو كبيراً شجاعاً ذات يوم فما نحن سوى صنيعة الألم

«مشاكل في البيت ـ لا جديد.».

«وش صار.. أمك صار لها شيء.. وإلا..؟!»

في الحقيقة.. لم يكن ذلك الجازع في ركن الألم يستحق أن تحبه أنثى على سطح الأرض، لقد كان بمثابة الموت الذي يمشي على الأرض ليعلمنا كيف نموت ونقتل الأمل والحب والزهور، لكن نادية ابنة خالي ورفيقة الصبا كانت تحب ذلك الأسمر المعذب المتعذِّب حباً لا تملك عيناها إخفاءه عن أحد..

تُرى هل من الممكن أن نحب شخصاً ميتاً وسيئاً

ومكشوفاً؟! أم أن نادية مازالت مصرّة على حب أيام المراهقة ولا تريد أن تنسى أن ذلك السعيد قد أمسى في ليلة وضحاها شخصاً يصنع التعاسة ويتقن صنعته في منتهى الوقاحة!!..

كثيراً ما أتردد في سؤالها هذا السؤال لأنني مؤمنة أن الحب أعمى وأن البصيرة لا تملك أمام طوفانه الجارف شيئاً، لكن عندما تتكالب عليك المصائب ممن تحب فلا بد أن يكون هذا الحب محط تساؤل ومحاكمة، وهل من الأجدى أن يستمر أم أن العقل لا بدّ أن يستيقظ من سباته ويعلن الحرب على حب سيهوي بصاحبه في درك العذاب، والحرمان، والذل أحياناً كثيرة؟!.

«أيوه أكيد سعيد الحظ زي كل مرة..»

تقف الكلمات حيرى على شفتيها، فنادية الممتلئة بالحياة لم تعد تتقن الهرب من حبها بالكلام وكثرة الثرثرة.. فتسألني بكل أسى:

«عسى ما شر».

«لا إن شاء الله بس مدري أمس ما رجع البيت من بعد الظهر وبايت في قسم الشرطة..»

«كلمكم؟..»

«لا أبوك اللي كلمنا وخبر أمي يقول راح عشان يكفله وما قدر الظاهر مصيبته هذي المرة كبيرة..»

أحياناً كثيرة أتمنى أن تصمت الدنيا كلها وأشعر بقليل من الطمأنينة كانت هذه اللحظة إحداها.. عندما نحاول الهرب من ضعفنا وعجزنا ونحن لا نملك طريق الهرب ولا حتى بوصلة الشمال.!!

يتوقف الجمس ونادية لا تتوقف عن الأسئلة، إنها مجنونة حقاً أكاد أجزم بهذا الآن..

«كم عندك محاضرة اليوم لازم أشوفك»

لابد من الهرب من هكذا عشاق مجانين وعميان وفارغين كثيراً! لذلك كذبت عليها كما أفعل دائماً!!..

«(فُل) جدولي اليوم ثلاث محاضرات يعني ما فيه وقت في البيت تعالي وأسمعي السالفة كلها من خالتك»

أتثاءب وأجرجر قدمي المثقلتين بالسهر، حيث الروتين اليومي تفتيش عند الباب! وكأني سأدخل الفاتيكان، أو أنني من الجنس الآخر.. كم مرة في اليوم أهزأ بهكذا قوانين وتهزأ آلاف الطالبات مثلي لكن أحداً لم يحرك ساكناً لتغييرها فما معنى أن يكون في بلوزتي البيضاء زر أسود أو حتى كلمة أو نقش!! يا لغباء النساء حين تساندهن البيروقراطية ويباركهن الجهل! سيصنعن النكد وسيبرعن في عرقلة كل أشكال الإبداع ويحتفظن بالكراسي!

«إحنا قلنا أبيض سادة»

أقسم أن هذه الموظفة الرعناء لو قامت بجولة في

أسواق المنطقة كاملة فلن تجد بلوزة بيضاء سادة كما تقول إلا في أنظمتها المبتورة.. حتى هي كانت ترتدي ملابس ملونة من كل لون!!..

ثم لماذا دائماً أشعر بأنها تعامل الطالبات وكأنها عميدة الكلية وهي مجرد موظفة تقف عند الباب لمنع دخول الممنوعات وليس البشر المحتشمين إلى داخل حرم الكلية.. وبدلاً من أن تؤدي وظيفتها وحسب نراها تملي النصائح والمواعظ على كل من يدخل فتارةً هذه القصة حرام تشبُّه بالكفار «مع أن القصة كما أعتقد من عمل البنت نفسها يعني المقص كيف ماراح راحت».

وتارةً «العدسات الملونة حرام» بالمختصر لقد كانت «مفتي البوابة» بدلاً من حارسة أمن!..

دائماً احسب «للقافتها ألف حساب باستثناء اليوم لأنه لا وقت لدي للهرب من نادية إلى قسم التاريخ بأقصى سرعة لذلك جاملتها وتبسمت في وجهها اليوم أكثر من كل يوم وكأنه استعطاف أن تدعني وشأني وأن أمرّ دون أن تنبس ببنت شفة، في الحقيقة.. كنت أشعر أن هذه الموظفة تعتبر أن التعامل الرقيق والتسامح مع الأشياء البسيطة ضعفاً لذلك وبدلاً من أن أدخل بكل تلك الابتسامة المصنوعة والمتكلفة أمسكت بيدي بكل قوة وقالت: «بطاقتك، وروحي سيدة على قسم المخالفات» يا الله كيف يفهم هؤلاء البشر بل كيف يفكّرون وهل يُعقل أن تدفع يتيمة

مثلي (50) ريالاً لأجل بلوزة ساترة محتشمة لا يشوبها سوى نقش بسيط بالأسود فوق بياضها!! ثم السؤال الأهم ما هو الذنب الذي سيرتكبه هذا اللبس على عقلي وفهمي لدوري في هذا المكان وهل ستمنعني مثلاً من فهم وكتابة المحاضرات!!

الأسئلة تتردد على ذهني وأنا أحثّ الخطى والشتائم على تلك الموظفة الغبية، فلو كنت مكانها لأدخلت جميع الطالبات باستثناء من تحمل مسدساً لذلك ومن هنا سأدخل الجميع..

«يوم مزفت من أوله» قلتها بكل حرارة وأنا أشير إلى «ريم» بأحلى صباحية قبل أن أتوجه معها إلى غرفة أو قسم المخالفات!!

في الحقيقة من كثرة الطالبات وضياع الوقت اقترح أن يتحول إلى قسم وأن تتم زيادة عدد الموظفات نظراً لزيادة عدد الضحايا..

«واو استثمار والله يجمعون في اليوم ملايين!!شوفي كم عددنا» قالت ريم بكل سخرية.

كثيراً ما تجبرني المواقف المعجزة للتفكير والمنطق على الصمت المكتوم.

كنت خلال تلك اللحظات فقط أسأل الله أن تنتهي المهزلة قبل أن أنفجر لحظات وتبدأ محاضرة تاريخ

الحضارات (الحضارة الفرعونية)!! ولا شيء يمتّ للحضارة بصلة في هذا المكان ولا حتى هناك داخل القاعة المحتقنة بالتلقين والتكرار والبعيدة تماماً عن أجواء التعليم العالمي. مازالت سلسلة الهموم والأمنيات تراودني حتى وأنا أوقعِّ على قسيمة المخالفة مع تعهد بإحضار المبلغ في الغد كأقصى حد! لاسترجاع بطاقتي!

كثير هو البؤس في حياتي لكن استجداء من لا تملك ولا حتى ريال واحد.. كان أكثرها بؤساً، مازلت أفكر في كيف سأطلب الخمسين ريالاً من أمي وهي لا تملكها أصلاً!..

«لنؤخر الهم إلى وقته» هكذا حدثتني نفسي..

لقد تأخرت كثيراً عن المحاضرة لذلك عندما توجّهت للقاعة كانت قد أُغلقت وتوزعت المشرفات وشرع الدكتور يلقي محاضرته عبر الدائرة الصوتية (التكتفون) هل أعود أدراجي أم أحاول أن أستعطف القلوب للمرة الثانية هذا اليوم.. وقفت بالباب وإذا به يُفتح فجأة لقد كانت مجموعة من الطالبات يحملن إحدى الزميلات التي كانت فاقدة للوعي والكثير من الضجيج والصراخ! ساعدني ذلك على اقتناص الفرصة والدخول، في هذا الجو لن يسألني أحد عن تأخري وستعتقد المشرفات أنني من جملة المتطوعات لحمل تلك المسكينة التي بدأت الحكايات تُنسج حولها من هذه اللحظة!!

أدخل بارتباك وكأني طفل يتوسل اهتمام والدته وسماحها دون أن يتكلم.. أجرجر قدمي بين أكوام الطالبات فجأة إحداهن تنادي علي بأعلى صوتها:

«يا سحر هنا.. إحنا حاجزين لك»

إنه صوت مألوف بالنسبة لي.. فلطالما تلاحقني «سميرة» من قسم إلى قسم ومن قاعة إلى قاعة وترسل لي باستمرار رسائل الحب والغرام رسائل عندما أقرأها أخالها من زوج عاشق إلى زوجته الحسناء!! لقد كانت علاقتها بي غربية ومريبة لكني مضطرة بدلاً من الوقوف لثلاث ساعات الجلوس حتى وإن كلفني ذلك ردّ المعروف لتلك «السميرة» وذلك بالجلوس معها بعد المحاضرة إلى أن تبدأ المحاضرة الثانية.. لكن لا يهم سأجلس بجانبها «مكره أخاك لا بطل»

«كيف يا قمر انتظرتك ولما تأخرتي وما شفتك مع صاحباتك طلبت منهم يعطوني فرصة أحجز لك أنا»

ـ شكراً.

ـ بتسجلين المحاضرة.. وإلا نسولف..

ـ أنا ما عندي وقت للسوالف أفضل أسجل كل كلمة حتى تثاؤبات الدكتور الكثيرة..!!

ـ خلاص براحتك..

يتصبب العرق من وجهي وأكاد أشعر بنبضات قلبي

هل أنا فعلاً بجانب هذه الفتاة التي لطالما حذرتني منها صديقاتي وسمعت عنها الحكايات والحكايات..

ـ مسحورة.. يقولون فيها مس..

ـ أكاد أذوب من الخوف في مقعدي ولا أميّز كلماتها..

ـ مين؟.. وش قصدك؟!

ـ البنت اللي طلعوها برا.. يقولون إنها مسحورة..

ـ الله يشفيها ولا يبتلينا..

ـ لا بجد وصلتني ورقة من البنات كاتبين فيها اسمها ونوع السحر..

ـ ما شاء الله بهذي السرعة الظاهر عندهم «مطوع» هناك أنا ما أحب أشغل نفسي بالناس وأتكلم بدون بينة أكتب محاضرتي أحسن.

تظاهرت بالقوة والحزم وقلبي يتراقص رعباً في داخلي.. ماذا ستفعل بي هذه البنت وإلى ماذا ستنتهي هذه المحاضرة..

«يا رب عديها على خير» لماذا كلما نظرت إليها أجدها مسمرة عينيها فيَّ بهذا الشكل المرعب؟!

أسمعها تغني وتتعمد لمس خصلات من شعري بشكل مقزّز! يتأرجح القلم بين أصابعي، أتظاهر بالانتباه التام

لكلام الدكتور، ولا أحاول أن أعطيها فرصة لاستلطافي..

ـ تصدقين.. نفسي أسوي شيء.. «قالت بكل صلافة».

يسقط الدفتر من بين يدي والقلم، وضجة تسري في القاعة التي مازالت العقول فيها مهيأة لوجود الجان.. كل الأعناق تشير إلى مقعدي.. أكاد أسقط مغشياً عليَّ.. ارتباكي كان واضحاً بكل قوة، أشعر برغبة في البكاء.. لا أدري ماذا أفعل أحاول لملمة شتاتي والتقاط دفتري..

لكنها تقوم بذلك نيابةً عني وتسري عني «يبدو أنها لاحظت بما لا يقبل الشك أنني مرتبكة جداً».

ـ وش فيك.. خلاص بطلت اكتبي محاضرتك..

لقد كانت كلماتها بمثابة مهدئ لشخص انتابته نوبات مؤلمة ومشوشة للتفكير!!

لكني فكرت هذه المرة أن أتظاهر بالحاجة إلى الحمام وعدم العودة إلى المحاضرة نهائياً لقد كانت الطريقة الوحيدة للهرب.. في البعيد هناك كانت صديقاتي «أمل وتهاني» يتهامسن والابتسامة لا تكاد تفارقهن لقد كن في حقيقة الأمر.. يسخرن مني.. ويتسلين على خوفي وارتباكي..

كنت أفكر في الطريقة التي سأطلب فيها إحدى المشرفات للاقتراب مني وفي تلك الأثناء..تمسك بيدي وتضع بها قطعة من الورق.

«اقريها..»

ابتسامة مصطنعة من أجبن ابتساماتي على الإطلاق! أدخل الورق بكل ارتباك إلى داخل دفتري.. لكن فجأة تتسع حدقتا عينيها بشكل مخيف.. «لا..أقولك أقريها حالاً»

أخرجها بكل ارتباك وأشرع في قراءتها:

«أنا من كثر ما احبك

أبيك كثر رمل اليم

وأبيك تكوني فوق الناس

وأبي ما ينحني راسي..

روحي ضروري أقابلك بعد الظهر في شارع الحب.. ok».

لم أتردد لحظة واحدة في الإشارة إلى المشرفة وما هي إلا لحظات.. حتى كانت قدماي تمشي بحرية خارج تلك القاعة، لقد كان أسرع هروب في حياتي! حتى عندما كنت أهرب من صفعات سعيد كنت أكثر بطئاً.. اليوم تعلمت درس السرعة!!

ولم تتوقف أمل وتهاني عن الضحك لساعات هذا اليوم، لا أحد كان يعلم أن بداخلي قلباً محطماً وعيناً لم تذق طعم النوم البارحة، لكنها الحياة يضحك أناس من حيث يبكي آخرون!! والأمرُّ من ذلك هي وسائل الاختفاء

والهرب التي ظللت أمارسها بمساعدة أمل وتهاني إلى نهاية الدوام حتى أنفذ بجلدي من تلك الفتاة التي أرسلت كل جنودها «شلتها» لمراقبة كل تحركاتي.. وارتباكاتي.. وقد لعبنا معهم لعبة القط والفأر إلى درجة أنستني كل همومي.. لقد كان يوماً شاقاً ومرعباً، عدت عند الساعة الثانية والنصف كانت نادية تجلس إلى جانبي في النقل وتزفر وتشتكي من هموم الإنجليزي وتندب حظها العاثر، إنها مولودة معي في نفس العام ولكنها مازالت في السنة الثانية، لم تكن نادية راغبة في الدراسة والتعليم بقدر رغبتها في الضحك وتحويل حياتها كلها إلى مسلسل كوميدي لا ينتهي!! ومن ثم الفوز بظل رجل!!

كنت أحمد الله في داخلي أنها في حالة نفسية لا تسمح لها بالإلحاح عليّ لمعرفة ما قد حصل لسعيد.. مرّ الوقت قصيراً اليوم.. ولم أشعر بالطريق.. لأنها كانت بمثابة الأمان والملجأ لمن قضى نصف يومه في الهرب والاختباء..

أطرق الباب بخوف وحذر فقد سمعت صوت خالي في الداخل.. «يا رب اجعله خير»..

تفتح أمل الباب وهي تردد كلمات كمن يقرأ تعويذات أو صلوات غامضة ونظراتها تنبئ بالخطر:

ـ السلام عليكم.. خالي موجود.. عسى ما شر..

ـ مدري.. أنا فتحت له ورحت الغرفة.. ادخلي واسألي..

لا أدري هل أمل، تعيش معنا في نفس العالم أم إنها تنتمي إلى عالم آخر! لكني لم أكن أستغرب هذا يوماً.. فهي دائمة العزلة والبكاء..

ـ السلام عليكم كيفك يا خالي؟

ـ يعقد حاجبيه ولا يردّ السلام ويربط يديه على صدره.. وينظر إليّ شزراً، وأمي بجانبه مطرقة إلى الأرض، وأنا ما زلت متسمرة في مكاني:

ـ خير «سعيد» فيه شيء..

ـ ليته يعني وش بتطلع أمك غير هذا الردي وأردى منه.. والله ما يندَرى عنك أنتِ وأخواتك وش باقي عندكنه من فضايح؟!

طوفان من الاستنكار والألم بداخلي لو انطلق لمزقته بين يديّ.. هذا الرجل الأرعن الذي لم أر منه في حياتي أي لمسة حنان أو أي كلمة ثناء.. لكن ألف سبب وسبب تمنعني من ذلك..

أدفع نفسي بكل قوتي إلى غرفتي دون أن أدخل في مهاترات مع شخص يعتقد أنه ينتمي إلى الملائكة،وأن أمي سبب كل أخطاء الأرض، أنزع عني عباءتي، وحذائي.

وجواربي. ودموعي تغالب كبريائي، وأمدد نفسي على سريري. لأطلق العنان.. لآلامي.. أبكي.. وأبكي.. وأبكي وأحاولُ أن أنام.. لكن بلا أحلام.. ولا حتى كوابيس أقارِن بين حالي تلك الليلة وحالتي اليوم وحيدةٌ في الجبال المظلمة..أشعر بالبرد يكاد يخلخل أضلاعي.. مرعبٌ صوت الريح مع وحشة المكان التي يبدو صدى صوتي فيها أنيناً يبحث عن أي دفءٍ يضُمُّني.. لست أدري هل مازالت لدي القدرة على المواصلة!! قدماي متورِّمتان وإرهاق ينخر أعماقي.. ساعدني يا رب وألهمني طريق طيبة!.

الفصل الثالث

لم تكن «حمدة» تلك العجوز الأرملة بأكثر حظاً مما لقيه حظ ابنها «سعيد» من حياته فقد كانت بقايا انسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى تراكمت عليها هموم الزمان حتى لكأنها اختارتها من بين نساء تلك القرية الهادئة ـ لمن يراها من أعلي الجبل ـ لتكون هي حارس مرمى الزمن وطوارقه! فهي الى جانب فقدها لرفيق دربها في سن مبكرة وبعد انجابها لابنتها الخامسة الا أن تلك في الواقع كانت أولى معاركها مع الحياة.

الساعة الثامنة والنصف بعد صلاة المغرب استيقظ من سبات عميق أشعر بأنني لم أتذوق مثله من سنوات! :

«إيمان كم الساعة؟»

«الساعة ثمانية ونص قومي صلي المغرب»

أفزع من مرقدي، إنها الثامنة ولم أصلِّ المغرب بعد!! أتأهب للوضوء وأتأمل وجهي في مرآة المغسلة «الله كم أنا شاحبة اليوم!» لقد كان يوماً طويلاً «ساعدني يا رب على تحمل دنياي وأبلغني مأمني أتوجه إلى المجلس لأداء صلاتي في مكان لا يراني فيه أحد حيث استمتع بها

لوحدي! أشعر أنني جائعة لها اليوم، ما ألذ السجود بين يديك يا ملك الأرض والسماء!وما ألذ البكاء بين يديك!

انتهيت من صلاتي وتوجهت فوراً إلى المطبخ.. إذ أنني لم أتناول اليوم ولا لقمة من الصباح،وكالعادة المكان المعتاد والجميل لتجمع أخواتي البدينات تُرى هل إحباطهن من كل شيء جميل في الحياة هو الذي يدفعهن إلى الأكل بلا هوادة؟!! من يدري؟..لماذا باسم الحياة تقتل الحياة وباسم الجمال تقتل الجمال وباسم الحب تقتل الحب؟!

أسئلة كثيرة تدور في ذهني عندما أراهنّ لا يبالين بشيء من حولهن ولا حتى تطوير الذات.. تُرى هل أصبح وجود شخص يشبهني في هذا البيت حُلُماً!:

ـ «إيمان تعرفين أن بلوزتك أخذت حقها مني اليوم.. مسكوني مخالفة.. ووقعت على خمسين ريال كأنها خمسين جبل من وين أجيبها؟!

ـ «لا والله.. أنا من يوم أعطيتك إياها وأنا حاسة إنها وجه شؤم عليك أحسن عشان تبطلين تلبسين بلايزي اللي فوقك كأنها ما هي بلوزتي هذيك المعفنة كل شيء فوقك يطلع حلو.. لو تلبسين كرته خليتي الناس يتمنون يرجعون للماضي ويلبسون كرته»..

ـ «بس قولوا لي من وين أجيبها.. سعيد كل شهر

يأخذ (500) من مكافأتي ومن مكافأتك ولا يبقى غير (400) تروح كلها للسواق.. يعني أبيع ملابسي عشان أجيبها.. خصوصاً أن أكره شيء في حياتي هو الوقوف عند الأبواب وتروح المحاضرة الأولى على بال ما تتنازل المشرفة على المخالفات لتقبل عذري يعني على كذه راحت المحاضرة الأولى من أسبوع كامل والين نجلس في البيت أسبوع للمذاكرة وبعد كذه يجي دور بطاقة الامتحان اللي ما نأخذها ألين تكون الأصلية عندهم.. يعني الخمسين ورايه ورايه.. بس فكروا من وين أجيبها..

- أمل: من بيت مال المسلمين؟!!

- أنت وين عايشة يا أمل ما عاد فيه بيت مال المسلمين هذا إحنا يتامى من سنين من اللي قد فكر فينا «هذي الأحلام كانت أيام الدولة الأموية واللي قبلها، إلا على فكرة أنتِ في أي عصر بالضبط عايشة؟!

- في عصر المسيح الدجال وعلامات الساعة الكبرى؟!

- يا لطيف لطفك.. القيامة عندك بتقوم وما علمتينا.. نفسي أشوفك متفائلة يوم في حياتك..

- التفاؤل هو تمني الموت والعمل من أجله فقط!!

- طيب والحياة.. وين حقها.. وين «ساعةً وساعة» إذا

كان اللي تسوينه اسمه التزام.. فالقرآن قال ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وين الحديث الشريف عندك الرسول يقول: «عش في الدنيا كأنك تعيش أبداً..» وين رسالتنا في الأرض الخلافة.. العمارة.. الحياة.. الحياة.. الأمل.

أنتِ توهمين نفسك إنك ملتزمة وإن هذا دين.. عشان يرتاح عقلك الباطن وضميرك من المساءلة عن دورك في الحياة وعن أهدافك.. وعن وقتك، تختصرين المسافات في الوهم!! هذه في علم النفس اسمها «حيل الدفاع النفسي» التبرير عشان الإنسان يحتفظ بأكبر قدر ممكن من التوازن.. أنت جالسه تموتين وتسمينه دين.. حرام عليك الدين هو الحياة.. هو الأمل هو الابتسامة هو التوازن.. تعيشين زي الأنعام وتسمينه زُهد.. أي زهد هذا اللي يحولّك إلى كتلة من اللحم والشحم والعقم.. أي نعم عقل عقيم.. وجسم مترهل.. كنت أسترسل في كلامي.. وأمل تنسحب بهدوء من أمامي وتغادر المطبخ..

في الواقع لقد كانت هذه نهاية كل محاولات الحوار في بيتنا فليس هناك من أحد يجرؤ على المواجهة!! لماذا لم تقارعني الحجة بالحجة لماذا لم تدافع عن نفسها.. لماذا تنسحب دائماً..لماذا ينسحبون؟! لماذا لا يحبون أنفسهم كما أحبهم؟!

يقطع تفكيري صوت سعيد وهو يتنحنح مثل

الديناصور عند الباب.. في الواقع لا أؤمن بنظرية انقراضها عندما أراه فهو كائن بدائي بمعنى الكلمة!!

ـ لا سلام ولا كلام.. سلم يا ولدي أحرقت قلبي عليك.. «أمي بكل هدوء ما بعد العاصفة..».

يدخل إلى غرفته ويغلق الباب خلفه بكل قوة تشعر معها أن في داخله ناراً من الغضب.. أمي لا تتحمل المزيد من التجاهل والنكران.. وأنا مازلت أتساءل ما هو الجرم الذي ارتكبه لدرجة أن يطرق إلى الأرض عند دخوله إلى عرينه لأول مرة في حياته فلطالما كان الأسد الذي لا تجرؤ حيوانات الغابة على الحديث معه أو حتى الاعتراض على هجماته الشرسة، لكنه اليوم ينظر بانكسار ويغلق غرفته دون أن ينعت إحدانا بأي شتيمة ولا حتى بركلة من رجله يذكرنا بها بأنه موجود!

ـ «جيبي لي مويه يا زفت» مشيراً إليَّ ثم يعاود الإقفال على نفسه.

مسرعة إلى المطبخ لإحضار الماء والخوف واضح في عيني وبينما أنا أغسل كأس الماء.. أسمع الكارثة ويسقط الكأس من يدي وقلبي يتجه بي إلى حيث المشاجرة إنه صوت أمي لقد أصرّت على محادثته وفتحت عليه غرفته فما كان منه إلا أن ضربها كالثور الهائج.

ـ أنا بآربِّيكِ يا الزنوه عشان ثاني مرة تبطلين اللقافه..

ـ حرام عليك يا سعيد أنا أمك جنتك ونارك..

وهو يلكمها ويرفسها تحت أقدامه كلعبة أهملها طفلها فاستولى عليها ذئب مفترس..

أخواتي يقفن بجانبه بدون أن تساعد أي واحدة منهن في إنقاذها من بين يديه.. يا إلهي إنها تنزف.. أمي لم تعد تتكلم.. فقدت وعيها.. ماذا أصنع مع ثور للتو أطلقوه في إحدى سباقات الروديو.. فإيقافه يعني الموت، اندفع بكل قوتي وانبطح أرضاً فوق أمي مظللة كل جسدها المرهق بجسمي في فدائية للتو عرفت أنني أتقنها وصارخة بأعلى صوتي «يا ويلك من الله هذا بدل ما تبوس أرجولها الليل كله وهي تدعي لك يا مجرم يا سفاح يا عاصي» كنت أنتظر نهايتي بعد هذه الكلمات بكل تأكيد لكن الذي حصل أن أمي تقيأت بكل قوة وألم ثم ماذا.. إنها تتقيأ مع الدم.؟!

مشهد يتقطع له القلب كان كفيلاً أن يخرس ذلك الوحش عن مواصلة وحشيته.. وبكل برود يخرج من المنزل وكأن شيئاً لم يكن.. أي مضغة هي التي بين أحشائك أيها المجرم؟!

أحمل أمي بين ذراعي وأخواتي يطلقن العنان للصراخ والبكاء والعويل..

ـ كلمي خالي خليه يلحقها قبل ما تموت..

ـ لا.. أنا بكلم الإسعاف والله لأخلي كل الأرض تعرف إنك مجرم وقليل أصل يا سعيدوه..

نصف ساعة من الانتظار رغم قرب المستشفى منا.. كانت كفيلة بموت هذه المسكينة التي لا أسمع لها سوى نبض خافت.. يخبو شيئاً فشيئاً.. ترى هل ستموت؟!

أرتدي عباءتي وأرافقها في داخل سيارة الإسعاف.. دموعي لا تكاد تنقطع وقلبي ولساني وكل جوارحي تدعو لها بأن تسلم..

«سلمها يا رب من أجلنا جميعاً سلّمها حتى لا نضيع.. سلمها ولو جسداً مسجى.. سلمها ليبقى الأمل.. خذ حياتي وأسكنها بين ضلوعها أرجوك يارب.. سلم أمي.. أبقها على قيد الحياة.. فمن دونها ستأكلنا الذئاب.. وستقبرنا الليالي وسيطوينا الجوع.. وستنسانا الحياة في ركنها القصي.. سلمها يا أرحم الراحمين..».

ترى هل كنت أحبها كل هذا الحب قبل اليوم؟.. في لحظات المأساة تتفجر مشاعرك المكنونة.. وتجبرك على الاعتراف بها!! كم سألت نفسي في لحظات الصفاء هل أنا حقاً أحب أمي.. كما تحب كل فتاة في العالم أمها؟! في الحقيقة.. كنت قد دأبت على أن أوجه لها سياط اللوم والعتب المرير وأحملها كل سقطاتي وآلامي.. ثم أعود وانزعها عنها إذا علمت بأن هذا كان أقصى ما يمكن لإنسانة أميّة، وفقيرة، ومكسورة وبائسة أن تفعله، فلم يكن لديها عصا سحرية لتدخلها إلى عقلها وتفكر كما نفكر، كما أنها كانت شبه معزولة عن نساء القرية.. كانت غارقة في حزنها لوحدها لم أذكر أن إحداهن كانت تكّن لها الحب

بقدر ما كانت تكن لها الشماتة.. كانت أمي مثل الجبل الذي هوى واستحال إلى ركام لا يفتأ يتبعثر.. إذ أنها ومن خلال ما سمعته ممن حولي من الجدات كانت أجمل نساء القرية وأكثرهن مالاً وكبرياء.. وكانت لا تزور أحداً ولا تدعو أحداً إلى مناسباتها التي كانت باعتبارات ذلك الوقت من المناسبات المكلفة.. لكن بعد وفاة والدي وتراكم الديون عليه.. ذهبت كل أمواله في تسديدها إذ حتى منزلنا الذي كانت أيامنا الأولى فيه عند وفاته وأنا مازلت في الخامسة من عمري ما يزال على حاله من الخارج غير مصبوغ وكأنه منزل طور الإنشاء.. ولم يكلف خالي نفسه يوماً عناء التفكير في صباغته.. تذكرنا الناس سنين قليلة بعد وفاة والدنا لكنهم نسونا بعد أن كبر رجلنا التعيس وظنوا أنه قادر على سدّ مكان والده في ذلك اليوم وفي تلك اللحظة بالذات تداعيات الذكرى تكاد تقتلني حسرة وندامة لماذا لم أقبّل أمي قبل ذلك اليوم.. لماذا لم أضمّها إلى صدري.. لماذا لم أسمعها كلمة أحبك «..لماذا حملتها أكثر مما تطيق.. لماذا كنت أنظر إليها دائماً على أنها أقل من أن تفهمني.. وأتفه من أن أشاركها أفكاري ومشاكلي.. لماذا يا أمي أحالتنا الدنيا إلى مجرد أجساد هربت منها أرواحها إلى حيث لا نلتقي.. لماذا أيتها الدنيا تريدين أخذها منا قبل أن تعلم بأننا أحببناها بقدر تعاستنا وحملناها بقدر إهمالها.. وتظاهرنا باللامبالاة.. أرجوك يا ربي.. سلِّم أمي من كل شر»

أخواتي يتصلن بخالي ويخبرنه بما حصل.. ويلحق بالمستشفى بأسرع ما يمكن.. أدخل مع أمي إلى غرفة الطوارئ.. العديد من الأطباء والممرضات والأجهزة والأصوات والصراخ واللغات.. والقادمون.. والخارجون من الغرفة حركة دؤوبة.. وإنقاذ الروح كان الأولى،يصل خالي ويقف بجانبي.. وأول سؤال يسأله:

ـ وين ركبتي.. مع الرجال قدام يا قليلة الأدب؟!

يا الله.. أي عقل هو عقله.. أفي هذا الحال بالذات وأمي تموت سيكون في اهتمامي أين سأجلس لقد كانت الدموع تحجب عيني طيلة الطريق فلم أر سوى سواد ذكرياتي وخيبة أملي هل أجاريه في حماقته فأرد عليه أم أن مجاراة السفيه سفاهة كما يقولون.. لكنه قاطعني:

ـ روحي أجلسي في استراحة الحريم ليش واقفة في طريق الرجال؟! خلاص أمك بخير ولو صار لها شيء وقفتك ما بترد القضا.. متى ربي يخلصني منكنه ومن أمكنه..

أتوجه إلى حيث تقودني قدماي بعيداً عن هذا الجيفة.. الذي لا قلب له ولا حتى عقل.. لماذا يجبر نفسه إذاً على المجيء طالما أنه يتمنى موتها لم أستغرق كثيراً في التفكير إذا سرعان ما مشى خلفي.. موجهاً إليّ كلماته..

ـ «مانبغى فضايح سمعتيني إذا حد سأل تقولين طاحت من الدرج». أعرف أن للصبر حدوداً وللجنون كذلك.. قبل أن

يتحول إلى عته لا يُرجى برؤه كيف يتحدث هذا الشيء عن الفضائح وهناك روح في طريقها إلى السماء..!!

كنت قد عقدت العزم على الاعتراف.. ولو أمام نفسي أنها جريمة ضد الدين والأخلاق والإنسانية وأنها أم الفضائح كما يحبّ خالي تسميتها.. أدلف إلى غرفة انتظار النساء.. والسكون يغطي المكان ثمة طفل يبكي بألم.. ترى ماذا يؤلم ملائكة الأرض غير ما تعيثه الشياطين المؤنسة فساداً.. هل يؤلمك قلبي المضرج بالدماء والغضب.. رؤيتك كفيلة بأن تنسيني الألم أجلس مجتهدة على إحدى الكراسي.. وعيناي لا تكاد تفارق ذلك الطفل وكأني أبحث بين عينيه عن بقايا رحلت منا جميعاً أفتش عن إنسان.. كبر ولم يقلم أظفاره فغدت مخالب يقتل بها روحه في بادئ الأمر.. ثم يصبح سلاحاً فتاكاً وفيروساً قاتلاً.. ينتشر كالسم والعدوى على كل من حوله.. ترى هل سلم هذا الصغير من هذا السم..؟!

صوت أنين أمي لا يكاد يفارق أذني إنها حتى في قمة ألمها تنادي ذلك الوحش وكأنه منقذها مما أرداها فيه.. كم أردت أن تذكر اسمي أو اسم إحدى أخواتي بدلاً من إسرافها في تدليل ذلك العاصي الذي منذ أن فتح عينيه على الدنيا وهو يعتقد أنه الملك والقيصر والسيد والأسد.. وكل أنواع القوة المطلقة.. لم يُسأل يوماً عن شيء لماذا فعله ولم يعاقب على شيء لم يفعله فقط لأنه ذكر.. كبر وكبرت معه

الخرافة وأصبحت مع الأيام أسطورة.. لا يصدقها حتى هو.. وأصبح للملك حاشية ورعية وخدماً لم تكن أمي في ذلك الحشد سوى فرد من الرعية في لحظة غضب أراد ابنها إعادة تربيتها من جديد.. أليست هي من سلمت له القياد.. أليست هي من علّمته كيف يكون رجلاً.. أليست هي من غرس في قلبه وعقله أن الرجولة هي احتقار كل أنثى.. وإهانة كل أم.. وأن يجعلهم مثل الخاتم في إصبعه.. لماذا تئن الآن.. لماذا تبكي وتشتكي لماذا تلهج باسم قاتلها لحظة الوداع؟!أهو نوع من العشق المرضي.. أم هو البلاء والمرض بعينه!!

صوت إحدى الممرضات تنادي باسمي يقطع أفكاري.. وانكساري أرفع رأسي.. وألملم شتاتي.. وأتبعها. ترى لماذا تدعوني هل ماتت أمي؟! «يا رب سلِّم سلم».

خالي.. يقف كالتمساح؟! «في الحقيقة إنه يشبهه جداً فحتى جلده كان جافاً كجفاف قلبه ويميل للسواد وليس للخضرة لكنه تمساح بشري! كنت أتساءل باستمرار كيف تجرؤ خالتي على النوم مع هذا الفك المفترس؟!».

ـ يا الله يا بنت مروحين أمك لازم تنام في العناية وأنتِ عندك كلية باجيب خالتك عندها..

ـ والله ما أروح وأخلي أمي وحدها.

ـ أمك ما عندها إلا العفاريت وأنا أعرف أن لسانك

طويل بيجي شرطة وتحقيق ويسألونك من ضاربها بتجين معي يعني بتجين.. أنا ما جيت إلا آخذك.. أصلاً وش طلعك من البيت يا قليلة الأدب..

وبينما نحن على هذا الحال كان ثلاثة أفراد من أفراد الشرطة قد دلفوا من بوابة المستشفى لمحتهم قبل خالي لأنه كان يدير إليهم ظهره فتعمدت استفزازه حتى أطيل فترة مكوثنا في المستشفى أحدهم يتقدم ويلقي السلام..

ـ السلام عليكم الملازم خالد القحطاني معك.. أنت قريب المريضة «موجهاً سؤاله إلى خالي».

ـ إيه أختي..وش عندك؟!

ـ ممكن نطرح عليكم بعض الأسئلة لو سمحت..

ـ لا أنا رايح بيتي.. يا الله يا بنت.. إحنا ما دعيناكم.. ولا نبغى شرطة.. هذي المرة طاحت من الدرج.. وش باقي تبغون تعرفون..

في الواقع لقد اتصلت من هاتف الممرضة المناوبة في قسم الطوارئ وأخبرتهم أن ثمة سيدة تموت بسبب الاعتداء الجسدي الوحشي عليها وهناك من يريد تعمية الأمر.. لكن لشد ما أثارني سرعة وصولهم إلى هنا إذ كان مركز الشرطة يُرى من البوابة الخارجية للمستشفى.. لكن دائماً يتأخرون باستثناء الليلة لقد كان الحظ معي..

ـ الملازم: إحنا لسى ما سألنا ولا سؤال وأنت بديت تدافع أصلاً أنا لسى ما اتهمتك يا أخ..

ممكن نسأل الأخت وش تصير للضحية..

ـ سميتوها ضحية عليكم لعنة الله ومن جابكم..

أقطع على خالي وأجيب بصوت مخنوق..

ـ أنا بنتها يا حضرة الملازم..

ـ طيب ممكن تنتظرون لحد ما نعاين الحالة.. ونكتب تقريرنا.. فيه أسئلة لازم تجاوبون عليها..

خالي يرمقني بكل حنق الأرض ويزمّ شفتيه.. ويقطب حاجبيه في الواقع لقد كان تمساحاً أما الآن فلا أدري إن كان «الرجل الأزرق مثلاً» يتبعني حيث نتبع الملازم.. ويشير إليَّ بأنني حرمة وما يصلح أطارد الرجال.. لكن لذة إحساسي بالانتصار ألغت حرقة قلبي وحزني على أمي.

ـ من اتصل في هاذولا الملاعين؟!

ـ مدري؟ من وين اتصل عليهم من الهواء.. أكيد المستشفى شكوا في حالة أمي.. المضروب شكله واضح..

ـ أرخي صوتك خساك الله من بنت.

كم كان يروقني شكله وهو يزفر من القهر.. جلسنا في غرفة أحد الإداريين ريثما ينتهي أفراد الشرطة من عملهم.. كان الانتظار الألذ ألماً في حياتي.. نصف ساعة وعاد

الثلاثة في وجوههم علامات الاشمئزاز وعدم التصديق «فما هو الذي يجبر أياً كان على ضرب عجوز في الستين بهذه الوحشية؟!

كسور في الرقبة ورضوض في مختلف جهات الجسم ونزيف في ملتحمة العين واشتباه نزيف داخلي.. كل هذه الإصابات كانت كفيلة بإنهاء حياتها لكن الله سلَّم.. سألتهم بكل أسى..

- كيف حالتها يعني؟ بتعيش؟!

- الأمل في الله.. إصاباتها المبدئية ما دخلت حيز الخطورة حسب الكشف الطبي الأولي.. لكن السؤال مين اللي ضربها؟!

يقف خالي كمن لدغته حية منتصباً:

«أي ضرب الله يرحم والديك قايلين لك طاحت من الدرج انتو ما تفهمون»

- يا عم إحنا عاينا الإصابات ومازال فيه آثار ضرب في أماكن مختلفة من الجسم الدرج ما يضرب في الوجه واليدين بآله حادة..!!

حمدت الله كثيراً أنه لم يذكر سيرة البلاغ الذي وجهته لهم وهنا يوجه الملازم السؤال لي.. وأنا أغالب دمعتي وقلة حيلتي.. وترددي.

ـ أنتِ بنتها شفتي اللي حصل.. مين اللي ضاربها.. الوالد أحد من العائلة..؟! أحد من خارج العائلة تكلمي..

ـ أيوه يا حضرة الملازم.. هذا أخوي الكبير وابنها البكر ورجلها الوحيد.. أخوي سعيد اللي ضربها.. أخوي المجر...؟!

خالي يوجه لي صفعة كفيلة بإسكات موجات الـ fm جميعها!! ويصرخ «هذي مجنونة يا رجال.. أصلاً ما حد يأخذ بكلام الحريم..» بعدين هذي حميلتنا.. والمعتدي ولدها يعني متنازلين.. ومن دون قضية ولف ودوران أنت لو سألت المريضة بتقول أنا متنازلة.. يعني لو سمحت خلنا نسري ويا دار ما دخلك شر وبنتنا إحنا بنربيها»

لقد كان يقصدني ترى ما هو العقاب الذي ينتظرني بعد هذه الصفعة القوية.. لولا الملامة لطلبت من الملازم حمايتي منه إلى حين وصولي بيتنا أو بقائي بجانب أمي.. إنه الخوف يكبر معنا من طفولتنا فيستحيل إلى مرض عضال يشلّ قدرتنا على التفكير والتحرر.. وبل وحتى قدرتنا على البكاء.. إنه يحيلنا إلى مجرد آلات متحركة كيفما يشاء مخيفونا..

مكثت في مكاني لا أتحرك بينما أفراد الشرطة يجرون اتصالاتهم ويكتبون في أوراقهم.. إنهم يعرفون هذا السعيد أكثر مني ألم يكن البارحة مرافقاً لهم هنا في قسم الشرطة..

لم يغب كثيراً.. عبارات الملامة والتقريع أسمعها منهم.. وكأني بي أتحدث صمتاً..

ـ مادام إنكم تعرفون مصيبته وإنه متعاطي.. ومجرم ليه تطلعونه من سجنكم.. ليه ما تخلصون المجتمع من أمثاله.. وبينما أنا أسترسل في ألوان العقاب.. يقرر خالي فجأة تركي عند والدتي والتوجه بمفرده إلى المنزل!!

أتوجه فوراً إلى غرفة العناية المركزة حيث ترقد أمي.. لا أكاد أرى وجهها من كثرة الأجهزة.. فإلى جانب معاناة أمي من انسداد صمامات القلب وارتفاع الكولسترول وضغط الدم والروماتيزم جاء هذا الحادث ليأخذ من صحتها نصيباً أكثر إذ أنها حتى هذه اللحظة لم تعد قادرة على التنفس دون مساعدة الأجهزة.. تفتح عينها ثم تعود لإغلاقها لساعات.. أدير وجهي في تلك الغرفة الكئيبة وأسأل نفسي كم من الأرواح صعدت من على هذا الكرسي.. كم الآلام التي صرخت هنا.. هل كلهم يشبهون أمي.. أم إنها كانت المظلومة الوحيدة.. أتساءل من جديد لماذا قرر خالي تركي بعد إصراره على إعادتي للبيت ثم لماذا يتنازل عن هوايته المحببة وهو صفعي إلى أن يحمر خدي.. لا أدري ما الذي قادني سريعاً إلى خارج غرفة أمي.. مسرعةً إلى إحدى الممرضات التي من حسن حظي كانت سعودية.. ما أروعها وهي تعاملني كأخت لها وتسألني عن أمي.

ـ أبغي أكلم البيت ضروري ممكن أكلم من أي تلفون في غرفة المرضى..

ـ الساعة الحين «11» وتلفون المستشفى يقفل الساعة عشرة لا يرسل ولا يستقبل عشان راحة المرضى لكن ثواني وأجيب لك جوالي من المكتب..

أنتظر في ذلك الممر الطويل الذي يفوح برائحة الديتول والأدوية والآهات والأنين.. ومسكنات الألم.. إنها رائحة الموت.. كلما شممتها أكثر ازداد اكتئابي من المكان.. ترى أين يقبع هذا الزائر المخيف أفي يمينه أم في شماله؟!.

تأتي الممرضة ومعها جهازها الجوال.. وتفتحه وتشرع في تسجيل الرقم المطلوب مني.. وما هي سوى لحظات حتى كانت «هناء» على الهاتف:

ـ السلام عليكم أنا سحر.. خالي قدر رجع؟!

ـ لا باقي أمي كيف حالها طمنيني «والبكاء واضح في صوتها..

ـ عدت الخطر بتعيش إن شاء الله انتوا ادعوا لها.. بس أنا متصلة عشان شيء ثاني..

ـ وش هو؟!

ـ أنا باطلب منك أنتِ وأمل وسناء وإيمان طلب

واضح تروحون غرفتي عشان فيها مفتاح وتقفلون عليكم ولا تفتحون حتى لو دق الين ينكسر الباب. فاهمين.

- مين قصدك؟!

- سعيد..

- طيب ليه؟!

- أنت نفذي اللي قلت لك بالحرف وبعدين إذا جيتوا عند أمي المستشفى قلت لك الحين ما ينفع.

- خلاص.. مع السلامة..

- في أمان الله.. ودعتكم ربي..

أغلق الجهاز وأسلمه للممرضة بعد أن وضعت حملاً كبيراً من على أكتافي.. وهي بكل لطف تسألني..

- الجوال تحت أمرك في أي وقت أنا عندي دوام مسائي «مناوبة إلى الساعة وحدة» اسمي «حنان».

- مشكورة والله إن شوفتكم في هذا المكان تشرح الصدر وتعطينا الأمان.

تنصرف وقلبي يلهج لها بالدعاء.. في منتهى الحشمة والوقار واللباقة والحس الإنساني كل متطلبات هذا العمل المرهق كانت متوفرة فيها.. لا أدري لماذا أشعر بالغبطة كلما رأيت خماراً ينتقل في مكان عمل وإنتاج إنه الشعور بالمشاركة والقيمة.. والهدف الواحد الذي لا ننفك نكون

شقه الأهم وإحدى رئتيه في كل تنمية.. وكل إنجاز.

في الحقيقة كنت قد فهمت من تلميحات أفراد الشرطة ما يكفي لشخص حاذق مثلي أن يفهم ما هي جريمة سعيد الأخيرة.. والآن فهمت لماذا استيقظ صباح الجمعة لأول مرة في حياته.. ولماذا لم يأت ليلتها سوى عند ساعات الفجر الأولى مازلت أتذكر حالته الرثة وآثار المسكر ورائحته النتنة عندما فتحت له الباب فهو لم يكن يعرف أين هو الآن كان يهذي بأسماء ولعنات.. ولا يكاد يقف إلا ويسقط لكن جريمته حتماً كانت قبل دخوله إلى هنا!!

تُرى يا سعيد هل أنساك الحشيش أو الهيروين أنك يتيم وعاطل عن العمل وعاق للوالدين يوماً.. أو حتى ساعة؟! إنه يذكرك بألمك كل لحظة ويوهمك بالقدرة وأنت العاجز وبالصلاح والخير وأنت الفاسد المفسد.. كيف هو لون دمائك الآن.. ممتلئة بالسم حد امتلائها باللعنات.. تماماً كمن يذهب إلى الحلاق فيسلم له زمام شعره يقصه كيفما يشاء.. إنك تذهب كل مساء إلى عرش الشيطان تضع عقلك تحته وتغادره كأنتن ما يكون الإنسان وأرذل ما يكون الذكر.. والسمعة.. تُرى.. أي «لوطية» مارستها أنت وزملاء الشيطان بليلة الجمعة.. وأي طفل ذاك الذي قتلتموه حياً وربطتموه في قياد العقدة والنجاسة.. وخيالات الرذيلة ورائحة النفايات؟! وأي سيرة هي التي سنذكرك بها بين الناس بعد اليوم؟!إنك تجبرني على الانحناء وأنا التي

ترفعني عزة نفسي وكبريائي وقبل كل شيء إيماني وصفاء سريرتي وسلامة عقلي وطهارة شرفي.. لقد عشنا نفس اليتم ونفس الليالي ونفس الألم.. لماذا لم أكن مثلك.. لكنه المجتمع الذي أعطاك مفتاح كل شيء حتى لم يعد لديك شعور بالحواجز والقيم ومكانة الإنسان.. وقيمته..

إنه نفس المجتمع الذي يتذوق مرارة جرائمك.. ويخاف منك حتى على شوارعه الآمنة وأزقته المحفوفة بالشكوك والخوف..

لذلك كله كان لابد من الاطمئنان إلى أن ذلك المحبط الذي لا ريب في أنه توجه إلى «شلة الأنس» لتناول مسكره حتى ينسيه ضربه لأمه سيعود إلى البيت في نفس حالته.. وكنت لن أغامر بإحدى أخواتي لتكون مكان ذلك الطفل ابن الخامسة عشرة والأخ الأصغر لأحد أعضاء أصدقاء الشيطان.. كم هو مؤلمٌ هذا الظلام يخترق روحي مهدداً بالسقوط..أكاد لا أرى موضع قدمي مع كل هذه الصخور التي لم أجد فيها ما يَصلُح مُتَّكئاً يرحم البقية من تماسكي..مكانٌ أرمي به كل هذا التعب الذي ترك كل الدنيا ليستقر في صدري أبكي عنهن وأتألم من أجلهن ويسحقني الليل والجبال والريح وأصوات الذئاب وأطياف العقارب والحيات.. ولا أبالي!! فالذكريات تنهمل كالمطر والتاريخ يمرّ من أمامي.. وحدي تجرّني الذاكرة إلى الخلف!

الفصل الرابع

«ايمان» ابنة العشرين ربيعاً زهرة كربيعها نسيها المطر كثيراً حتى نسيت أو تناست أنها زهرة.. فقست كثيراً علي رقتها واعتلت ملامح جمالها ملامح ليست الى شيء سوى الى هروب طويل يأمل دائماً أن ينتهي.. وغول كبير يطارد كل أحلامها فتغدو بلا ايمان؟!.

أشعة الشمس تخترق الزجاج يتلألأ معها وجه أمي وهي لا تعي ما حولها.. لقد مضى وقت طويل وأنا أتأمل عينيها المغمضتين لقد كانت تشبهني إلى حد كبير.. كم من المصائب والمحن يجب أن تتلقاه عيناي قبل أن تصبح مثلها.. نور وجهك هو نور إيمانك وصلاتك التي لم تتركيها يوماً، غير أني لم أرك يوماً تأمرين ابنك بالذهاب للصلاة في المسجد.. ترى هل تعوّد الأولون أن يكون الإيمان شيء يخصهم وأن التربية هي القدرة على استصدار الرزق بدون روح.. لماذا أيتها الجميلة الستينية النائمة في قلبي أيضاً قبل سريرك المرضي.. لم تذكريني يوماً بأن الحياة جسد وروح.. وأن الشمس يكملها القمر.. والنهار لا يرتاح بدون ليل.. لقد ملأت قلب ذلك الصغير بأن الحياة لابد لها من قلب

كالصخر.. تشاغلت ببناء صخرته عن ينبوعه فجف وغدا حجراً لا يتفجر من الماء!.. لقد أشغلك هم وجودك بلا رجل.. فقسيتِ على ذلك الصغير وعلمتّه كيف يمسك السلاح قبل أن تعلميه كيف يعتني بالورد!! لم تتركي له فرصة اللهو مع الصغار ولم تشتري له لعبته، انتزعته من طفولته وألبستهِ ثوب الرجل قبل أن يكون مستعداً.. سلمتهِ لأخيك المتشدد فعلمه أن الحياة جبال من المسؤوليات والهموم والشقاء ولا مكان فيها لابتسامة.. قيدتموه في صراع لا يعرف طرفه الثاني.. وأدخلتموه في حرب لا يعرف سببها ولا يتقن خدعتها!!

وحتى عندما بدأ مراهقته ببضع كلمات رقيقة نقلها معي لنادية وصلت إلى مسامعك يا أمي.. تركتِ لذلك الموقف أسوأ الآثار في حياته لقد ضربه خالي ضرباً لا ينساه وأسمعه كلمات لم يكن يفهمها ومنعنا من زيارتهم منذ ذلك الحين.. حتى وهو لا يعرف جرمه ألحَّ علي كثيراً أن اسأل نادية.. هل الحب حرام؟! لكنني لم أسألها لأن الإجابة ستأتي مع الزمان وسيعرف بنفسه إن كان حراماً أم حلالاً..والذي لم أتوقعه أبداً أن تأتي إجابته على تساؤلاته الطويلة الصامتة المكبوتة بكل هذا الشذوذ!! لماذا يا أمي؟! لماذا يا خالي؟! لماذا نقمع إنسانيتنا ونلطخ كرامتنا من حيث نعتقد أنها تربية!.

صوت الكعب العالي الذي ترتديه إحدى الطبيبات من

جنسية عربية يوقظني من غيمة النعاس التي ظللتني وتدخل إلى الغرفة متسائلة عن سبب وجودي في غرفة للعناية المركزة «ممنوع الدخول!!»

لم أشأ لأخبرها أن ممنوعهم أحب إليَّ من صفعات خالي عندما تركني ولم أتجرأ ولو لحظة واحدة للحاق به.. خرجت من الغرفة بكل استسلام حتى دون أن اسألها عن حال أمي.. ولكن ارتباكها.. وخروجها السريع لطلب الدعم جعلني أعود مرة أخرى.. وكلي رجاءً ألا يكون مكروه قد أصاب أمي.. لقد كانت نائمة.. أو غائبة عن الوعي.. لكن قلبها يعمل بشكل سليم.. أما الآن.. تتكلم مع ممرضة من الجنسية الشرق آسيوية بالإنجليزية «إنها تطلب المساندة.. سيتم إنعاش قلبها.. يبدو أن ضغط الدم عندها مرتفع» في الواقع ومن خلال هذا الحال لقد كانت إنجليزيتي جيدة إلى حد بعيد مرتبكة أسألها:

- خير يا دكتورة أمي كيف حالها..

- بدك تنتظري برًّا لو سمحتي في عنا طوارئ..

أفهم ضرورة احترام عمل الآخر وخصوصية ذلك ووجودي خارج الغرفة في حال العمل لكن الذي لا أفهمه أبداً أن التعامل مع فلذة كبد المريض بإنسانية ليس شيئاً صعباً ولا يُحتاج إلى تعليمه في أرقى جامعات الطب في العالم.. إنها مسألة فطرة.. وتعاون ومشاركة وجدانية.. لكن

الذي في النار.. لن يكون أبداً كمن يرفل في نعيم الماء ساعتين من الانتظار هي الأخرى أرهقت كاهلي والنعاس يغازلني فأصده كثيراً.. هل أتوجه إلى الممرضة حنان للاتصال بالبيت.. من الممكن أن سماعي لصوت أحدهم كفيل بأن يخرجني من حالة الضياع التي أعيشها فإلى الآن لم يأت أحد لطمأنتي هل فتحوا قلب أمي.. أم عينها.. في الحقيقة لقد كان شكلها مأساوي جداً فعينها.. اليسرى متورمة إلى درجة خروجها من مكانها إلى الخارج بالتهاب واضح واحتقان للدم في أسفلها ماذا جرى لأمي.. ومن يأتي لطمأنتي.. أتوجه إلى غرفة الممرضة حنان والساعة تشير إلى العاشرة صباحاً إنها غير موجودة فدوامها مسائي فقط.. يا للحظ!!

أعود إلى مكاني ورائحة الممرات ودورات المياه تكاد تخنقني.. وأخيراً تأتي إحدى الممرضات لدعوتي وأتوجه إلى غرفة لأوقع على بعض الأوراق التي لا أعلم ما بها.. رفضت ذلك في البداية معتقدة بأنهم ربما أجروا لأمي عملية لا تحتاجها فالأخطاء الطبية اليوم أكثر من عمليات التجميل.. لكن الذي لم أكن أتوقعه هو أن تطلب مني التوقيع على طلب تحويل أمي إلى مستشفى آخر.. ترى هل يُعد إخلاءً للمسؤولية.. ثم من طلب منكم تحويلها.. أنا لم أطلب ذلك.. أم أن والدتي لم يبق على موتها الكثير لذلك أرادوا وفاتها في مستشفى الموت كما يحلو لأختي

هناء تسميته.. لكنني رفضت مرة أخرى.. وطلبت أن يكون ذلك عندما يأتي خالي لزيارتها في العصر..

أتوجه إلى غرفة العناية حيث تقبع أمي بلا حراك.. لكن يا للمفاجأة إنها تحرك عينيها وكأنها تتابع حركة أحدهم!

«أمي» «ناديتها» أنَّة طويلة تخبرني بها أنها تسمعني.

«أمي فديتك وش يوجعك».

أنة أخرى وأخرى وأخرى.. واسم سعيد يختم الأنين لابد أنها تريد أن تعرف أين هو الآن.. وأنا لا أدري ولم يأت وقت الزيارة بعد.. ربّت على كتفها وقرأت لها سورة الفاتحة.. الشافية الكافية بإذن الله.. وجلست إلى جانبها وحيدة منكسرة تساءلت إن كان سعيد مشفق عليها كحالتي.. وهل تجري دماؤها في عروقه صافية أم مسممة؟!

مجموعة من الأطباء تدخل إلى الغرفة والكثير من الكلام.. يتصدى للحديث أحدهم.. ويسألني عن قرابتي للمريضة.. ثم يواصل:

«أمك من خلال الأشعة واضح أن عندها ماء في الرأس بسبب الارتطام القوي بسطح صلب.. ولازم تعمل عملية في خلال ثمانٍ وأربعين ساعة لضمان سلامتها الضغط الآن وضعه كويس وإن شاء الله تقوم بالسلامة..»

وزفرة طويلة أطلقتها بعد كلماته لأن العملية لم يكن حري بها أن تُجرى هنا كما طُلب مني قبل ساعة التوقيع على أوراق تحويل لابد أنها عملية دقيقة ومهمة لأمي.. متى يأتي خالي لأخبره في تلك الأثناء.. صرخت بكل ذهول:

«تلفون.. أبغى تلفون»..

أتوجه مع إحدى الممرضات إلى قسم الباطنية وأدلف مسرعة إلى إحدى الغرف التي كانت خالية وأشرع في طلب رقم بيت خالي.. كانت خالتي على الطرف الثاني..

ـ السلام عليكم خالتي أنا سحر.. بغيت أكلم خالي ضروري.

ـ خالك استأذن من الدوام وجاي عندكم خرج من البيت له ربع ساعة.

ـ الحمد لله.. يا الله مع.. لكنها قاطعتني..

ـ أفطرتني وإلا أكلتي شيء من أمس..

ـ مو مهم يا خالة أنا خايفة على أمي لازم تسوي عملية مستعجلة مع السلامة..

لم تكن إلا دقائق ويدخل خالي إلى غرفة العناية المركزة بعد أن كان قد وقع على تلك الأوراق ونقل أمي بسيارة الإسعاف إلى مستشفى أبها انتظرت بجانبها حتى صلينا المغرب ثم كان أن نقلوها لوحدها في تلك السيارة

وأنا مع خالي في سيارته وفي الطريق كان الصمت الطويل المزعج هو ما يميِّز تلك المسافة ما بين المصحين.. أمي هل ستعود كما كانت.. وما الذي في رأسها وهل سيؤثر على حياتها مستقبلاً الكثير من الأفكار.. هل أسأله عن سعيد...؟! كيف أسأل هذا الوجه المكفهر الذي تخاله للتو خرج من مصارعة للديوك!!.. إذاً سأسأله عن أخواتي..

ـ خالي كيف البنات داوموا وإلا أحد جلس في البيت؟

ـ خالتك راحت عندهم في الصباح «ما عندهم عفاريت» وسعيد مسكته الشرطة مع رفاقه السوء في بيت أبو طار «كان هذا اسم الشهرة لأحد شباب القرية.. إنه المكان المناسب لسعيد وأمثاله!

«أنا أقول هذه المرة يقعد في السجن يتربى أحسن» يا للغرابة إنه لم يصفعني حتى الآن ثم إن أسلوبه كان في منتهى الهدوء يبدو أنه متأسف لحالة أمي.. وكذلك لحال أخواتي في البيت الخاوي سوى من أعين تترقب الآتي الجديد..

ـ خليك مرافقة مع أمك وأنا باجيب لكم عشاء.. وأرجع لكم بكرة في وقت العملية..

كانت هذه الكلمات البسيطة هي نهاية حديثي مع خالي قبل أن آخذ مكاني بجانب أمي في الغرفة الجديدة..

إنها أوسع وأكثر نظافة لكنها تحمل نفس الرائحة.. ونفس الزائر المريب..

ـ أمي.. كيفك الحين..

ـ الحمد لله... مشيرة بسبابتها إلى السماء..

ـ الحمد لله على كل حال..

كان خالي قد أخبرها بمصير ابنها وأنه عاد من حيث أتى ففي البداية أطلقوا سراحه لأن الولد المعتدى عليه هو شقيق المعتدي مع سعيد لذلك أراد إنهاء الموضوع بسرية خوفاً من الفضيحة.. لكن ضربه لأمي جعله يتعاطى المسكر مع زملائه في نفس المكان الذي ارتكبوا فيه المصيبة الأولى وبالتالي لم يكن صعباً على الشرطة إيجاده، هذه المرة التهمة مؤكدة عليه بشهادة أخته ولن يخرج حتى تتنازل المعتدى عليها التي هي الآن شبه غائبة عن الدنيا..

وبعد ليلة طويلة قضيتها في الانتظار شاطرتني فيها أخواتي الألم والرجاء.. عيون حائرة، وشفاه أخرستها المصائب، والتهميش، واللامبالاة ترى هل نريد لأمي أن تبقى على قيد الحياة لأننا نحبها؟! أم لأنها بمثابة الربان لسفينة متآكلة آيلة للغرق في أي وقت؟! لكن لا يهم بما أنها الربان حتى وإن كان بنصف عقل ولا إرادة ولا علم ولا أمل.. لكنه يتقن عمله.. ولابد أن يبقى لتبقى سفينته.

هناء كانت أكثر بكاءً وتأثراً يا لهذه اللحظات! إنها تخبرك بكل صراحة أنهم مازالوا يشعرون! كم مصيبة

يحتاجها هؤلاء ليستيقظ الإحساس في داخلهم ويشعروا بأن الحياة تحتاج إلى الضحك وتحتاج إلى الألم كما تحتاج إلى الأمل؟! اليوم يتزحزح الصمت من بيننا بتثاقل، إننا نلتصق ببعضنا وتضم إحدانا الأخرى.. أشعر أنها لحظات لا يجب أن تنسى.. هل ستكون مصيبتنا في أمنا بداية الطريق للتصحيح؟ ربما من يدري.

ثلاث ساعات قضتها والدتي في غرفة العمليات.. تبادلنا خلالها الكثير من الذكريات والآهات وتحدثنا طويلاً طويلاً وعدَت إحدانا الأخرى بأن لا تُخطئ في حق الأخرى بعد اليوم، وعدتني «إيمان» أن أكون ملاذها الآمن في كل مشاكلها بعد اليوم بعد أن كانت تنعتني بالغريبة!! «وأمل» فارقها هاجس الموت لبعض الوقت إنها تبحث عن الحياة في روح أمي وتدعو لها بالنجاة أي هم هو الذي تحملناه لترمي بنا الدنيا في قارعة الطريق! وفي ركن قصي! حتى تحجرت أصواتنا في حناجرنا فأصبحنا كائنات صامتة نرى الظلم ونذوق المر ولا نبالي.. كائن منسي حتى من أقرب قريب يلوك الحسرة، ويتأمل النوافذ المغلقة، حتى نسي ملامحه وتفاصيله وغدا مجرد كائن يتنفس بنصف رئة ويبحث عن الموت عند كل باب يتألم لوحده وتعصف به رياح الشك في كل جانب.

إن كائن اليوم يشترك مع أولئك النسوة في كل شيء لكنه يعامل وكأنه للتو قد هبط من الفضاء! حتى حزنه لا

يستطيع أن يعبر عنه بالبكاء.. إنه عيب!! «لا حد يسمع صوتك يا حرمة» «وصوت المرأة عورة» حتى بات يعتقد أنه هو بذاته عورة لا محالة.. وأمسى يختبئ خلف الجدران وبين أرتال الإسمنت وتحت أقبية الصمت والملامة فلا يتجرأ على الحركة قبل أن يرفع سبابته في إشارة إلى الاستئذان هل يمر من هنا؟ هل يصلح أن يبكي لأنه حزين؟ سيحاول كل جهده أن يكون بكاؤه صامتاً فقط يريد أن يبكي.. هل يخرج من الباب؟ وهل يصلح أن يخرج إلى غير المقبرة.. وبيت الزوج؟ بعد أن أنهى مهمة خروجه من رحم أمه واسود وجه أبويه «يتوارى من القوم من سوء ما بشرّ به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب» يتساءل إن كان من حقه أن يكون مبدعاً وأن يمسك بالشق الثاني من مجداف المركب أم أنه لا يحسن القيادة وأنه لم يخلق سوى للغواية وأنه السبب في أكل تفاحة الجنة وأنه ملعون إلى يوم يبعثون.. ينقل عينيه إلى كل الزوايا ويتساءل بعدد شعر رأسه هل يصلح للحياة.. وهل يستطيع أن يكون شيئاً آخر غير أن يكون فراشاً؟!

كائن نسي كثيراً نعومته.. وقست عليه الظنون.. وتعملقت حوله الأسطورة حتى أصبح بعد أن تحرّر من عبوديته قبل ألف وأربعمائة وثمانية وعشرين عاماً يبحث عن حقوقه؟! يفتش عنها في القلوب أولاً وفي كتب العقيدة ثانياً إنه يجدها مع كل آية يوجهها ربه إليه مع شريك حياته

ومهمته على الأرض «آدم» ويجدها في حديث لرسوله الكريم.. ومع ذلك يصرّ على تسميتها مطالب وحقوق! يسأل عن جمعية حقوق الإنسان وهل ستزاول عملها هنا أم أنها مازال أمامها الوقت! وحقوقه بين يديه في كل وقت وكل حين يقرأها ويسمعها ويرتلها أحياناً أخرى..

أفكار طويلة أخذتني معها إلى عهود ساحقة من حياة البشرية وتاريخها المليء بالأحداث والمواقف..

خالي قادم من بعيد يحمل في يده كيساً من البلاستيك إنه يشير بيده بكل قوة ويقطب حاجبيه كما يفعل دائماً:

«وش قعدكم في طريق العالمين يا حريم أدخلي في أي زفت بسرعة»..

ألم أقل لكم بأنه لا يُسمح له «هذا الكائن» أن يرتبك حتى ولو تكالبت عليه مصائب الدنيا يجب أن يكون دائماً في الصورة وأن لا يختار الطريقة التي تفرضها فطرته في الحزن والتأثر، بل عليه أن يختار الطريقة التي يراها ولي أمره!!

دلفنا سريعاً إلى غرفة انتظار النساء ولم يبق من أحد.. نفس القطيعية التي تربينا عليها وسنربي عليها أبناءنا فيما بعد!،أتناول مع أخواتي طعام الإفطار الذي أحضره خالي ويتهامسن.. أسمع اسم سعيد من خلال حديثهن.. وأدعو الله أن لا تأتي سيرته قبل أن يرحل خالي من عندنا:

«إيمان: سحر، سعيد ما رجع البيت من يوم طلع وأنت اتصلتي وطلبتي منا ننام في غرفتك ونقفل علينا ليه؟!

أتلعثم وأحاول جاهدة أن لا يفهم خالي شيئاً.. فهو حتى لم يكلف نفسه إخباري بما ارتكبه سعيد إذ يعتقد دائماً أن الحريم يعشن بلا عقول وأن مكانهن الطبيعي هو المطبخ!! ألكزها بيدي علّها أن تصمت لكن خالي يتنحنح ويرمقني بإحدى نظراته التي حفظت معناها ويقول..

ـ ما عليكم خوف من حد وإذا خايفين بأرسل خالتك تنام عندكم الين تطلع أمكم..

يا للحظ إنه لم يفهم كل هذا ولم يفهم يا للغباء! ويعتقد هذا التمساح أنه من أذكى الأذكياء.. لقد أعتقدت أن عمله في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعله يتوهم المنكر في كل حديث غير واضح إذ أنه كان من أكثر الناس إطلاقاً للأحكام على كل من يعرفه وربما تصدق بها على من لا يعرفه! ففلان علماني، والآخر ملحد. وهناك الزاني، والفاسق، والمخنث.. ولديه قائمة تطول وتطول.. مع علمي أنه إلى الآن لم يقف على حالة بأم عينه وأن الدليل عنده غائب.. لكن لحيته الطويلة وثوبه القصير قد منحته شهادة المجتمع وثقته أن يقول ما يشاء ويفعل ما يشاء فهو بالنسبة لهم ملاك لا يخطئ وعاقل لا يضل.. المهم أنني اكتشفت اليوم غباء هذا الشخص من حيث لا يدري..

ساعةً أخرى وندخل جميعنا إلى أمي.. المطلوب عدم الحديث معها.. لأن ذلك مرهق لها. كان ذلك وقت العصر من يوم الاثنين يومٌ كان مميزاً بالنسبة لي.. إنه موعدي الأسبوعي مع «الأعور المجنون» ذلك الثمانيني النحيل العذب عذوبة مأساته والنبيل نبل أخلاقه والمجنون بأعراف الجهلة وأصحاب الفكر الوصائي.. لم يكن ليعجبني وصفهم له يوماً فمنذ أن كنت في المرحلة الثانوية وأنا أتوق إلى محادثته واكتشاف هذا المخلوق الذي تُنسج حوله الخرافات وتلصق به كل التهم ويقذفه الأطفال بالحجارة وتتسمر صديقاتي وإخواتي عند انتظار باص المدرسة لدى رؤيتهن له.. لكنه يبتسم دائماً ويمر.. مازلت أذكر المرة الأولى التي سمعته يتحدث فيها في حياتي.. لقد كان يتكلم مثلنا لغة عربية ليس فيها غرابة معيداً إلي حقيبتي بعد أن نسيتها في مكان تجمع الطالبات وذهبت إلى المدرسة بدونها لأنني في ذلك اليوم كنت أحمل الكثير من الأنشطة واللوحات الأمر الذي أنساني الحقيبة.. حملت همها كثيراً لكني لم أخبر أحداً بفقداني إياها.. لا زلت اذكر تلك الساعة الحاسمة عندما نزلنا من الباص وبدأنا نحث الخطى نحو منازلنا عندما نادانا جميعاً «يا بنات» خافت جميع البنات وهرولن في صراخ واضح «المجنون..» بينما توقفت أنا ونظرت إليه برأفة..

ـ نعم يا عم وش بغيت؟

ـ فيه وحدة منكن نسيت «زوَّادتها» تحت اللوزة «لونها أغبر..

ـ علمت أنها حقيبتي لكن لونها كان «زيتياً» لم أكن في الواقع أريد حقيبتي بمقدار رغبتي في اختبار قواه العقلية.. فسألته..

ـ هذي شنطتي يا عم لكن وينها؟

يتجه إلى أحد الأشجار ويستخرجها من أعلاها.. لقد رفعها هناك حتى لا تصلها يد عابث.. ومتوجهاً إليَّ..

ـ هاكِ.. مبتسماً..

يا الله كم أسنانه صفراء وسوداء.. ومهترئة لكن ابتسامته أوحت لي أنه يتمتع بالأمانة والإنسانية وبالعقل أيضاً..

ـ شكراً يا عم الله يعطيك العافية عشانك رجعت لي الشنطة أبعطيك الفلوس اللي داخلها..

ـ لا بابنتي أنا ما آخذ فلوس على الحق والواجب وأنا رجال وأطلع رزقي بيدي..

كم تمنيت أن يطول كلامي معه.. إنه يتحدث في منتهى الثقة واللباقة ويناديني بنتي!! لأول مرة في حياتي أسمعها من رجل..كم كان خالي يعتبرها كلمة لا تليق به فلم يشعرنا بأنا بناته أبداً.

اذكر أنها كانت أياماً صعبة بالنسبة لي حتى تمكنت

من الدخول إلى عالمه، في الواقع لقد اقتنع ذلك الثمانيني أنه مجنون في عرف الناس لذلك صنع لنفسه عالماً يتعايش فيه مع أرواح مضت يحادثها، ويحبها ويحن إليها، عازلاً لنفسه تماماً عن حياة اليوم! هازئاً من أعماقه بكل حماقاتهم وعبثهم بأعرافهم ونخوتهم وصحتهم ابتداءً وانتهاء بإحالتهم التي نزحوا عنها كثيراً إنه يقرؤهم كما لو كانوا كتباً مفتوحة أمامه ويؤرخ لهم ولأحداث حياتهم ويعرف الجميع بأسمائهم وكناهم وزوجاتهم وتناقضات حياتهم اليومية وينتقدهم ويفعل ما بوسعه أحياناً لإنقاذ طفل أو لإطعام كبد رطبة أو لزراعة زهرة على صفاةٍ يابسة.

الأعور المجنون يؤمن أن الحياة رسالة أكثر من أبي أحمد جارنا الذي طلق زوجته لأنها لا تشبه نانسي عجرم بعد ثلاثين سنة من الزواج والعشرة والأطفال والصبر.. كم أدهشني وهو يسرد لي حكاية أبي أحمد وكأنه فيلسوف في علم الاجتماع أو في علم النفس يتحدث عن المد الإعلامي.. وعن أشياء وإن سماها بغير اسمها.. لكنه يفهمها ويفهم تأثيراتها في حياة اليوم.. كان يسمي التلفاز الشيطان الملون.. وكان يعرف أن أبا أحمد لو لم يدخل هذا الجهاز إلى بيته لظل يرى زوجته من أجمل النساء.. إنهن عاهرات.. هكذا كان يقول.. يدمرن البيوت ويصنعن الموت.. في الواقع لم يكن كل ما يتفوه به واقعياً لكنه كان يخرج من عقل وتجربة.. أربع سنوات قضيتها مع هذا النحيل الأعور

في عينه المستمد نوراً في بصيرته، كان كل يوم اثنين من بعد العصر هو موعدي الذي التقيهِ فيه،وبشكلٍ لا أفهمه حتى الآن كنت أتعامل معه كما لو كان جدي لأنني لم أتعوّد على كلمة أبي في حياتي.. وشعرت أنها لا تناسب علاقتي معه.. إذ كثيراً ما يكون الجد هو مخزن الحكمة والتجارب والاستشارات وذلك ما كنت أراه في الأعور المجنون الذي قضيت إلى جانبه أجمل الساعات في حياتي.. كنت أتذكره وأفكر ماذا سيفعل عندما يفتقدني ذلك اليوم؟ إنها المرة الأولى التي أتأخر فيها عن موعدي دون أن أعتذر فيه قبلها بأيام أو أوضّح له الأسباب ترى ماذا سيفعل هل يتناول الشاي بدوني؟! كم كنت افتقده في تلك اللحظات.. أردت أن أخبره بأنني أحب أمي أكثر مما توقعت.. وأنني قوية أكثر من خوفي.. وأن سعيد ذهب إلى مكانه المناسب.. ولن تخنقني تصرفاته بعد ذلك اليوم.. إن تناوله للمسكر والقبض عليه في حالة سُكر تام ستجبره على المكوث بعيداً لمدة سنة سيتخللها علاجه من هذا السم بكل تأكيد.. بغض النظر عن ضربه لأمه وإحداث كل هذه الإصابات بها..

كان الجميع يتحدثون مع أمي وسط ذهولي وفرحتي إنها تبتسم وتتكلم بعد ساعات التخدير التي قضتها نائمة.. تسأل عنا وعن ما حدث لها ونشرح لها ونتحلق حولها كما كنا عندما كنا أطفالاً وتساءلت هل فقدنا أطفالنا أم خنقناهم

أم حبسناهم في زاوية مظلمة فأرعبهم الظلام وتقوقعوا حول أنفسهم وناموا؟! إن لم نكن نحن المسؤولين عن قتل أطفالنا فمن قتلهم وهم في داخلنا؟ من أنساهم هايدي وفلونه.. ولعبة جيران.. والدموع التي نسكبها على أمي عندما تغادرنا قبل أن تحكي لنا الحكاية.. أين هم «أطفالنا» وأين خبأناهم.. أين ذلك الصفاء الذي يغمر دنيانا فلا نعود نذكر ما حصل بيننا من معارك ليلة البارحة، فالصباح عندنا هو يوم جديد ننسى كل ما قبله ونبدأ من جديد.. نبتسم للدنيا حتى ونحن ننزع الأشواك من أقدامنا الحافية ونصدح بالغناء حتى ونحن نصارع آلام الحمى.. لماذا أصبحنا غرباء عن أهلنا أولاً وعن زماننا ثانياً وعن مجتمعنا ووطننا؟! ومن المسؤول عن تغريبنا وضياع ملامحنا.. ومن ساعدنا على السخط على تاريخ طول من النضارة والبناء؟!

كانت أمي تناديني وتقبلني وتمسح على رأسي إنها تعلم أن في داخلي قلباً متسعاً لها ولكل زائر.. مهما تراكمت الأخطاء.. تمسحها دمعة وتدفعها كلمة طيبة.. يبدو أنها سمعت كل كلماتي التي تفوهت بها في سيارة الإسعاف أو نصفها، المهم أنها طلبت مني أن لا أدعو على أخي لأنه الذخر والذخيرة؟! لقد كان هذا بالنسبة لك يا أمي أما أنا فأعتقد أن الإنسان الذي لم يتمكن حتى الآن من مقاومة غرائزه الأساسية فليس ذخراً ولا ذخيرة. إنني أؤمن أن كل إنسان سواء كان ذكراً أم أنثى إذا امتلك المعرفة وارتفع به

تفكيره عن أكبر قدر ممكن من الأخطاء وعن كل ما من شأنه أن يقلل من قيمة هذا «العقل» فهو في الواقع ذخيرة نفسه وقوتها وسلاحها لشق طريقه في الحياة وليس محتاجاً لأحد حتى ولو كان مقعداً لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لذلك يا أمي وأكثر أبارك لك ذخيرتك ولا أريد مشاركتك فيها لأنها في الواقع مجرد كومة من مخلفات الإنسانية لا تنفعني في شيء سوى أنها تقودني في بلد لا أملك فيه حق قيادة السيارة ولا حتى حق قيادة حمار؟!

كانت تلك المظاهرة الصامتة هي آخر ما تفوّه به عقلي الباطن عندما تحدثت أمي عن حياتنا في ما بعد سعيد أو بدون سعيد!! كانت كأنها ستعيش حالة من الغربة والشماتة والخوف طيلة غيابه وكأننا لم نخلق سوى لنعيش في جلباب الآخرين وتحت مظلة الرجل حتى ولو كان الرجل لا يملك من رجولته سوى أعضائه التناسلية؟! تتحدث وكأن الضياع هو طريق سفينتنا ولا محالة وأننا بدونه «ما نسوى شيء» والأغرب من هذا كله أن أخواتي كن يشاطرنها نفس الشعور سواء من رضا واعتقاد أو من باب «معاهم معاهم» «عليهم عليهم» يبكين ويحنين رؤوسهن وكأن هذا المخلوق هو المنوط بتوزيع الأكسجين على رئاتهن أو أنه هو الوحيد الذي يملك القدرة على الحركة والحياة؟! لم يعجبني ذلك التباكي المبطن على شخص كان

سيقتل أمه ومرتكب لكبيرة اللواط وشرب الخمر؟!لأنه رجل نغفر له أخطاءه حتى ولو كانت من الكبائر؟! أما أنا فاعذروني يا سادة قلتها بملء فمي «أحس أني أسعد إنسانة اليوم مو شماتة لا تفهموني غلط لكن لأن سعيد راح لمكان هو الأقدر على «إعادة تصنيعه» آسفة أقصد إعادته للحياة المستقيمة وبعدين إحنا مارح نقطعه بنزوره ونكلمه ونهتم في علاجه الين يرجع إنسان سليم أما التباكي على اللبن المسكوب فهو عمل الجبناء وأنا ماني جبانة».

الجميع ينظر إليَّ شزراً سوى ضميري المتفائل في البياض كأنه يصفق لي في قاعة فارغة سوى منه!!

وفي أثناء تلك الجلبة يُطلب من خالي الانصراف ريثما يتم إدخال سيدة إلى نفس الغرفة التي ترقد بها أمي يبدو أنها للتو قد خرجت من العمليات نغلق الستارة الخاصة بأمي ونرتدي أغطيتنا ونرقب من بين فتحات الستارة، لقد كانت عجوزاً كبيرة وبجانبها امرأة تبكي يبدو أنها ابنتها وتناديها وتقول «يمه تسمعيني» لقد كانت أمها أيضاً ترى ماذا جرى لهذه السيدة ولماذا لا تتحدث الممرضات ينقلنها على السرير وهي غائبة عن الوعي وبعد دقائق تشير إلى مكاننا وتطلب من إحدانا مساعدتها في تعديل وضعية رأس أمها الذي كان ملفوفاً برباط أبيض بدون أدنى تفكير تدفعني قدماي إليها وأشرع في مساعدتها وأحاول تهدئتها بما حفظته من كلمات المواساة.. لكن

المؤكد أنها تحب أمها أكثر من حبي لأمي.. التي لم تكن بالنسبة لي سوى رمز وصورة لا يوجد بداخلها إنسان.. وبعد أن أنهيت مساعدتي لها أزالت الخمار عن وجهها متوجهة إليَّ بالسلام وفي أثناء ذلك كشفت عن وجهي وسلمت عليها ودعوت لأمها بالشفاء.. لكنها فاجأتني حين قالت.. «هذي مي أمي هذي خالتي البارح صار لها ولزوجها حادث على طريق الجنوب وتنخرط في البكاء» أضمها إلى صدري وأحاول التسرية عنها وأمسح دموعها وتواصل..

ـ خالي سلم وهي جاها نزيف في الرأس وكسور وقبل شوي كانت في العمليات ادعي لها تعيش».

ـ الحمد لله على كل حال.. الصبر الصبر الله لا تبكي.. وجلست إلى جانبها وشرعت تتحدث عن خالتها..

ـ إحنا من الرياض وخالتي هي وخالي كانوا جايين يحضرون مناسبة في أبها وجاهم القدر.. واليوم جيت أنا وأمي وأخوي عشان نجلس معاها أمي تحت في الطوارئ وأخوي معاها ارتفع عندها السكر.. وأنا طلعت عند خالتي لحد ما يجون..

وبعد دقائق كان أمامي مباشرةً... أحسست أني أعرفه من سنين كانت لحظة أو ثانية لكنها بالنسبة لي كأنها العمر.. لقد دخل أخو «مرام ـ كما أخبرتني باسمها فيما بعد ـ وأنا مازلت أجلس بجانبها فوقفت بأسرع ما يكون

الوقوف ثم ارتدّت أعقابي إلى الخلف وعيناي مازالت مسمرة في وجهه من هول المفاجأة وارتديت نقابي وتوجهت إلى حيث ترقد أمي بعد أن شهقت بكل قوة ما أربكه وجعله يتراجع إلى خارج الغرفة..

وعندما وصلت إلى أخواتي وسألتني أخبرتهن أن تلك الشهقة كانت سبب اصطدام قدمي بحافة الكرسي..

ـ سحر.. وش فيه ليه جيتي؟ قالت إيمان..

ـ ابد بس دخل عندهم رجال وخلاص أنا ساعدتها وجلست معها شوية.

هنا أسمعه يتحمحم ويرفع صوته..

ـ آسف.. آسف.. احممم.. آسفين.. آسف..

ـ ضحكت عندها ولم أستطع كتمان ضحكتي لأن الواضح أنه لم يعد يعرف ماذا يقول وأنه كان يرفع صوته لأسمعه.. جلس لنصف ساعة كان طيلتها يرفع صوته ويتحدث مع أخته وكأنه يريدني أن أسمع كل كلمة يريد أن يقولها..

ـ سألتِ الجيران لا يكونون محتاجين شيء؟! الناس للناس.

ـ أخته.. هذي أمهم اليوم مسوية عملية برأسها..

ـ سلامات إن شاء الله يا خالة ما تشوفون شر..

أحممم.. اضحك مرة أخرى ويبدو كمهرج يريد أن لا تفوت جمهوره أي حركة من حركاته.. لكن وللحظات فكرت في عينيه لقد كان في منتهى الوسامة عينان جريئتان وسكسوكة رائعة ومُتقنة ووجه طويل.. وأسمر.. وجسد ممشوق رشاقةً وطولاً ورائحة عطرة تسبقه بأميال ونبرة صوته الممتلئة بداوةً وألق.. «منتهى الرجولة»؟!

ـ أمل تلكزني بيدها وتسألني «في ايش سرحانة»؟..

ـ ولا شيء أنا بس أفكر مين بيجلس مع أمي ومين بيرجع البيت يعني مو معقولة أغيب أسبوع كامل لازم تقسم الأيام بينا كل وحدة يوم عشان محاضراتي ما بقي على الاختبارات شيء وتعرفين أهم المحاضرات آخرها.. وأنا في آخر سنة وما أبقى أتخرج بأقل من الأولى على الدفعة أنا دائماً الأولى وآخر سنة أتراجع..؟!

أمل: لا.. إن شاء الله رح نقسم الأيام لكن اليوم بالذات ابقي أنت لأن خالي وإحنا جايين جالس يتحلف فيك ويقول إنك حطيتي رأسه بالتراب.

ـ هه أنا اللي حطيت رأسه بالتراب ولا سعيد.. الحين هذا ليه يشتغل بالهيئة يوم ولد أخته بهذا الحال لو كان عنده أمر بالمعروف كان الأقربون أولى بمعروفه.. ما هو يعرف إن سعيد مدمن وساكت عشان الناس والفضيحة وعشان وظيفته ما تزعل منه.. أنا نفسي أفهم من المسؤول عن

توظيف الناس بالهيئة وأي شهادات اللي توظفهم «شوية لحية على ثوب قصير» وكم كلمة من «جزاك الله خير» و«أحسن الله إليك» وخلاص انتهى الموضوع..

ـ خلاص أنت تجلسين تدققين في كل شيء اجلسي الليلة ولك عليَّ بكرة أجي بدلك وإلا سناء..

إنه أذان المغرب ونهاية الزيارة يهمّ خالي بالرحيل ومعه أخواتي موجهاً حديثه إلى أمي..

ـ معافاة إن شاء الله يا أم سعيد بكرة إذا فضيت جبت الأهل وإذا ما فضيت الله معكم..

أمي تهز رأسها وتدعو له.. وتبكي..

متسمرةً في مكاني وعيناي إلى الأرض لا يعكر على أمي صفوها المؤقت..

يلملم أكياساً في يده وينصرف.. وقلبي يكاد يعطي كل خطوة من خطواته نغمة هلع.. إنه يبتعد وقلبي يعود إليّ.. لقد كان يوماً متعباً كم احتاج إلى النوم.. اسأل أمي..

ـ يمه تحتاجين شيء..

ـ موية..

ـ اهرع إلى طاولة بجانب السرير وأتناول القارورة وأشرع في تقريبها لفمها.. وفي تلك الأثناء.. تفتح مرام الستارة وتسأل عن أمي..

ـ كيفها أمك؟

ـ الحمد لله اليوم أحسن بكثير قبل يومين ما كانت تتكلم.. وأنتِ كيفها خالتك..

ـ زي ما تشوفين ما تدري عن شيء.. وتقدم إلي والدتها.. «هذي أمي» اسلم عليها وأواسيها في أختها.

وبعدها تنصرف إذ يبدو أن مرام ستكون شريكة هذه الليلة في غرفة ممتلئة برائحة الألم.. والشعور بالحاجة الملحة للأمان. آه من تلك الليالي ومن تلك الذكريات التي تنهشني الآن وكأنني للتو رأيته وللتو خضّب الجراح!

لا أدري هل يساوي ذلك الألم وتلك الرائحة ثمن هذه الوحشة في سفوح هذه الجبال التي تشبه أصنامهم كثيراً.. رُغماً عنهم سأتسلّقُها..ورغماً عنهم سأمرِّغُ أُنوفَها بترابِ العارِ والفضيحة..كما يحلو لهم كل ذات هرَب!،كم هي موحيةُ هذه الأجواء بجبروت الواقع وصرَخات الرفض ونتوءات الجَور.. وحدها روحي هنا يا فلول الهاربين.. وحدها روحي ستخلُد لتُطاردُكم!!

الفصل الخامس

«سناء» المرأة التي لا تذكر من أنوثتها سوى تفاصيل جسمها التي تصرخ بأنوثة مكتومة.. ومهضومة بحساب كل ليلة لا تقلِّم فيها أظفارها ولا تعتني بنعومة قدميها!!.»

«هناء» قال عنها الكثيرون إنها هادئة وخجولة لكنها ترفض هذه الأوصاف فقط عندما تكون هناك لوحدها مع «عيال» الجيران فهي تلاعبهم تماماً كواحد منهم لا تختلف عنهم كثيراً سوى أنها تبدو أطول منهم تصرخ بملء فمها.. ولا تفارقها «العلكة» فهي علامتها دائماً.

كانت ليلة هادئة سوى من أنين أمي.. أتمدد على السرير وأغلق عينيّ حتى أوهم نفسي بأنني هناك في مكتبتي وبين قصائدي والشموع والبقية من لوحة معطوبة على جدار بلا ألوان.. لكنها أفضل مكانٍ في حياتي إنها بالنسبة لي أكثر نسيماً من شواطئ هاواي وأشد خضرة من جبال الهند وأكثر عبقاً من حقول البن في اليمن.. مكتبتي التي معظم أدراجها مكسورة ويعلوها الغبار كما يعلوني هي أكثر أناقة في نظري من مدخل قصر الاليزيه!! مكتبتي المملوءة بكل

ألوان البقع والأقلام والأوراق هي أكثر تشكلاً وروعة من تكعيبية بيكاسو.. مكتبتي عالم لا يضاهيه عالم.. وصديق لا يوازيه صديق.. وحبيب لا يخون.. وبينما أنا في خضم هذه الرومانسية الغزلية بمكتبتي المهترئة في بيتنا القديم قاطعتني «مرام» واستأذنتني في الجلوس بعد أن كانت تتحدث بالمحمول في الممر المحاذي للغرفة..

ـ على فكرة فيصل يسلم عليك..!!

ـ مين فيصل هذا؟! متعجبةً ومستنكرة..

ـ وش فيك شكلك فهمتي غلط والله سلام أخ لأخته..

ـ الله يسلم الجميع لكن أنا جنوبية وهنا عندنا السلام بين الجنسين غير المحارم من المحرمات.. الله يخليك أرخي صوتك لا تسمعك أمي..

ـ طيب خبريني عنك أكثر عشان فيصل حابب يعرف كل شيء عنك.

ـ يا سلام كذه من الباب للطاقة.. يعني وش أكون غير إنسانة ملتصقة بالأرض والحواجز والسدود حتى لو كان في داخلي وزيرة بترول ما هنا مجال.. يعني من الآخر أنا إنسانة عادية من مدينة عادية من عائلة عادية من كل شيء عادي..

ـ الله يا سحر ليه كل هذا التشاؤم؟

ـ لا.. من فضلك أنا أكثر الناس أحلام وأمل.. لكن

تقدرين تسمينها واقعية.. يعني ما نقدر نقفز على الواقع.. إذ حتى قصائدي استحي أطلعها لأحد.. لأن نزار قباني قدوتي في الشعر هو شخص كافر ومحرّض على الرذيلة عند خالي.. عفواً أقصد ولي أمري يعني لو ابغي أعرف لك نفسي لازم أعرفها من زاوية الواقع مو من الخيال لأنه نوع من الكذب.

ـ يعني أنتي شاعرة؟!

ـ شاعرة ورسامة و إن شاء الله هذي السنة رح أتخرج بكالوريوس تاريخ وعندي طموح أتقدم للدراسات العليا لأنني إن شاء الله رح أكون مطلوبة معيدة بنفس الكلية كل الدكتورات والعميدات اللي تعاقبوا على الكلية يعرفوني من كثر ما أشاغبهم بالأسئلة والاستفسارات ودائماً نسبتي ما تقل عن خمسة.. يعني المعدل OK الحمد لله.

ـ الله قد ايش بيستأنس فيصل لما يعرف عنك كل هذا..

ـ أي كل هذا.. الله يسامحك هذا الموجود فقط أصلاً أنا مهووسة بعلم الاجتماع لكن هذا القسم مو موجود بالمنطقة والانتقال لأجل العلم للبنت عندنا كمان من المحرمات واحسبي عندك كم رح انطق هذي الكلمة في مجلسنا.. أكيد رح تغلطي..

ـ ومع كذه قدرتي تبدعين في التاريخ وتتفوقي.. ما شاء الله عليك..

ـ المهم ما سألت عنك أنت متخرجة وإلا متزوجة وإلا؟!

ـ أنا متزوجة من سنتين بس لسى ما عندي أطفال خريجة جامعة الملك سعود تخصص ترجمة.. بس إلى الحين ما عندي شغل..

لكن مو مهم تعرفين عني المهم أعرفك على فيصل..

ـ من قال لك إنه مهم أنا حتى ما سألتك..

ـ لكن هو سأل وقالي أقولك عنه كل شيء..

ـ هذا واثق من نفسه؟! مبتسمة..

ـ أكيد مو هذا اللي ذابحني معاه.. كل ما أخطب له وحدة من البنات يجلس يحقق معي الين يوصل لنقطة تختلف مع تفكيره وبعدين يقول أنا ما أبغى عارضة أزياء أنا أبغى إنسانة متفقة وتكون روح لكل نجاحاتي لأني إنسان طموح جداً.. وبعدها يتفركش الموضوع.. تعبني معاه..

ـ وليه هذا كله يعني هو وش يكون لا مؤاخذة؟!

ـ خريج كلية الإعلام جامعة الملك سعود وراح لبريطانيا ثلاث سنوات وبعدها رجع واثق من نفسه أكثر من أول وحالياً يشتغل في التلفزيون السعودي بالتحديد في الإخبارية.. لكن لسى في طور التجربة الميدانية يعني لسى ما صار رسمي..

ـ ما شاء الله يعني اسمه إعلامي.. والإعلام رسالة..

وإلا وش رأيك؟!

ـ والله ما يهمني هو رسالة ولا وظيفة ولا خدمة اللي يهمني إن أشوفه مرتاح ومستقر مع زوجته.

ـ الله يوفقه ويوفق شباب المسلمين..

كانت هذه في الواقع إحدى دعوات أمي التي استعرتها في هذه اللحظة المشرئبة بالغرور ولم أستطع أن أتجاهل مرام بأكثر من هذا التعميم مع أني لا أكاد أؤمن أن هناك رجلاً سعودياً واحداً يرى في المرأة سوى ما تعودنا عليه إنها.. مجرد صورة يحترف كل يوم طريقة أكثر إغراءً لإبرازها أكثر صورية وتجرداً.. ولم يؤمن يوماً بأنها نصف الحياة.. إذ حتى روحها.. عندما تُقتل فهي نصف دية الرجل.. يا للغرابة أليست النفس كلها واحدة في دواخلهم لا يهم.. المهم الآن أنني أنهيت الكلام مع مرام بطريقة مهذبة نوعاً ما.. وقفزت من مكاني باتجاه أمي لأطمئن عليها..

في الوقت الذي خرجت فيه إلى الممر مرة أخرى لتكمل مكالماتها.. أغرق في بحر أفكاري من جديد إذ أن أكثر لحظات حياتي ودقائقها وساعاتها معمورة بالصمت المغرق في الأحلام.. التي لن تأتي لكنها على الأقل تداعب خصلات ضفائر قلبي وتحركها مع الريح كيفما

تشاء.. وتجعل من تلك الأوقات أفضل الأوقات لكائن أبت عليه الحياة أن يعيش حتى أبسطها واقعاً فاعتدت ربما على هذه الحالة حتى أصبحت أبتكر للحلم طقوسه الغرائبية التي ربما يظنها من يراني أجهز لها كأنني أجهز لرحلة بحرية بعيدة في منطقة توصف بالجبلية!!

أجهّز لحلمي مرسم الألوان وفرشاتي ودموعي.. أجهّز له الليل وارتدي من طموحي وشاحاً أزخرفه بكل ألوان الحزن واللوعة!! أرتب أوراقي على طاولتي القديمة حتى تأتي القصائد كعرائس للتو ابتدأت زفتها إلى فارس الأحلام.. أرتبها لها حتى لا تتعب أقدامها في المرور على جراحاتي.. أصف الأرق.. والسهر.. والحلم والألم.. وكل مشاعر الحرمان الطويل.. على الطريق الطويل حتى لا تختلط على قصائدي فلا تقدر على وصفها والمرور فوقها.. كل ليلة أرتِّب للحلم طائرته الهلامية وسط أوراقي.. والحبر.. وأتوق باستمرار إلى التقاط البسمة من كل بارقة أمل.. وانحناءة طير.. أسافر وأسافر.. إلى أبعد من حدود جسدي المرهق بانحصاره في حدوده الضيقة التي ضاقت بها روح تاقت كثيراً إلى صاحبتها وقرينتها لكن لا رجاء..

أتعبت أصواتي حنجرتي من كثرة النداء صمتاً.. وكثرة الموت حنيناً وكثرة الاحتراق برداً.. لكن لا رجاء.. دائماً لا رجاء.. أهيم بوجهي على صفحات عمري المبتدئ شباباً المتواطئ سرّاً على اختراق الحلم من أوسع أبوابه ولو حتى

سرقة واختلاس ـ إنه من أبسط الأمور لكنه غير مسموح سوى بصوت غير مسموع!!

وبينما أنا على تلك الحال هاجمني النعاس بقوة فقد كان يوماً طويلاً من الطول أن يستدر نعاس رأس هجرهُ النوم طويلاً واستبدله بالسهر الممتع متعة روحه المتلهفة إلى كل جمال وإبداع ولكن قبل أن أفكر بالنوم كان لا يوجد في الغرفة سوى سرير واحد ولابد من انتظار مرام حتى تتم مكالمتها لاستأذنها في النوم عليه أو الاشتراك فيه سوية أو افتراش الأرض والله المستعان..

دقائق ومرام تدخل بوجه بشوش افتقدته كثيراً بين وجوه تعتبر الابتسام مناسبة والاكفهرار طبيعة..!!

ـ هاه وين بتنامين؟! نقسم السرير ولا ما تحبي أحد ينام جنبك؟!

ـ بالعكس يا قمر هو أنا أطول.. والله حبيتك من أول نظرة..

ـ على فكرة هذه فلسفة عمرها عمر آدم وحواء.. يعني «الحب من أول نظرة» لكن قليل من الناس يؤمنون فيها لأن الحب أصبح هذه الأيام سلسلة من المقدمات المادية قبل الشاعرية يعني الحب صار سلعة زيه زي أي قيمة ثانية قابلة للاستعراض والمتاجرة وإلا SMS. .

ـ وأنت الصادقة الحب صار مجرد معلبات وكلام

جاهز وإلا بايش تفسرين إنسانة تعرفك من أيام وتأخذ رقم جوالك وبعد أيام ترسلك رسالة ما أرسلها قيس لليلي..

ـ زمن كل شيء فيه قابل للمزايدة.. زمن مزيف.. للأسف ما يتعب معاه إلا القلوب الحقيقية..

وهنا أنزع عني غطاء رأسي وعباءتي لأنام.. لكن نظرات مرام إليَّ كانت غريبة فتساءلت هل تعني أن أنام بعباءتي؟!

ـ وش فيك؟!

ـ ما شاء الله على جمال شعرك وطوله..

ـ خوفتيني افتكرتك مستنكرة عليّ إني شلحت العباية..

عالعموم مرسيه على ذوقك..

لم تكن إلا دقائق حتى كانت مرام تغط في سبات عميق أما أنا فيبدو أن عقداً أبرم سراً بين عيني والليل دون علمي إذ لا أستطيع تفسير كل هذا النعاس وكل هذا الإصرار على السهر إنها الثالثة فجراً وأنا مازلت مستيقظة..

يغفو الزمن على أعتاب عيني لحظات يتراقص معها الدمع في ضبابية، استشف روعتها حين لا أميّز الأشياء من حولي فقط وميض من البياض المختلط بالألوان جميعها، وفي تلك اللحظة بالذات اختلس أقوى أمنياتي لأرسلها عبثاً إلى ذلك السراب كتوقيع على غياب الحلم واستفاقة الواقع بشيء من عوالم سينمائية، ليست إلى الخيال في شيء بقدر

ما تصنع داخلي هالة من الرهبة والكبرياء لتحطيمها والعودة مرة أخرى إلى ذاتِ الحلم! كانت تلك سيمفونية تعزفها «عيناي» مع الدمع اللذيذ حينما يصنع لحظة لا توازيها إلّا لحظة العناق بين عشيقين في غفلة من الزمن!!

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً من يوم الثلاثاء وأشعة الشمس تخترق المكان بقوة وتفاؤل لا تهزمها جيوش اليأس في قلوب النائمين، فهي كما هي منذ ملايين السنين تصِّر على المجيء في وقتها وتداعبنا عند الانصراف بأجمل لوحات الإبداع في سماء الخلاق العليم لكنها أبداً لا تتأخر ولا تتقاعس ولا تحابي النائمين.. بل تقول لهم بكل قوة.. استيقظ ها هي أشعتي تخترق دماغك المليء بالأوهام والكسل ولن نتوقف حتى تستيقظ!!

«مرام» تغطي جسدي بالملاءة وتقفل الستارة بعد أن تلمزني بابتسامة «صح النوم!». ترى لماذا تغلق الستارة؟! بعد قليل أسمع صوت فيصل وأحمد الله أنني لم أتجرأ على فتحها ومشاغبة مرام بأنني لم أنم إلا في الثالثة أعود لأغرق في النوم إذ لن أستطيع الاطمئنان على أمي وفيصل مازال بالغرفة..

ـ صباح الخير يا سحر؟! «قال فيصل»

ـ أوه إنه جريء جداً كيف يستطيع فعل ذلك وأمي تسمعه.. سألقنه درساً لا ينساه هذا المتحرش البذيء الـ...

وقبل أن أكمل اكتشفت أن أمي تغط في سبات عميق وأنه ربما لم يفعل ذلك لاستفزازي..

لم أرد عليه ولكنه أصرّ على الجلوس لوقت زاد عن الساعة ولا أدري لماذا أستطيب طول مكوثه وفي نفس الوقت أشعر بأنه انتهازي وأنه قد صاد مني لحظة ليست له وإنما أُصِرُّ أن تكون عليه.. من يظن نفسه هذا المراهق المتثاقف ليلقي عليَّ تحية الصباح وهو لا يعرفني!! كم أشعر برغبة في معاقبته وفي نفس الوقت تأسرني كلماته فيضيع إحساسي بالانتقام وسط إحساس غريب لا يمكنني الجزم بأنه حب.. لأنني كنت أعتقد في قرارة نفسي بأنه لن يكون إلا صورة ثالثة ورابعة من خالي وأخي سعيد فكل الرجال في نظري سواء إنهم مجرد شهوانيين وطغاة وقساة القلب،كنت أستحضر دائماً أنني لا أحبهم سوى جدي ذلك الهرم ربما للشيخوخة في وجهه والعور في عينه تأثير قوي على قلبي ولتلك الأسباب شعرت لأول مرة في حياتي أن أحداً من الجنس الآخر يمكن أن يحتل من قلبي مكانه حتى وإن كانت على تخوف فأحببته وسألت عنه وتحملت الكثير من قسوته حتى تمكنت من الدخول إلى قلبه، ولست أنسى اللحظة التي ضمني فيها إلى قلبه الحنون عندما ذهبت إليه باكية من سعيد الذي ضربني حتى نزف الدم من أنفي وأن السبب لم يكن سوى تأخري في مكالمة هاتفية لإحدى صديقاتي وكان يربّت على كتفي ويطلب مني أن لا أبكي

لأن ابنته قوية ولأن البكاء لا ينفعني، ولا أنسى عندما وعدني أن يحضر لي جوالاً لأتحدث مع صديقاتي كيفما أحب وأنه هو من سيتكفل بتسديد فاتورته..

كم أحببت جدي واعتبرت أن دخوله إلى عالمي هو أمانٌ لي ومشاعر أخرى تأبى التفسير! وعدته أن لا أبكي من سعيد بعد اليوم وأن أكون حذرة من كل الرجال..

كان فيصل ما يزال يتحدث ويتحدث ثم ختم حديثه بكلمات الوداع لأخته وخالته «وقال.. مع السلامة يا.. احممم» كنت أعلم أنني أنا الإحم!! لكن الذي لم أفهمه لماذا أنا صامتة من كل هذا الوقت وكأن على رأسي جيوشاً من الغربان فلا أنا التي أسكته ولا التي رضيت عن صمتها لأن السكوت عندهم علامة للرضا وأنا لم أكن راضية عن كل هذه الثقة في فيصل والجرأة أيضاً فهو يصرّ على اقتحامي وأنا قلعة متهالكة لا حول لها ولا قوة..

بعد مغادرته بلحظات مرام تفتح الستارة وتسلمني وردة حمراء وتخبرني أنها من فيصل، لفت نظري تلك الورقة في أسفلها مربوطة بشريط أحمر التقطت الورقة وتأكدت أنها أصبحت في يدي ثم رميت بالوردة بكل قوة لها وأخبرتها أنني لا أقبل الورد من شخص غير وردي أو أنه إلى الآن لم يصبح كذلك.

ـ والله فيصل زودها حبتين وثلاث مرام أنا آسفة خذي الوردة..

فتحت الورقة وقرأت بداخلها هذه الكلمات..

«فراشاتٌ تُمطرُ ألوانًا وربيعٌ لا ينتهي.. حين أشرقتِ آمنتُ بالحبّ!.. فيصل»

برغم روعة الكلمات إلا أنني شعرت للوهلة الأولى أنها متكلفة وأنه لا يُعقل أبداً أن يحب شخص ما شخصاً آخر في يوم وليلة بكل معناها الزمني لا أكثر..

وفي الجهة المقابلة في تلك الورقة سجل أرقامه وعنوان عمله لا أدري لماذا احتفظت بها ولم أدر إلا عندما لجأت إليه في يوم من الأيام وعندها أيقنت بقوة حدس المحبين وقوة إحساسهم بالصعوبات التي قد تعتري طريقهم إلى قلب الآخر.. وربما إلى جسده.. إذ كثيراً ما تواصل المحبون روحياً ومعنوياً حتى لو صمتوا طويلاً لكن القليل جداً من عشاق تاريخ البشرية من تواصلوا جسدياً.. ولو للحظات..!!

المهم أنني تجاهلت كل تلك الأرقام وألقيت بالورقة بكل إهمال في جيب حقيبتي وعدت إلى النوم..

لكن لا أدري لماذا يصرّ هذا الشاب على طرد جحافل النوم برغم هزاله وضعفه أمامهم إلا أنه انتصر في الأخير فنهضت وغسلت وجهي وتوجهت إلى أمي لأشاركها طعام الإفطار وأسري عنها قليلاً من شعورها بالألم لفراق سعيدها..

كانت الساعة الحادية عشرة ومرام لا تزال تتحدث من هاتفها المحمول وتغمز لي بعينها بين فينة وأخرى.. وبعد أن انتهت..

ـ مدري ليه فيصل صاير يحبني اليومين هذي تصدقي كل المكالمات المستلمة له..

ـ رزق الهبل عالمجانين..

ـ وش قصدك؟

ـ صدقيني أمزح لكن أعتقد أن القصد واضح هذي المكالمة عشان يسألك إذا أخذت الوردة وإلا لا صح؟

ـ صح.. يقول انه مارح يسافر اليوم أجل رحلته إلى أجلٍ غير مسمى؟!

ـ قولي له العمل أولى من مطاردة الوهم..آنا وين وفيصل وين عمرك شفتي سمكة تحب طير؟!!

السمكة غرقانة في البحر ولا تقدر تطلع منه لأنها لو طلعت بتموت والطير عايش في الجو أسمى أنواع الحرية ولو حاول يغوص في البحر عشانها رح يموت.. يعني المستحيل إنهم يلتقون..

ـ حرام عليك يا سحر لا تعقدين المسائل ترى فيصل إذا حط شيء برأسه لازم يكمله إلى آخره.. والحين يا الله تكفين أعطيني رقم جوالك عشان نبقى على تواصل..

ـ ماني حافظته؟!

ـ يا الله عاد سحر كل هذا ثقل الحين أنا اللي طالبتك الرقم مو فيصل..

ـ طيب توعديني ما يعرفه أبداً..

ـ والله ما أعطيه لكن أكيد رح يعرف إني أكلمك وبعدين فيصل واعي وعنده احترام لخصوصية غيره..

ـ خلاص رح أعطيك إياه لكن لا تتصلين ولا ترسلين الين أنا أروح البيت وأسجل رقمك وأعطيك نغمة بعدها اتصلي وأرسلي على كيفك..

ولا أدري لماذا شنفت سمعي كلمة «واعي» وكلمة «خصوصية» لأنني لأول مرة أسمعهما تندرجان في جملة مفيدة واحدة لأن الوعي ضد الخصوصية بمعناها السعودي، ولأن إيماني بعدم وجود رجل سعودي واحد يعتبر أن من الوعي احترام الأمور الشخصية لدى من تقع تحته من النساء سواء كانت زوجة أم أخت أَم أُم.. على العموم من اليوم أستطيع ولو وهماً أن أجمعهما في جملة واحدة دون أن أشعر بأنني إحدى مرضى «الشيزوفرينيا» لأنهما كاجتماع الشمس مع القمر في يوم لا لون له ولا طعم!!

أمي تناديني وكأني بها في عالم آخر غير العالم الذي كنت فيه وتسألني عن أخواتي ومن سيأتي منهن لتحلّ مكاني في الجلوس معها، كانت الساعة الثالثة عندما بدأت أرّتب

أغراضي للرحيل استعداداً للعودة إلى الدراسة فحتماً لن يأتي دوري لمرافقة أمي مع أربع أخوات أخريات بمعدل ثلاثة أيام لكل واحدة فحالة أمي تستقر والدكتور المشرف على حالتها طمأننا بأنها قد تغادر بعد أسبوع واحد فقط.. لكن من دون أن تجهد نفسها بأي عمل..

بعد نصف ساعة كان خالي يرعد ويزيد في عادة يومية إذ لم يمارسها أشعر أنه سيختنق وكانت خالتي معه ونادية وسناء التي ربما لن يؤذيها غيابها عن المدرسة ليوم واحد فقط ؛ إذا أنها غالباً ما تكون الأخيرة على فصلها بتفوق؟!

في الطريق إلى المنزل كان خالي صامتاً نافخاً صدره إلى الأمام كديك للتو خرج من إحدى مصارعات الديوك التي تقام كمهرجانات سنوية في عدد من البلدان، لكن ريشه كان مخفياً تحت الثوب وبذلك يكون شكله أكثر قبولاً ، لكن هذا الشكل لذلك المخلوق ينبئ أنه في حالة استعداد تام للدخول في معركة غير متكافئة وأن موعدها سيكون بعد دقائق، لا أدري هل هو حدس الأنثى للمرة المليون في حياتي،أم أنه مجرد الخوف! عندما بدأ جلدي يجهز نفسه ذاتياً لاستنفار كل قوى المناعة والتحمل والتصبر والمصابرة..!!

بعد أن أوصل خالتي ونادية إلى البيت نادتني خالتي للدخول معهم لكنه أطلق صرخة علمت معها أنه عليَّ

الذهاب إلى البيت، وبعد دخولنا إلى المنزل كانت أمل هي التي فتحت الباب وكانت عيناها تنبئ أنني أنا الطرف الآخر من تلك المعركة المهم ليس الضرب جديداً عليك يا جلدي العزيز لكن الجديد هذه المرة أنه سيكون بسبب شجاعتك في قول الحقيقة وإنكار الظلم لذلك سيزول تأثيره سريعاً، كان خالي يواصل اللكمات على وجهي ويسمعني كل أنواع القذارة التي من الممكن أن تمرّ على لسان اللغة!!وأنه عقاباً لي سيفصلني من الكلية وأنه لا أمل لي بعد اليوم في الذهاب إليها بعد أن قرب موعد تخرجي منها.

لا أدري لماذا أنهرت وقتها وتمنيت أنني لم أنطق بكلمة لأن مستقبلي العلمي كان من أهم أولويات حياتي، وبعد هذه الكلمات تركني لأتفقد الخسائر، نهضت بكل تعب وإعياء إلى أقرب مرآة لأنظر حالة وجهي لقد كان وجهي محمراً جداً وأحد مخالبه قد علّم جرحاً في أذني اليمنى..

وبطني كذلك يؤلمني إثر تلقيه إحدى ركلاته.. دقيقة وأخواتي يقبلن كالنعاج التي انتظرت خروج الذئب لتتفقد صاحبتها!! كان الصمت أجمل ما يمكن به التعبير في تلك اللحظات لكن..

ـ أمل: كنت عارفة إنه رح يضربك أحسن لو كان حطيتي لسانك في فمك وقلتي زي ما يقول «طاحت من الدرج» لكن هذي آخرة العناد طول عمرك شايفة إنك على حق!

ـ إيمان: ياما نصحتك الحين لو فصلك من الكلية راحت عليك مرتبة الشرف وأنت اللي المفروض تكونين معيدة وتراه رح يسويها..

لا أدري لماذا لا تستطيع إحداهن اختراع كلمات المواساة برغم ضآلتها كاختراع لغوي لا يرتبط بأي نوع من الذكاء بقدر ما يرتبط بحالة إنسانية ولحظة توافق غير قابلة لمزيد من التأويل والتثاقف والعقلنة..

ـ كل هذا ما يهمني، أهم شيء أني قلت الحق دائماً أصحاب الحقيقة يتعبون كثير الين يوصلون لازم ألقي في طريقي ألف عثرة لكن المهم كيف تكون لي وما تكون عليه كيف أخليها خبرة مو فشل، أنا رغم كل اللي قلتوه راضية عن نفسي تماماً وبكرة رح أروح الكلية ويسوي اللي يسويه هذا «الشيء»!!

تركوني لوحدي ألملم دموعي وشتاتي وغربتي وانصرفوا أما أنا فقد كنت أفكر فيما لو نفّذ خالي كلامه وأنه سيحرمني من إكمال السنة الأخيرة لي وهل سيأتي السواق غداً أم لا؟! كان لابد أن أتحدث إلى نادية لأخبرها بضرورة أن تنبه على السائق أن يأتي إلى منزلنا إذ ربما كلّمه خالي وطلب منه عدم المجيء..

ـ ألو السلام عليكم خالتي أعطيني نادية.

ـ سحر كيف حالك عسى خالك ما ضربك بس؟!

ـ كيف يقدر يعيش من دون ما يضربني يا خالة الحمد لله بس جرح في أذني..

ـ على قلبي حبيبتي بس أنت الله يهديكِ دايماً راكبة راسك والله مدري وش يسوي فيكنه هذا التعليم حقكنه..!!

ـ ما يسوي شيء يا خالة بس يشيل عن رؤوسنا عمامة الجهل وعن عيوننا نظارة التشاؤم.. بس أعطيني نادية الله يعافيكِ بسرعة..

ـ نادية مساء الخير اسمعي بكرة إذا أخذك العم «مشني» قولي له رح على بيت أبو سعيد الله يخليك أكيد خالي بيكلمه في صلاة العشاء ويقول لا يجي يأخذني خلاص..

ـ خلاص إن شاء الله..

كانت تلك ليلة طويلة أخرى من ليالي الغربة الطويلة.. أجلس القرفصاء في غرفة أمي ولا أدري لماذا تنساب الدموع من عيني بلا حساب.. ألأن حلمي قد يتلاشى في أي لحظة يغضب فيها رجل؟! أم لأن الحب يهاجمني بقوة وشراسة من شخص لا أعرف عنه شيئاً سوى أنني أكره كل رجال الأرض؟! أم لأن الألم يحتاج مني إلى غذاء كي يغدو باسقاً كل صباح فلا تبخل عليه عيناي أبداً؟!.. أتوجه إلى مكتبتي وأقلامي وأشرع في الكتابة.. لا أدري لماذا صورة فيصل لم تفارقني تلك الليلة أردت أن أخبرها

«الصورة» بأنني حزينة.. ووحيدة ومغتربة ومتعبة جداً جداً.. لكنها لم تسمعني.. أمسكت بريشتي وشرعت أرسمه كما رأيته.. عيناه وابتسامته الساحرة وطيور الحب تأخذني معه إلى بعيد.. هل حقاً ما قاله في تلك الورقة.. وهل حقاً ما أشعر به؟!.. هل يفكر مثلي.. هل يبحث عن الحرية؟! أم إنه قد نالها منذ ولادته ذكراً؟! هل يحب صوت محمد عبده إلى درجة البكاء مثلي؟! أين يحب أن يحزن ويتألم أفي حضن أمه أم في حضن ذاته؟! كم من العمر والوقت بينه وبين أحلامه؟! هل سيضربني يوماً كما يفعل كل رجال عائلتي؟! أسئلة حمقى وكثيرة تتوارد إلى ذهني وأنا أرسم تفاصيل وجهه كما لو أنه يجلس أمامي على الكرسي.. لم أكن أعلم أبداً أن في داخلي أنثى عاشقة إلى هذه الدرجة..؟! أزفر بكل قوتي وأشعر أن كل هواء الغرفة لم يعد يكفي للمارد الذي ينمو بين أضلاعي.. لا أدري لماذا أشعر بأن النوم سيقربني من انتهاء حلم التخرج، شيء ما في لا وعيي يحذرني من النوم، سهرت تلك الليلة وأنا أرسم «فيصل» وأخطط لاقتحام سيارة العم «مشني» حتى لا تفوتني وينفذ خالي تهديده لي.

كانت الساعة الخامسة من صباح يوم الأربعاء وحالة من الترقب والانتشاء في داخلي «أوقظ أخواتي وارتدي ملابسي وأنتظر بتوجس.. لكن يا للسعادة.. إنه صوت منبه سيارة العم مشني لا أدري لماذا نسيت أمر عباءتي من فرط

سعادتي أردت أن أخرج لأقبله في رأسه لقد أتى إذاً.. الحمد لله لقد أخبرته نادية. خرجت مسرعة وبعد أن دخلت كانت المفاجأة.. نادية لم تأتي لذلك فمجيئه لأخذي كان محض الصدفة.. آه إذاً مازال عليّ أن انتظر حتى يوم السبت.. لأعلم مصيري النهائي.. أدخل إلى الكلية بعد الأيمان المغلظة بأنني سأحضر النقود المطلوبة مني في مخالفتي لنظام الزي يوم السبت على أقل تقدير.. بؤساء هؤلاء البشر الذين ارتبطت حياتهم بالمال؟! مطرقة إلى الأرض أدلف إلى داخل قاعتي وصديقاتي كخلية النحل التي لا تصمت ليس عطاءً.. معاذ الله!! ولكن ثرثرة وقلة بركة!!

- تهاني: الحمد لله على السلامة وحشتيني موت..ولا أدري لماذا يقرنون الحب والشوق بالموت.. ربما لأنهم لم يحبوا يوماً!!

وأمل تعانقني بحفاوة وكل الطالبات المتواجدات في القاعة يتحلقن حولي ويتحمدن على سلامتي في الواقع ليس الكذب كثيراً في حياتي لكن هذا الكرم الحاتمي والحفاوة شجعتني على الكذب فليس من السهل خسارة كل هذا الحب بصدق الحال وخطايا سعيد، لذلك أخبرتهم بأنني كنت «تعبانه شوية» والحمد لله لم يسألني أحد عن نوع التعب وإلا لكلفوني عناء كذبة أخرى! واحتفالاً بعودتي بالسلامة قررت سميرة أن تقيم «بارتي» من أجلي تفعل فيها

كل ما تشاء انتقاماً لهروبي من موعدها الأخير؟!

ـ سميرة: يا بنات كلكم معزومين على حفلة كبيرة جداً في قسم الإنجليزي على شرف الأمورة «سحر» بعد المحاضرة الأولى مباشرة وما فيه عذر للي يغيب الساعة تسعة ونصف بالضبط OK.

كان هذا هو الأسبوع الأخير قبل الامتحانات النهائية لذلك لا يوجد كم من المحاضرات فقط شرح لطريقة الأسئلة وتحديد للمنهج إلى غير ذلك من الإجراءات الروتينية لذلك لم أحضر مع صديقاتي أمل وتهاني المحاضرة استعداداً للحفلة وقمنا ببعض اللمسات التجميلية ووضع الماكياج وتصفيف الشعر في إحدى القاعات الفارغة! استغليت انهماك «تهاني» في عمل الماكياج «لأمل» لعمل مهمة استطلاعية لطالما تحرقت شوقاً إلى عملها بمفردي لكن الوقت دائماً لا يكون في صالحي إذ أنني كنت طالبة متفوقة وغيابي عن أي محاضرة محسوب من جميع أعضاء هيئة التدريس لأن غلطة الشاطر بعشرة كما يقولون لذلك اعتذرت بأنني سأذهب لشراء ملزمة من قسم التصوير وتسللت إلى ذلك العالم الخاص والغريب والسياسي؟!

كنت في بداية الفصل الدراسي الثاني قد لمحت تجمعاً غريباً لإحدى جماعات النشاط الثقافي والديني في الكلية بشكل غريب في أسفل درج إحدى الأقسام وعندما

دخلت إلى تحته وسلمت على من هناك نظر إليَّ الجميع بتوجس وطلبوا مني الانصراف بسرعة وعدم الدخول إلى هنا مرة أخرى.. لا أدري لماذا تحرّك داخلي شعور ورغبة قوية بضرورة معرفة ما يدور في تلك الكواليس المظلمة.. بدأت أراقبهم عن بعد دون أن يلاحظوا وسألت إحدى الفتيات عنهم فأخبرتني أنهم جماعة «النساء المؤمنات» عجباً هل نحن غير مؤمنات في نظرهن.. وعندما تقصّيت أكثر وجدتهن في أحد الأيام قد علقن على رؤوسهن أشرطة خضراء كتب عليها باللون الأبيض «القاعدة في قلوبنا» منذ ذلك اليوم عرفت الطريق التي بإمكاني الدخول منها ومعرفتهم عن قرب بل وأن أصبح كأنني واحدة منهن لمعرفة كيف يفكرون وماذا يريدون ولماذا طردوني بكل ذلك الخوف في ذلك اليوم.. في الحقيقة لقد كان مجهودهن واضحاً وملموساً في كل أركان الكلية بل لقد شاهدت صورة أسامة بن لادن مطرزة وبجانبها أبيات شعرية في أحد أهم أركان الإعلانات في قسم اللغة العربية؟! وفي جميع النشاطات التربوية والثقافية والدينية بل وحتى الترفيهية لابد أن يكن هن المسؤولات عن كل شيء والمخططات لكل الأنشطة؟! وأكثرهن مشهورات بكناهن في كل أرجاء الكلية فمن أم مجاهد إلى أم الجراح إلى أم الشهداء إلى أم أبو جعفر الطيار إلى غيرهن.. بل إن تكريمهن على أعمالهن ونشاطهن دائماً ما يأتي من عمادة الكلية نفسها في الواقع

لقد كن يحظين بحب الجميع، وأتوقع لو أن ثمة انتخابات لرؤساء المناشط الثقافية فسيحصلن على الأغلبية الساحقة بسهولة، فالجميع يصفهن بالملتزمات والداعيات، إلى هنا لم يكن عندي أدنى شك إلى أن رأيت «الكهف» عفواً المكان الذي تحلقن فيه في ذلك اليوم والريبة التي انتابتهن إلى أن عقدت العزم على المغامرة.. لاكتشاف ما وراء هذا الغموض فإذا كان ما لديكن في ذلك المكان من الدعوة فعلامَ الخوف..؟!

ارتديت عمامة الظواهري وشمّرت عن ساعد الجد لكل كلمات التملق والتبعية والإمعة وذهبت إلى قائدة الركب، كان ذلك منذ بداية الفصل الدراسي الثاني بعد تلك الحادثة بأسبوعين فقط.. ولا أنسى ذلك اليوم الذي قوبلت فيه بكل حفاوة وتكريم لأنني إحدى الطالبات صاحبات الشعبية ليس لشيء سوى لمعرفتي بكل أعضاء هيئة التدريس وكذلك اهتمام الجميع بي في قاعتي بشكل خاص «الجمالي»!

ـ أم الجراح كيف الحال..

ـ الحمد لله شكلي أعرفك أنتي.. أنتي.. من رابع تاريخ صح؟!

ـ صح ما شاء الله عليكِ اسمي سحر.. وأحب أتعرف عليك عشان التزامك ودينك أنا عندي مشكلة وأتوقع عندك رح ألقى الحل..

ـ تفضلي وش عندك؟!

ـ لا الأفضل نكون لوحدنا عشان أتكلم براحتي..

صنعت لها ديباجة من الضياع والإحساس بالذنب من المعاصي والرغبة في التطهر ورمي الدنيا وكل ما فيها بأنواع الحجارة فقط أريد أن أكون مثلها داعية و.. و.. ولا أدري.. فقد أثارتني ردة فعلها إذ لم تتقبل أن تكون إنسانة متفوقة مثلي غارقة في حبائل الشباب والغواية كما أوهمتها لا أدري هل ستشك بي أم ستعطيني الأمان؟!

نصحتني وأعطتني مجموعة كتب بعدها بقيت أتابعها وجاء الحديث عن الجهاد وأفغانستان والعراق عندها رجوتها أن تضمني إلى مجموعتها لأنني باختصار شديد أريد أن أكون بجانبها في كل شيء، بعدها بيومين أعطتني موعداً في «الكهف» مع مجموعة أخرى من المستجدات أمثالي، كانت الخطة ناجحة إلى هذا الحد لكنني إلا الآن لم أعرف شيئاً بعد.. الاثنين صباحاً كان الموعد في السابعة والنصف بعد أن اعتذرت لي ولكل المستجدات من محاضراتنا فقد كان لها صوت لا يعلوه صوت كيف وهي «أم الجراح»؟! الآن نحن عشر مستجدات في جماعة النساء المؤمنات ماذا نفعل؟ وكيف نقسم اليمين؟ وهل هناك درجات حتى نصل إلى مرحلة الأعضاء؟!

في الواقع لقد كان كل شيء سهلاً عليّ إذ هيئت

نفسي منذ البداية على قبول كل الشروط للوصول إلى السر وحل اللغز.. لذلك كانت كل إجراءات القبول في الجماعة غير مؤذية بالنسبة لي ما عدا قسم اليمين أن لا أفشي سراً وأن تكون روحي ملك قائد الجماعة لا تذهب لسواه وهو الذي يقرر أي باب من الجنة سأدخل منه؟!! مازلت أذكر أنني لم أفعل لا زلت أذكر مقاومتي للضحك البائس وأنا أتوجه لوداع جماعتي على أمل اللقاء وأي لقاء؟!

وهاهو الظمأ يُحاصرُني الآن فأتعجب كيف توهمت الرواء يوماً.. بل كيف يؤجرون عقولهم لغيرهم!..ويسلمون أرواحهم الباهتة لأدمغة انقطعت عن الواقع وهربت عن مواجهته إلى جبالٍ لا تختلفُ عن جبالي هذه سوى أن هذه الجبال صنعت الحياة وتلك تفننّت في صناعة الموت!! أرغمتنا على لعنِ الحياة كل صباح واحتضان البؤسِ ونحنُ نستقبل الأعياد!!

حتّى القمر أبى هذه الليلة أن يُساعدني على اقتفاء طريقِ أبي.. لكنني سأعود..حتماً سأعود،انتظرني أيها الأمل يوماً ما سنصلي من أجل الحقيقة وسنلعن الظلام.

الفصل السادس

««أمل» فتاة صامتة كثيراً ومحافظة الى درجة تشعر معها أن الجميع لا ينظرون الا اليها غريبة.. تتكلم عندما تكون هناك سيرة «للموت» ربما لأنه احدى أمنياتها «من يدري»!.

هناك في أعماق المجهول وتحت درج أحد الأقسام وجدت البقية الباقية من الفئة المنصورة وأصحاب الحقيقة المطلقة والسلفية السليمة كلّ ذلك لم يكن سوى وهمهن.. أما أنا فقد أفادتني هذه المغامرة والتجربة كثيراً في فهم طريقة تفكيرهن وكيف يتمكنَّ بأسرع الطرق من التأثير فيمن تحتهم إلى الدرجة التي يشعر معها الشخص برخص روحه في مقابل الرسالة العظيمة التي يخدمها!.

فقد عرفت كيف تمكنت أم الجراح التي هي الأخت الشقيقة لأحد الإرهابيين الذين قُتلوا على يد قوات الأمن قبل إحدى العمليات الفاشلة التي لو تمّ لها ما أرادت لكانت نسفت نصف المنطقة الغربية.

وكيف أنها مازالت تفخر بأخيها وتسميه شهيداً وهو الذي كان يخطط للتفجير في مكة!! وكيف كانت تحكي لنا

علامات النور والنهاية الحميدة التي بدت على أخيها بعد مقتله والجميع كان يكبِّر مع كل علامة! مع أنها لم تشاهده ولا يحزنون.

والرؤيا التي رأتها بعد موته وهو أن تواصل عمله وتجاهد بدلاً منه وتنشر الحقيقة!! كانت من وقت للآخر تحضر بعض أشرطة الفيديو وتوزعها على المجموعة، كانت أشرطة تحوي صوراً لشهداء قُتلوا في أفغانستان أو الشيشان مرفقة ببضع الآيات والأناشيد والكرامات.. وتطلب من كل طالبة أن تراها هي وكل أهلها وخصوصاً أخوتها الشباب ليعرفوا طريق الحقيقة ويحرّروا الدول المسلمة من حكم قياداتٍ كافرة إلى غير ذلك من الخرافات التي للأسف كل من كان في المجلس يقتنع بها ويتحمس إلى الدرجة التي تتمنى فيها أن تتحول إلى رجل لأن الحياة في كل هذا الكفر والفسوق وموالاة اليهود والنصارى لم تعد تطاق إنهم يتحكمون في اقتصادنا وفي نسائنا وينصبون لنا الفخاخ؟!

كنت لحسنِ الحظ لا أستطيع الوصول إلى قلب أم الجراح كالبقية لأنه ليس لديَّ مجاهدون ذكور في بيتي إذ أن أخي الوحيد متعاطٍ للمخدرات ولذلكم لن أصل إلى مرحلة الأعضاء ومعرفة الأسرار والحالة هذه ولذلك أقنعتها بأنني سأكون أنا الرجل!! الذي لم أرزق به كالبقية وأنني

على استعداد تام للقيام بأي عملية انتحارية يحتاج فيها إلى نساء، ومع مرور الأيام اقتنعت بذلك وأصبحت تقرّبني إليها أكثر، كان كل ذلك من أجل أن أعرف هل تعمل لحساب أحدٍ معين؟! أم لحساب جماعة داخلية أو خارجية، إذ لم أقتنع ولو لحظة واحدة أنها تفعل كل ذلك من أجل «رؤيا» إن صدقت أو حتى من أجل الانتقام لأخيها الذي قُتل.. ولكن للأسف الشديد فرغم كل محاولاتي لم أتمكن من الوصول إلى هذا الحل.. اذكر أنها كانت تتبنى أفكاراً من الصعب أن تكون ملمة بها من دون معرفة أشخاص على اتصال بدول خارجية، كنت أسالها باستمرار متى سيكون لي تأثير في «جماعة النساء المؤمنات» وكانت تسوّف وتؤخر كل المواعيد وكأنها كانت تريد أن تثق بي أكثر.. أعطتني في إحدى الأيام «سي دي» وزعته على جميع الأعضاء وأوراقاً طبعتها من الإنترنت تحوي فتاوى من شيخ يُقال له «النجدي» فسّر فيها رؤى وأحلام مجموعات من الناس ووصف فيها كيف سيكون الحال خلال العشر سنوات القادمة كان يلقب أسامة بن لادن بالخليفة الراشد.. ويبشر بالفتوحات التي ستملأ الدنيا من شرقها إلى غربها على يد هذا القائد البطولي.. تحرقت شوقاً إلى أن وصلت إلى المنزل لأتمكن من تشغيل السي دي ومعرفة ماذا يحوي.. كان عبارة عن فيلم وثائقي بعنوان «حزب التحرير.. الدنمارك 2003» من مؤسسة الفرقان للإنتاج الفني.. كان

يحوي مقاطع من مظاهرات وتجمعات في عدد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية لإعادة الخلافة ودول الخلافة.. والخليفة المسلم.. ويتحدث عن انهيار الخلافة الإسلامية بإعلان دولة تركيا العلمانية على يد مصطفى كمال الدين أتاتورك عام 1924م.. ثم يتحدث عن تقلص الدولة الإسلامية العثمانية وابتداء التقسيم السياسي وإعلان دولة اليهود عام 1953م.. ثم يستعرض مجموعات من المتظاهرين في فلسطين ويهتف قائد الركب بهذه الكلمات «سيروا معي إلى الحكام فنلقيهم في مزابل التاريخ النتنة بايعوني إلى دولة الخلافة الموحدة»!! ويستعرض مجازر الروس ضد المسلمين عام 1992م.. ثم تأتي هذه الآية قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

ثم يستعرض مجموعة من المقاتلين يتدربون في أحد الجبال ووضع لها خلفيات من الأناشيد الحماسية منها «لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحما» وأخرى «الآن آن لها تعود.. وتهز أركان الوجود.. سيخطها عزم الجنود علماً ترفرف فيه!!» إلى غير ذلك من الحماسيات التي تؤثر في الشباب اليافع الذي يشعر أصلاً بغياب الهدف والضياع والفقر والبطالة.. وعندها لن تكون هناك أروع من هذا الشريط لتقديمه وإيصاله بأسرع الطرق إلى الجنة!! بعد أن

أشرعته حياته الفارغة.. كما يقولون.. وهنا بالتحديد كانت تربتها خصبة إذ يميل أغلب المجتمع إلى التشدد والانغلاق ويشجع الآباء أبناءهم على الشهادة!! إلى جانب ضعف الوعي والأمية الثقافية.. لذلك كانت مهمة أم الجراح سهلة إلى حد كبير..

كنت أحسب خطواتي وأتنفس بعمق لأنني.. بصدد إلقاء مفاجأة من العيار الثقيل كان هذا اليوم هو يوم الحسم، يوم انتظرته طيلة ثلاثة أشهر كانت هي فترة «قاعديتي المقنعة!!» يوم أسميته في مذكراتي الخاصة «بيوم الحقيقة» استجمعت كل قواي ودخلت إلى كهفنا المتخلف.. وألقيت التحية على الجميع.. سألوني عن سبب الغياب الطويل..

- الحمد لله على السلامة وين الغيبات..

- عشان أجيب الغنايم «يا أغبياء».. «كنت أقصدها بمعنى الكلمة»

- أم الجراح.. وش هي غنايمك يا سحر..؟ خوفتينا عليك عساك جمعتي لنا التبرعات اللي وصيتك عليها..

- لا.. والله غنايمي أروع بكثير وبعدين أنا ما اجمع تبرعات لهدف مشبوه؟

- مشبوه وش قصدك إن شاء الله. إحنا نجمع التبرعات من أجل الجهاد في سبيل الله.. في أسمى من الجهاد..

لكن مفاجأتي أحلى ما فيها إنك أنتِ اللي رح تسلميني جائزتها بنفسك يوم حفل التخريج بعد يومين.. يعني يوم السبت.. أنا قريت اسمك إنك راح تقدمين الحفل.. ورح تقولين اسمي بأعلى صوت غصباً عنك يا متخلفة..

ـ يعني ما فهمت وضحي أكثر..

ـ أكيد عندك خبر أنت وفرقة الخوارج اللي معك عن اللوحة اللي فازت في مسابقة الرسم وحازت على المركز الأول..

ـ قصدك اللوحة اللي مرسوم فيها دم وأشلاء وجثث ومكتوب عليها معاً ضد الإرهاب بكل أشكاله وشعاراته «لا دين للإرهاب»

ـ عليك نور.. مع إنه مو باين.. هذي اللوحة أنا اللي رسمتها جلست أرسمها طيلة ثلاثة شهور من يوم انضميت إلى جماعتك القاعدية الفاشلة الأفّاقة، رسمت فيها القبح اللي تصنعونه وتلبسونه لباس الدين والمبادئ والحروب اللي تدخلوننا فيها من أجل عصبيات متخلفة وأوهام تراثية.. ووقعتها باسمي المستعار.. عشان كذه ما عرفتي إنه أنا.. وش رأيك في المفاجأة الحلوة أكيد والأحلى إنك رح تسلميني الجائزة بعد ما تنطقين اسمي في المايك بأعلى صوت.. يا خفاشة!!..

رميتُ بوجهها هي وجماعتها صورة من إحدى الصحف للطفلة «وجدان» التي قُتلت على يد الإرهابيين وكُتب تحتها «ما ذنب الطفولة؟!» وانصرفت.. وأنا أشعر بأنني فارس للتو خرج من معركة منتصراً.. وجموع من المهنئين في استقباله.. أشعر أن حملاً ثقيلاً قد انزاح من على كتفي.

كنت ولله الحمد لا أحتاج إلى أي مكياج أو تجميل فأنا جميلة بلا رتوش لكن «تهاني» أصرّت على وضع الماكياج لي.. لأنني لابد أن أغيّر، واتهمتني بالرتابة والروتين، وفي داخلي كنت على قناعة أن مكان العلم لا يحتاج إلى أي نوع من الزينة ماعدا الهندام النظيف والشكل الحسن لأنه مكان للتحصيل والمعرفة، أما الماكياج والأزياء فلها زمانها ومكانها، ومع ذلك سلّمت وجهي لها لأنه يوم خاص بالنسبة لي لوحدي.. فهو يوم الحقيقة يجب أن أفرح به بكل ما أستطيع. بعد ساعة كنا قد اجتمعنا في قاعة الحفلة التي جهزتها سميرة وصديقاتها وهناك أستريو ضخم لا أدري من أين جاء وطاولة عليها من كل أنواع الحلوى.. وحولها الكراسي.. إنها حفلة فعلاً.. سميرة تستقبل الحضور وترمقني بنظراتها المشؤومة..

ـ الله يا سحورة ما كنت أتوقع إنك بهذا الجمال..

ـ شكراً هذا لأن عيونك حلوة.. امم..

أتوجه بكل سرعة إلى إحدى الكراسي وأجلس عليه والارتباك واضح عليَّ في الحقيقة لم أر في حياتي فتاة أكثر جرأة ووقاحة من سميرة لقد كنت دائماً أشك في انتمائها الجنسي إذ كانت خليطاً لا يمكن تصنيفه بل حتى شعرها كانت تحلقه كالولد.. وتتعمد تخشين صوتها.. وتفاصيل جسدها لا تمتّ للأنوثة بصلة ولا تستخدم الماكياج.. وتتعمد لبس البنطال من تحت التنورة وتبرزه بوضوح وتمشي باسترجال واضح لذلك كنت أخافها وأتجنب الوقوف أمامها حتى صديقاتها كانوا يسمونها «سمير» وهي في غاية السعادة بهذا الاسم.. حضر الجميع وابتدأت السوالف الطويلة كنت قد اشتقت إلى الاجتماعات من وقت طويل فأنا بطبعي تأملية وشاعرة وأحب الجلوس لوحدي معظم أوقاتي.. ولا أميل إلى التجمعات إلا نادراً كان هذا اليوم هو أحدها.. لذلك اشتركت في الضحك والثرثرة..

ـ أمل.. وش رأيكم بهذي المناسبة السعيدة نسوي زي اللبنانيين اللي كل ما سووا حفلة إن شاء الله حتى حفلة مولود صغير سووا معاها مسابقة ملكة جمال.. حتى انبلشنا فيهم وفي بناتهم..

ـ منال.. فكرة حلوة.. وما هي حلوة.. تدرون ليه..

ـ الجميع.. لييه؟!

ـ لأن الكتاب واضح من عنوانه أجمل وحدة فينا «سحر»..

أتظاهر بعدم التصديق.. ومبالغة في التواضع..

ـ هذا رأيك يا منال والناس أذواق خلينا نكون ديمقراطيين ونعمل تصويت.. وش رأيكم..

ـ الجميع موافقين..

ـ يا الله كل وحدة تكتب اسم أجمل وحدة من جميع المواصفات مو بس جمال الوجه.. حتى لو كان اسمها هي شخصياً ونحطه في النص بعدين نفتح الأوراق ونعد الأصوات اللي لها أعلى أصوات هي اللي تفوز بملكة جمال الشلة..

* لم يكن مستغرباً أبداً لقد كانت الأصوات الأكثر من نصيبي واقترحوا أن تكون سميرة هي التي تلبس تاج الجمال الذي كان عبارة عن قطعة ورق صمّمت بشكل مستعجل على شكل مثلث لوضعها على ملكة الجمال المستعجلة.. لأن سميرة كانت هي التي ستفعل! ياللاسف.. والحين بعدما اخترنا العروسة نبي نتناقش حول مواصفات العريس المفضل يعني وش أهم شيء تتمنونه في أزواج المستقبل؟!

سميرة.. يكون يشبه «سحر»؟!

ـ لو سمحتِ يا سميرة كلمة زيادة وأترك لكم المكان.. يعني مو معقولة هذي الوقاحة..

ـ آسفين يا قمر ولا عاد أعيدها..

أمل.. تلطيفاً للجو.. أنا رح أقول أهم مواصفات فارس أحلامي..

أولاً يكون كشخة ورومانسي.. وشعره طويل! ثانياً يكون مو معقد يبقى «ما يغار»!! ثالثاً.. يكون يحب الحركات..!! يعني عالموضة.. أردّ عليها بكل حنق..

ـ أمل: أنت حبيبتي رايحة تصوري فيديو كليب من أبو خمس دقايق عن الكمال والجمال والشاعرية ولا تبغي تتزوجي يعني مشوار وحياة وكفاح ومسؤولية واستثمار..

ـ الجميع.. استثمار..؟!

ـ وش فيكم أعرف إنكم محدودات الثقافة لكن هذا ما يمنع إنكم تفهمون أن الزواج مثله مثل أي مشروع كبير ومهم في حياة الإنسان على قد رأسماله يكون إنتاجه وأرباحه وأقصد بهذا معنى الكلمة «مجازياً» يعني على قد ما تتوفر مقومات الزواج الصالح ووعي الزوجين بأهمية الرباط الوثيق اللي بينهم وخلفيتهم الأخلاقية والقيمية على قد أرباحهم اللي تظهر في الأولاد وتستمر وتتوارث إن شاء الله. هذا هو القصد باختصار عشان عقولكم ما تتعب من التفكير..

ـ تهاني: مع إني ما فهمت من كلامك شيء لكن أنا ما أبغى أتزوج غير واحد يشبه عباس إبراهيم صاحب ألوم «لفتة» وحتى يكون صوته حلو عشان يغني لي قبل ما أنام؟!

ـ الله المستعان الحين أنتِ باختصار تبغين مطرب.. مو زوج..

ـ لا زوج وفنان ما تجتمع يعني؟!

ـ لا تجتمع بس المهم وش هي أولوياتك.. يعني أنت تركّزين على الزوج القيمة وإلا الزوج الصورة..

ـ رنا: يووه يا سحر ما فهمناك بس اللي أعرفه إن كل السعوديين صورة وما فيه أحد قيمة..

ـ أجل ورا ما صرنا من دول العالم السابع بعد؟!

ـ سميرة.. سحورة لا تزعلي مني لكن أنت كل حياتك كذه جد إحنا بس نمزح وإلا لاجت إلى الزواج ما صدقت الوحدة أحد يطق بابها..

ـ بس أنا يحرق قلبي أن أغلب أمهات الجيل القادم تفكيرهم بكل هذي السذاجة..

ـ تهاني.. أحم احم بديتي تغلطين يا سوسو.. كل هذا غيره على السعوديين.. طيب عدي عندك يا ستي.. اتحدي فيه شاب سعودي يعرف الفرق بين ملابس النوم وملابس البيت عمركم شفتوا أحد عاقل ينام بملابسه الداخلية اللي إحنا في الشلة نسميها «بيجامة السعوديين» وأول ما يجي الصبح يلبس الثوب فوقها وهي كلها عرق وو.. احم.. على حسب.

أههه.. يعني بالمختصر ما عندهم ذوق ولا يعرفون كيف يتعاملون مع العصر إلا باللي يخدم أجسادهم بس.. وإلا السيارة ريحتها وما أدراك ما ريحتها حتى لو يعطرها بأفخم عطور فيرساتشي ما نفع، والواحد منهم خشته زي خشة الفرزدق وحاط رأسه بالسماء الليل والنهار انتقادات على زوجته مدري ما يطالع بالمرايه ويرتاح ويريح.. وإذا سألته قال أنا رجال ما يعيبني إلا جيبي.. وإلا واحد كرشته قدامه ثلاث أمتار وذابح زوجته الليل والنهار على رشاقتها ويا ليتك زي فلانة ويا ليتك زي علانة وإلا الواحد نظافته الشخصية زي نظافة مشرد في شوارع البرازيل يعني يتسبح كل سنة «وزوروني كل سنة مرة» وذابح زوجته على ريحة البصل بعد الطبخ.. نفسي لو ألقى فيهم إيجابية وحدة عشان أفكر مثلك..

ـ أنت أخذتي عينة وعممتي الحكم.. وهذا خطئك أنت مو خطأ الرجل السعودي «الرمز.

ـ رنا: أمحق.. الرمز.. أنا شاكة إنهم راشينك.. يالله اعترفي أنتي واقعة في الحب إلى شوشتك في واحد سعودي متعصب أكيد.. اعترفي..

ـ يا حليلك يا رنا هو أنا عندي وقت للحب.. لكن أنا أتكلم بمنطقية فيه مبدأ في البرمجة اللغوية يقول «الشخص ليس هو السلوك» يعني دائماً داخل الإنسان

إيجابيات يمكن ما وفق في إظهارها لأن المجتمع يشجع ويؤيد سلبياته ويعتبرها في حكم العادة عشان كده هو مارح يرهق تفكيره في البحث عند ذاته مدام الأمور ماشية وكلو تمام..

ـ «حياة» بعد صمت طويل: أنا بصراحة فارس أحلامي «مصري».

ـ الجميع.. واو.. ليبيه..

ـ لأنهم يقدرون زوجاتهم ويقدّسون الحياة الزوجية جارتنا مصرية هي وزوجها على كثر المشاكل والفروقات الاجتماعية بينهم إلا إنهم دائماً يقدمون مصلحة الأسرة الكيان على مصالحهم الشخصية وحتى على رغباتهم.. يا عيني على المصريين..

ـ لو سمحتوا أنا عندي ملاحظة ويمكن تتحول إلى خطبة وهي إن عندي تحفظ على كلمة فارس.. وأحلام.. أولاً إحنا ما إحنا في زمن الفروسية والخيول خلاص هذاك زمن وهذا زمن وإحنا الحين في زمن الدراجة النارية والبخارية والسيارات وتواضعاً «السياكل» برواية صينية على أساس إنه وسيلة مواصلات معتبرة عشان زحمة السكان.. هذا من ناحية اللفظ أما من ناحية المعنى فأنا أربأ بأحلامي إني أحصرها في شخص غيري حتى لو كان زوجي وأعطيه منتهى الصلاحيات في تحقيق أحلامي وأخليه برتبة فارس

لها لأن أحلامي أنا أولى بفراستها إذا ولابد.. وبعدين الزواج واقع وإذا أبغى أتزوج زواج فعلي فهذا يبعده عن عالم الأحلام وبكذه تكون لفظة فارس أحلامي ما لها موقع من الإعراب حسب مفهومي المتواضع ويصير الإنسان اللي باتزوجه اسمه «شريك حياتي» باختصار له الحق في الشراكة لكنه لا فارس ولا يحزنون إنسان عادي يخطئ ويصيب مثلي ويتكرمش ويتشيك مثلي ويدخل الحمام مثلي.. عفواً على الكلمة.. لكن تفكيرك في الآخر بطريقة عقلانية هي طريقة النجاح إلى التعامل معه فالحياة الزوجية ما هي فيديو كليب طوله ثلاثين سنة وكمان ما هي تعب وشقاء.. الحياة الزوجية هي حياة مشتركة حلاوتها في اقتسام المسؤوليات بين روحين.. وشخصين.

ـ أمل: الله.. الله صفقوا لها.. تصلحين مُصلح اجتماعي..

ـ عادي قولوا اللي تقولون أنا صار عندي مناعة ضد النقد.. تجاوزاً لأن اللي تسوونه اسمه تريقة

مضى ذلك اليوم جميلاً ومرحاً كما يليق باسمه يوماً للحقيقة.. كنت قد عزمت على أن أخدمها «الحقيقة» بشكل أكبر بعد امتحانات نهاية العام وتوجّهت إلى المكتبة في عادة يومية لقراءة صحف ذلك اليوم ثم أخذت ورقة كتبت فيها «إيميل» صفحة نقاشات بجريدة الوطن وأخبرتها بصمت بأنني أحبه وسأفديه بروحي إن اقتضى الأمر.

كتبت الايميل لأنني سأحتاجه في القريب العاجل ولن يحتاجني هو أبداً مع كل هذا الزخم من الكتّاب والآراء والموضوعات عدت إلى المنزل وأنا في قمة الانتشاء.. لا أدري كان شعوراً مثل استراحة المحارب أشعر أنني قد استفدت الكثير وعرفت الكثير مازلت أتذكر أم الجراح وهي تمسك الصحيفة «الوطن» من يدي بكل قوة وتلقي بها على الأرض وتخبرني أنها جريدة «الوثن» وأنه لا يحسن بالمسلم الحقيقي أن يمسك صحيفة علمانية تؤصل لحب التراب وتقدسه على حب الدين!! فنقول بكل جاهلية..

ـ كل اللي يكتبون في هذي الجريدة تمّ انتقاؤهم على أساس علمانيتهم يقدّسون السلطة على حساب الشريعة..؟

ـ والله ما كنت أدري الحمد لله إنك نبهتيني وإلا كنت رحت فيها و.. كفرت..

ـ إي نعم ترى هذا الاتجاه يخليكِ تقدسين التراب الرخيص ويصير بمثابة وثن.. يُعبد من دون الله..

ـ آووه.. أعوذ بالله بس مين قال لك المعلومة القيمة هذي؟!

ـ أخويه الله يرحمه.. كان يجيبها كل يوم عشان يقرأ آخر خطط ومؤامرات الزنادقة..؟!

ـ طيب هي وثن كيف يدخل الوثن بيته.. من دون ما يعيده..

ـ هذي الطريقة الوحيدة اللي تعرفين فيها آخر مؤامرات كتّابها العلمانيين والليبراليين اللي يسمون الجهاد فئة ضالة ويسمون الشهداء مارقين من الدين..

ـ غريبة طيب من كل الصحف السعودية هذي بس.. وثن..

ـ لا كلها أوثان وكلها كفر.. وضلال لكن هذي أسست نفسها من الأساس على كذه..

ـ يعني أنتِ تشوفين إن الواحد عشان ما يكفر لا يقرأ ولا يشوف تلفزيون ولا يطلع على إنترنت ولا شيء..

ـ كذه أحسن عشان هذي الأشياء تفسد الشباب وتصرفهم عن الجهاد.

ـ يعني أقدر أسميه مبدأ الباب اللي يجيك منه الريح..

ـ تمام عليك والحين يا الله لاعاد أشوف هذي الجريدة العلمانية في يدك..

ـ لحظة أم الجراح.. «علمانية عجب عنوانها الرئيسي خادم الحرمين يدعو لانعقاد قمة عربية استثنائية في الرياض» عشان فلسطين والله غريبة صح.. المفروض يكون عنوانهم الرئيسي عن شيء علماني وإلا..؟!!

ـ سحر أنتِ كثيرة أسئلة ترى هذا مدخل شيطاني..

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

سخافات.. سخافات.. سخافات.. كان صوتي يرتفع بهذه الكلمة ويبدو أن الجميع في النقل لاحظ عليّ ذلك فتظاهرت أنني أستغفر.. حتى لا يلاحظ عليّ أحد.. قبل أن يدخل العم مشيني بالسيارة إلى داخل فناء منزلنا.. لمحت الأعور المجنون يمشي بجوار السيارة وكأنه يريد أن يطمئن إلى أنني بداخلها..

ـ وش يسوي هذا المجنون هنه الله المستعان لا يكون سارق له شيء وإلا شيء.. «العم مشني»

لا أدري لماذا شعرت أن الغضب تملكني عليه.. ورفعت صوتي ولم أشعر بنفسي إلا بعد أن أطلقتها بكل جرأة..

ـ جار الله ما هو حرامي يا عم مشني..

ساد صمت رهيب.. بعد هذه الثورة الغاضبة لم يستطع أحد تفسير أسبابها ولا حتى التعليق عليها حتى نزلت إلى المنزل.. وأنا في قمة الاستغراب مما فعلته هل كذلك اليوم يوم حقيقة من كل اتجاه؟!

كنت أعلم أن الأعور المجنون لم يفعل ذلك إلا بسبب خوفه عليّ جراء غيابي الطويل بالنسبة إلى حفيدة وجدها فهي ثلاثة أيام حتى الآن.. وأنه أراد أن يعرف إن كنت بخير.. وبعد أن رآني أنزل هم بالانصراف انتظرت حتى غادر العم مشني ثم ناديته بأعلى صوت..

ـ سعيد مو موجود يا جدي.. تعال..

ـ سحر.. اخرعتيني عليك يا بنتي وين الغيبة لا تجين ولا تطمنيني عليك خطاك السوء إن شاء الله.

ـ خطاك اللاش يا جد بس أمي تعبت شوية ووديناها المستشفى..

ـ وسعيد وينه؟!

ـ هذي قصة طويلة اليوم بأجي عندك العصر وأحكيها لك..

ـ فمان الله.. ادخلي وأنا بقعد توك الين تعدِّين..

ـ فمان الله يا جد..

فتحت لي الباب «هناء».. مرهقة وصامتة كعادتها لكن الألم أجبرها على إطلاق زفرة قوية خلتها تقصد الإنسان في داخلي..

ـ هناء حياتي وش فيك وجهك مصفر وعيونك غابرة.. فيه شيء يوجعك..

ـ وش غيرها كليتي.. أحس أن فيها زي السكين.. الظاهر ما عادت زيادة أملاح وبس.. الألم زايد اليوم وما قدرت أروح المدرسة..

ـ يا حبيبتي طيب أنا باشلح ملابسي وأسوي لك كاسة حلبة.. دايم أشوفهم يوصفونها لمرضى الكلى..

كان منظر الألم في عيون هناء أصدق من ألف زفرة ليتيم سلمه الزمن إلى رحمة بعيد قريب.. لا يكلف نفسه عناء المراجعات الكثيرة التي تعطى لهناء قبل سنتين.. عندما شخص الطبيب حالتها على أنها زيادة في الأملاح.. وقصور نسبي في عمل الكلية.. وطلب منها شرب كميات أكثر من الماء..

كان خالي يذهب بها في إحدى مراجعاتها ثم ينسى الأخرى.. أما سعيد فليس لديه وقت حتى لنفسه التي بين جوانحه التي هي أول المظلومين وأول ضحاياه.. فسيارته كانت لا توصله سوى إلى مكان اجتماع شلة الأنس والمُسكر..

آه يا هناء.. كم أتمنى أن أفعل من أجلك شيئاً أكثر.. أراها تتلوى من الألم أمام عيني ولا أملك لها سوى الدعاء.. أتحسس بطنها وأسألها عن موقع الألم لأعرف ما إذا كان التهابها في الكلية أم في الحالب أم في المثانة لكنني بعد أن أعرف لن أستطيع عمل شيء.

ـ هناء ليه ما قلتي لي الصباح كان اتصلت بخالي أو أي حد..

ـ خالي.. اللي رح يفصلك من الكلية عشان كلمة.. خليها على الله بس أنا أفضل الموت ولا الركوب معه في سيارة وحدة يجلس يشتم طول الوقت كأنك لعنة نزلت عليه ولا هو عارف كيف يتخلص منك تصدقي آخر مرة يقول لي

إنك بس تدلعين عشان تقعدين كل يوم عند الرجاجيل؟!

ـ هذا إنسان مريض ولا يهمك إنتِ بس ارتاحي وإن شاء الله الحلبة تصفي لك الكلية وترتاحين..

ـ يا ليت أقدر ارتاح يا سحر.. صدقيني من شهور وأنا على نفس الحال ألم.. وفمي يطلع منه ريحة مو كويسة.. صرت استحي من صديقاتي وما أحب أروح المدرسة..

ـ هناء أنت نامي الحين وإن شاء الله ألقى لك حل..

ـ سحر.. يمكن أنا دائماً أتحامل عليك وأكون ضدك حتى لو حسيت الحق معاك بس أول ما أتعب أحس إنك الشخص الوحيد اللي يحتوي ألمي.. حتى أمي ما عمري شكيت عليها لأنها دائماً تخاف من خالي وتهملني وتتجاهل تعبي عشان ما تزعله سامحيني يا سحر..

ـ يا الله عاد لا تقلبينها دراما وأنا دمعتي قدها جاهزة ما تصدق الله يشفيكِ ويعافيكِ نامي ولا تفكرين في شيء..

أدلف إلى غرفتي وأهرع إلى قلمي لأكتب كل ما يختلج بداخلي من مشاعر.. رغم شعوري بالنعاس لكن صلاة العصر ربما تفوتني إذا استسلمت للنوم.. وأشرع في الكتابة الشيء الوحيد الذي لا يستطيع رجل أن يحرمني منها حتى لو كان الدفتر صفحة التراب والقلم أطراف أصابعي.. فسأكتب إن شاء الله..

«.. تتآكل الأرصفة من حولي ويقذفني الشعور بالاشمئزاز من روائح الطين المختلط بأنين المياه الآسنة إلى الشارع في استسلام تام لكل أنواع الألم والوخز والاضطراب بحثاً عن أمان بعيداً عن أرصفة متآكلة حين يصبح الوجع راحة.. حالة وفاق مع الروح واختلاف مع الجسد.. فلا أدري كم من الساعات ينبغي أن تمرّ على جرحي حتى يتقرح.. بكل سادية «أريده دافئاً كقهوة الصباح؟! أكتب آلامي سطراً سطراً وأقطف دمعي دمعة دمعة.. ألوك أضلاعي حسرة وندامة.. رسائلي حبر بلا ورق!.. وأوراق ملها الحبر.. والصبر!أطلب المسافة.. وأرفضها.. وترفضني.. ونقضي يومنا في رجاء وتأمل.. وبكاء طويل.. أغني للقلب علّه ينام.. وبدلاً من النوم والراحة.. أجد النوم سلسلة من ذكريات الألم من جديد.. أصحو من كابوس ويتلقفني آخر.. عندما يصبح النوم مهمة مستحيلة وشر لابد منه..!! أكتب أسرار القلب ويطبقها بغطاء القهر فلا يصل إلى قلمي منها شيء.. نار لا يكتب قلمي سوى عن دخانها.. ورعود لا يتقن قلمي سماعها إلا بعد أن تمطر!!

أتجاهل الحسرة فترميني الوجوه في قاعها.. كل مرة أخدع فيها نفسي بالنسيان.. وزفير لا يتوقف وأنين لا يعرف إلا حنجرتي أقتاد ألمي.. أكتبه كل مساء..

❀ ❀ ❀

رنين هاتفي المحمول يقطع عليّ وتر الكتابة.. عدد من المكالمات الفائتة للمشاكسة «سوزان» كان كفيلاً بالرد عليها!.

الفصل السابع

«اللهم امنحني الصفاء لأتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها والشجاعة لأغيّر الأشياء التي أستطيعها والتفكير لأعرف التفريق بينهما»

د/ نيهولد نيبور

ـ سوازن: سلام المثقفين وثقالة الدم..؟

ـ وعليكم السلام.. بصراحة أغرب سلام سمعته في حياتي..

ـ ليه كل ما اتصل عليك لازم اتصل عشر مرات عشان تتكرمي وتردي بس تمونين «يا دماغ».. أنا متصلة عشان بكرة رايحة مع الوالد بيروت إن شاء الله وحبيت أسأل إذا فيه كتب تبغي أجيبها لك فيه معرض دولي للكتاب لمدة أسبوعين هناك.. واللي أعرفه إنك تحبي القراءة أكثر من الأكل..

ـ شكراً هذي مدحة وإلا سبة؟

ـ اعتبريها مدحة وقولي لي وش الكتب أو أقولك

أنتِ ماعندك إلا من ثلاثين كتاب وأنت طالع أرسليها لي في رسالة اليوم لازم عشان في بيروت رح استخدم رقم ثاني.. بس وينك حطي علامة مميزة عند الكتب اللي ممنوعة في الداخل عشان أركّز عليها هي أولاً وأجيبها OK.

ـ كلها ممنوعة..

ـ معقوووول..؟!

ـ صدقيني كلها وإلا ماكان كلفت عليك تجيبيها من برا..

ـ سؤال أجل وش اللي مو ممنوع من الكتب؟

ـ تتذكري عندنا في أول ابتدائي.. زرع.. زرع.. ح. ص. د حَصَد.. تذكرتيها..

ـ إيوه..

ـ هذي بس مو ممنوعة المهم ما علينا أهم شيء ركّزي على كتب الفلسفة.

ـ وش دراني أنا عن الفلسفة وإلا غيرها حددي لي في الرسالة.. أنا ما عندي خبرة إلا في الموضة والماكياج..

ـ خلاص نص ساعة ويكون عندك أطول رسالة وسائط اليوم..

ـ الله يعين عليك بس تدلعي على كيفك والله ما أقول لك لا..

ـ الحمد لله اللي جابلي وحدة أصغر مني ثلاث سنوات تدلعني.. يا الله مع السلامة..

ـ مع السلامة. لحظة...

ـ إلا على فكرة أنتِ وينك؟!

ـ في الرياض يا دماغ.. باي.

كانت سوزان سعودية لأم فلسطينية الأصل منذ أن بدأ العام الدراسي في سنتها الأولى بكلية أبها وهي لا تفوت على نفسها فرصة تقرّبها مني أكثر.. مازلت أذكر عندما سألتها لماذا كل هذا الاهتمام.. فلم تستطع الرد.. كانت مرحة وكثيرة الكلام والتسيب من محاضراتها حيث تدرس بقسم اللغة الإنجليزية إذ هي خريجة ثانوية بجدة لكن انخفاض نسبتها في الشهادة قذف بها إلى مدينة أبها التي لا تهتم كلياتها بالكم أبداً حتى ولو لم يكن هناك متسع لقدم أما الكيف فلا تسأل عنه أبداً وإلا ستصاب بالإحباط.

أخبرتني ذات يوم أنها تكره والدتها التي تفرض عليها اختياراتها في الحياة فهي كانت تتمنى إكمال دراستها الجامعية في إحدى الدول العربية أو الأوروبية لأن التخصص الذي تحبه غير موجود في الداخل لمثل نسبتها المتدنية ووالدها مقتدر مالياً على تدريسها في أي جامعة

خارجية لكن والدتها لا تريد لها أن تتأثر بالحياة خارج الوطن فتألفها وتتمرد على حياتها.. كانت تتمنى أن تصبح مصممة ديكور أو مصممة أزياء.. ووالدها يدعمها ويقف إلى جانبها.. آه يا سوزان.. كانت تتحدث وأنا أشعر أنها قادمة من كوكب آخر لا أعرفه.. سألتها إن كان والدها ذا أصول سعودية يعني «قبلي» فأجابت بالنفي.. وعندها عرفت السبب.. لماذا تفرض القبيلة على أتباعها كل هذه القيود وتحرمهم من تحقيق ذواتهم فضلاً عن احترامها.. إنهم يعيدونها ويقدمون لها القرابين كل ذات جهل.. يتآكلون هلعاً أن تحرمهم من قبسها الشيطاني الذي لا يخفت له بريق في أعينهم حتى وهي تقتل ذواتهم الظامئة إلى استفسار أو شكوك.. ترميهم بحجارة الويل والثبور فيخبتون للنداء المقدس.. «يا فلان الفلاني» يغنونها على جنائزهم ويترحَّمون بها على موات التفكير.. وأنين الفردانية.. يصلون لها كل زعيق ويغدقون على هُبلها عطاءً لا يصل إلى أتعس بؤسائهم.. وينسجمون في داخل غياهبها المستطيرة فلا يبصرون إلا ما تبصر ولا يسمعون إلا ما تسمع ولا يفقهون إلا ما تقول في قلوبهم قبيلة فزادهم الله جاهلية.. معذبون واهمون.. وأسياد مكبلون يحترقون زرافات ووحداناً.. لكنهم أبداً لا يحتملون لحظة غضب هذا الصنم عليهم.. قرابينهم إناث مكلومات ومثقفين عتاة.. وأي عقل يروم النور.. فهو إلى رضا صنمهم مأمور!.

وفي الجانب الآخر من الرأس.. أناس وجدوا أنفسهم بلا قيود ولا أوهام ولا أصنام بنوا حياتهم بأيديهم وفكرهم، ارتضوا لأنفسهم ما ترتضيه الفطرة وأبوا عليها ما تأباه.. فتراهم.. يجدون بالليل والنهار لتحقيق ذواتهم وتطويرها فأصبحوا علامات.. ومنارات.. أولئك هم الأحرار الحقيقيون.. هنيئاً لك يا سوزان لأن والدك ليس عبداً لتلك الأصنام.. هنيئاً لك لأنك بلا قبيلة.. هنيئاً لك لأن رأسك ملكك وحدك..

أقلب بين أوراقي من أجل أن أحصر كل الكتب التي أريد شراءها من بيروت وتلزمني إحدى الأوراق على التوقف عن البحث والصمت الطويل.. فأصرح بألم.. «سآتي مرة أخرى.. نحن على موعد أيها الوطن» كانت تلك ورقة كتب عليها «موافقة ولي الأمر» للمشاركة في إحدى دورات الحوار الوطني بعنوان «نحن والآخر» التي تشترط موافقة ولي أمر الفتاة من أجل مشاركتها في جلسته التي كانت ستعقد في أبها في صيف ذلك العام.. وكانت إحدى أستاذاتي ورئيسة قسم التاريخ قد رشحتني للمشاركة وطلبت مني الحضور إلى مكتبها لاستلام الأوراق، لست أنسى شدة فرحتي بتلك الفرصة التي مُنحت لي في الوقت المناسب من بين آلاف الفرص الضائعة لأعبر لوطني عن حبي له واشتراكي في مشروع التنمية والتطوير الذي لن يتم بدون الحوار الطريق الأسلم لتحليل المشاكل والوقوف على

المعوقات والتقريب بين وجهات النظر بين كل فئات وأطياف المجتمع من أجل وطننا الكبير كان الوقت مناسباً والموضوع الذي سيتمّ الحوار حوله أنسب.. والمعلومات التي أحملها أثمن.. والقلب الذي في أعماقي يحمل كل صدق وعطاء.. حملت الأوراق واستعجلت العودة إلى المنزل لكي يوقّعها لي «سعيد» فهو ولي أمري ولن أستطيع حتى الإدلاء بوجهة نظري حتى آخذ الإذن والموافقة حتى في حبي لوطني!! دخلت إلى غرفته بعد أن دخلت المنزل قادمة من الكلية بدقائق وبكل انشراح..

ـ سعيد ممكن توقّع لي على هذي الورقة؟

ـ وش ذا حوار وطني، «وش في هذي الورقة اشرحي لي..

ـ ما سمعت عن برنامج الملك عبد الله للحوار الوطني؟

ـ لا والله ما سمعت ممكن لو سمحتي تختصرين السالفة لأن ما عندي وقت..

ـ هذي ورقة إذا وقّعتها لي معناها موافقتك على اشتراكي في الدورة الأولى من البرنامج.. أروح مع مجموعة من أعضاء هيئة التدريس والطالبات ونجتمع مع مجموعات ثانية ونلقي كلماتنا ووجهات نظرنا من خلال دائرة الصوت.. وبعدها نتناقش حول كل ما طرح وتكون الكلمة

الأخيرة لرئيس الجلسة طبعاً!! إحنا ما نشوف الرجال ولا هم يشوفونا بس يسمعون أصواتنا. وش رأيك..

ـ وأنتِ وش اللي ممكن تقدمينه من جديد يعني ما فيه إلا أنتي الوطن كله واقف على كلمة منك ألف وحدة غيرك تقدر تروح وتقول أي كلام، أنتو أصلاً ما لكم أهمية بس تحصيل حاصل يعني بس قدام العالم وإلا الحقيقة أنكم ناقصات عقل ودين.. يعني بالمختصر اجلسي في البيت أحسن لك..

ـ الله يخليك يا سعيد لا تحرمني من هذي الفرصة أنا ما صدقت..

ـ حطيها على الطاولة أشاور خالي.. إلا من بيوديكم..

ـ الجلسة رح تكون في الصيف يعني.. أنت توديني إلى مقرّ الكلية وبعدين أروح معهم أو عادي أروح معك مرة وحدة.

ـ خلاص انقلعي من وجهي الحين الين أشوف عن خالي لأني أنا ما فهمت السالفة ولا أبغى أفهمها..

ـ لازم الأوراق توصلهم خلال هذا الأسبوع الله يوفقك لا تتأخر..

بعد يومين من الانتظار كان خالي يرعد ويزبد في صالون المنزل وينعتني بالفاجرة!!..

ـ ليه يا خال وش سويت عشان تقذفني حرام عليك تدري وش معناها ها الكلمة؟

ـ إنتِ بتعلميني وش أقول يا بنت الخُس.. أنا على آخر عمري اسمح لك تروحين تطالبين بحقوقك وتسولفين مع الرجال لا وبعد في التلفزيون كل اللي يروحون هنياك حريم ما وراهنه رجال يمسكهنه ويعلمهنه بقدرهنه.. يعني حريم سايبات على حلّ شعورهن.. قحبيبا!!

ـ استغفر الله العظيم مين قال لك هذا الكلام.. خلاص مو لازم أروح ولا لمكان إلا لجهنم الحمراء.. بس لا تقذف نساء العالم بدون بينة.

ـ اقلبي وجهك يا قليلة الأدب أنتِ ما يعقلك إلا الزواج..

ـ مين اللي يبغى يتزوج وحدة أخوها سعيد باشا؟!

ـ باقي تراددين.. يا فاجرة.. أنتِ أكبر فاجرة في الدنيا..

يُتبع كلماته بضربي على وجهي وأمام سعيد الذي لم يحرك ساكناً عندها علمت أن مجرد مشاركتي في مثل هذا العمل هو جُرم لا يغتفر عند خالي وأمثاله.. كم أتخيل أن جمجمته مغلقة بأقفال من حديد لا تُفتح أبداً ولا يوجد أمل في زحزحتها.. كم أكرهه.. أتذكر كل هذا عندما كنت أقلب الورقة بين يدي وغصة لم تفارقني عندما طلبت مني

رئيسة القسم أوراق الموافقة في نهاية الأسبوع حتى يكون اسمي من ضمن الأسماء، عندها أطرقت إلى الأرض ولم أدر ما أقول.. وأخبرتها بأنني لا أستطيع المشاركة لأنني سأسافر إلى خارج المنطقة وتلك في الواقع من أشد لحظات المرارة والألم.. والكذب الذليل.. لكنها أرحم من شرح طويل للأسباب لدكتورة قادمة من مصر لن تستطيع تفهم رفض إنسان عاقل لمشاركة أخته وسط نساء فقط في محفل وطني..!!

أعدت الورقة إلى مكانها في قائمة مذكراتي الحزينة.. وفرصي الضائعة ونبضاتي الصامتة.. وضعتها هناك بجانب لوحاتي التي يسميها سعيد «شخابيط مجانين» وتنعتني أمي «بالفاضية اللي ماوراها شغلة غير الحويس بالألوان» أما أخواتي فيرين أنها لا تستحق حتى المشاهدة.. وبجانب قصائدي التي يعتبرها خالي من ضمن الكبائر وأخاف عليها حتى من صفحات الدفتر فأكتبها في صدري أولاً..

كان صوت أذان العصر يعيد إلى مسامعي روحانية كدت أفتقدها في زخم الذكريات السيئة لأشخاص يوصفون بالمحافظين والدينيين.. وفي المقابل هم فقط من يصنعون من تدينهم الحواجز الطويلة والسميكة بينهم وبين الحياة وبينهم وبين الحب والسلام.. حتى تتجرأ القلوب الضعيفة على الخوف من الدين بأسبابهم، ويوماً بعد يوم تغترب عن قدوتنا وعن نظامنا المتكامل السماوي بسبب أشخاص

فرضوا أنفسهم على أنهم بقية السلف في أرض الخلف فعاثوا في السماحة فساداً.. فضلّوا وأضلّوا.. أهرع إلى الصلاة.. وبعدها بدقائق أسمع رنين هاتفي المحمول إنها «مرام» ماذا تريد مني في مثل هذا الوقت.. هل أردّ عليها أم أتجاهلها.. إنها لم تطبق الاتفاق الذي كان بيننا وهي أن لا تتصل بي حتى أعطيها إذناً بذلك ولماذا تصرّ على الاتصال بالرغم من عدم تلقيها الرد.. هل أرد؟! لا أدري ربما لا تكون هي.. ربما يكون فيصل قريباً منها.. بعد تردد طويل:

ـ ألو..

ـ السلام عليكم.. سوسو ليه ما اتصلتي؟!

ـ والله ماجاء وقت مناسب تعرفي أنا الكبيرة وكان الشغل متراكم عليّ البارح.. و..

ـ يا الله أنا بكون أحسن منك أبدأ بالاتصال.. إحنا عند أمك وفيه ناس زعلانين عشان الورد رجع لهم ولأنهم من وجهة نظرك غير ورديين!

ـ قصدك فيصل خليه يجوز من حركاته ويسافر.. ترى الإخبارية ما عندها دلع ولا تهاون.

ـ يا قلبك يا سوسو مرة رقي عالمسكين وقولي كلمة زينة بحقه..

ـ يا هوووه أمي تسمع كل هذي التجاوزات والانفجارات والقصف والأرض جو!!

ـ لا.. ما تسمع وش قالوا لك خلاص ما عاد فيه حياء.. أنا في الممر وفيصل جا حتى اليوم ومعاه نفس الورد.. وغير الورقة..

ـ انتبهي ترسليها مع سناء خلاص مشكور على رقته الزايدة والله ما حد فاضي غيره..

ـ طيب ممكن تستلمي على جوالك رسالة منه؟!

ـ لا.. لو سمحتي يا مرام لا تخليني أندم إني عطيتك الرقم..

ـ خلاص يا أثقل طن في الطناش..

ـ يا الله طولت عليك أنا عندي شغل سلمي على أمك وخالتك وبس سامعة..

ـ إن شاء الله مع السلامة..

❀ ❀ ❀

أطلق العنان لأحلامي.. ولو بصمت طويل قبل إغفاءة قصيرة.. تُرى هل سيكون شاب بمثل وعي فيصل من نصيبي أم أن مجرد الأحلام هي التي تزيّن لي مراودتها حتى إذا انكشف الواقع انقشع غمام الوهم.. أمام سوءة الزيف..!!

كثيرة هي الأحلام في حياتي لكن اقتحام فيصل لحياتي يجعل مجرد الحلم هو بداية التقريع من ضميري الذي لا يجرؤ على الوقوف متفرجاً في وأنا أسبح عكس

الاتجاه.. لأنه عكس الاتجاه تماماً ولن تقوى ضعيفة مثلي على مواصلة التجديف إذ لا مجداف أصلاً!!قلت سأنساه.. لأنني لم أحبه أصلاً سأغيّر رغم هاتفي المحمول.. وسأترك كل شيء يذكرني به جانباً، سأقطع هذه الورقة التي كتب فيها هذه الكلمات السخيفة سأنام.. أووه حتى أنا أشعر بنعاس شديد ولا بد أن أنام إذ أنني منذ البارحة لم أذق طعم النوم.. وهناء ستحتاجني عندما تستيقظ في المغرب لابد أن أطرد كل هذه الأفكار وأنام..

لم تكن تلك الليلة عادية أبداً لقد تحوّلت إلى ممرضة لمرض أجهل كنهه إذ أن هناء تصرخ عندما أمسك أي جزء من بطنها وأنا أذهب وأعود إلى المطبخ ثم إلى الخارج لأحضر بعض الأعشاب من فناء المنزل ثم أضع لها الكمادات، كان ألمها يدمي قلبي إذ أنها كانت مثل الطفل الذي لا يتقن الشكوى وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً.. أعتقدت أن نومها لساعتين قد هدأ الألم.. لكنه ازداد عليها ترى هل كانت الحلبة سبب كل هذا الألم ليتني لم أفعل.. أقوم ثم أعود فأجلس ثم أقوم مرة أخرى كمن ضيّع عقله ويبحث عنه وسط زخم الماديات.. حقاً أنا عاجزة.. كلنا عاجزات، أختي تتضور ألماً ولا أستطيع أن أنقلها إلى أي مستشفى، سأتصل بأي طبيب ربما كان هذا مجدياً.. أتحدث سريعاً مع إحدى المستشفيات الخاصة التي توفِّر خدمة لاستشارة الطبيب المختص، وبعد انتظار أصل إليه

أسأله والدموع لا تبرح صوتي ماذا أفعل.. ويعيد ويكرر أن صراخها المستمر يعني وجود حصوات في الكلية أو في الحالب في طريقها للخروج والسبب الذي هيجها ربما كان الحلبة لأنها تحتوي على مادة مدرة.. آه إنه أنا السبب.. لكن هذا الدكتور لن يفهم أبداً أن فتاة أصبح جسدها كله كتلة من الجرح والألم لا تستطيع مغادرة الصندوق بدون المفتاح.. ولا حتى مع أي سيارة أجرة فقط هو خالي الذي يمكن أن يساعدني سأتصل به حتى لو كلّفني هذا كل شيء.. تلك ساعة لا أستطيع فيها التفكير بغير هذه المسكينة أهرع إلى الهاتف واتصل به.

ـ السلام عليكم خالتي وين خالي؟

ـ ليه وشفيكم؟

ـ هناء تعبانة مرة الله يخليك وينه في أي مكان أنا أعطيه روحي بس يجي.. الله يعافيك.

ـ والله ما هو موجود يا بنتي وإحنا نتصل عليه وجواله مقفل.

ـ يعني تموت.. هناء تموت.. حرام عليكم.. وش أسوي..

أغلق السماعة في وجه خالتي دون شعور مني وأعود إلى هناء وأنتحب معها ولا أدري كيف يمكنني مجرد التخفيف عن ألمها.. وإيمان تأتي بكل برود.

ـ وش فيكم أزعجتونا ما حد يعرف ينام في هذا البيت..

تتوجه إلى المطبخ حتى قبل أن تغسل وجهها!! لا أدري ما هو الذي يقتل الشعور بالآخر في داخلنا ولا أريد أن أعرف حتى لا أتجرأ على تجربته ولو مرة واحدة في حياتي.. لا أريد أن أصبح بقايا إنسان أو كتلة من الجسد الخالي من الإحساس.. إنها حتى لا تكلّف نفسها عناء السؤال لماذا تبكي أختها الصغيرة.. وأمل مازالت في داخل صومعتها لم تغادرها بعد وإذا غادرتها فطريقها إلى المطبخ مفروش بالورود.. وأنا وحدي أصارع الحسرة والشعور بالمسؤولية.. والعبودية أيضاً.. إنهم يسلبوننا حتى حقنا في التألم.. حقنا في الصراخ.. حقنا في أن نشهق بأعلى صوت! حقنا في أن نعبّر عن هذا الوجع أو ذلك!

اعتادت هناء على كتمان ألمها فأصبحت تئن بلا صراخ.. تخاف أن يأتي خالي في أي وقت فيتهمها بالفاجرة لأنها لا تعرف كيف تتحكم في طبقة صوتها وهي تتضور ألماً كانت تسألني بحذر..

ـ اتصلتي بخالي؟.

ـ إيوه ما هو موجود وجواله مقفل الله يقفل الدنيا كلها في وجهه..

أكاد أشعر بها وهي تخفض من صوت ألمها حتى لا

يكاد يُسمع خوفاً منه، تنقل عينيها بين الجدران وهي مغرورقة بالدموع والبؤس واليتم كأني بها تسأل أين أنت يا أبي.. هل كنت ستتركني.. أتألم وتقف مكتوف الأيدي؟ كان خالي يفعل ذلك كل يوم بكل سهولة لكن هناء ذلك اليوم شعرت أنه الموت.. أشعر أنه الموت يا أبي.. تبكي بحرقة وتبكيني معها.. وتردد برجاء يا ربي رباه.. يا ربي رباه.. كانت كالطفل تماماً ثلاث ساعات وهي على نفس حالها وخالي لم يأت ولم يتكرم بفتح جواله، وبعدها تغرق في سبات عميق كمن خاض معركة لتوه لكنها معركة مع المرض.. كانت نائمة في منتصف المجلس على الأرض.. أعياها الألم والذهاب والعودة والبكاء فنامت كطفل استسلم لغياب أمه وتعب جسمه.. أحملها بكل أسى وأعيدها إلى فراشها وأتأملها وهي نائمة ثم أنتحب.. كان صوت البكاء مازال واضحاً في تنفسها وعيناها محمرتان ووجهها كذلك بسبب كثرة البكاء.. وجهها يقطع نياط قلبي فأضمه إلى صدري وأعدها الوعود الكثيرة التي لا يسمح لي مجتمعي بتحقيق شيء منها.. وأنام تلك الليلة الطويلة بجانبها..

في الصباح كان خالي يقف في بوابة المنزل وهو يتمتم بكلمات لم أفهمها ولا أريد..

ـ ألبسي عباتك وجيبي أختك ويالله أوديكم المستوصف..

ـ المستوصف..؟! خالي البنت بتموت وتقول نوديها

مكان رعاية أولية هذي يبي لها أشعة تلفزيونية على أقل تقدير وش تسوي بمستوصف..

ـ أنا قلت وانتهى..

ـ وش فيها لو زدت المسافة كيلو مترين زيادة والله المستوصف مارح يفيدها في شيء.. لازم نروح المستشفى لازم يشوفها دكتور مختص.

ـ أنتي بتنقلعين من وجهي وإلا حرام ما وديكم ولا مكان.. يا الله.

أجمع البقية من صبري وأدلف إلى المنزل وكثير من الغصص تمنعني من الكلام كنت أتعامل مع هناء بالإشارة لأن حالتي لم أكن لأضمن معها لساني ولا أريد أن تخسر هناء الفرصة.. مضينا إلى المستوصف وكان ما توقعت الطبيبة في المستوصف تعطيها ورقة تحويل إلى المستشفى لأن وضعها واضح لا يحتاج إلى كلام، نظرة واحدة إلى وجهها تكفي لتقول إنها متعبة فعلاً.

كانت هناء تطلب منها أن تفعل أي شيء فقط لا تريد أن تذهب للمستشفى، وأنا أقنعها أن ذلك هو الحل لمعرفة ما جرى بكليتها.. وبعد تردد طويل في درج المستوصف أستجمع كل قواي وأسلم الورقة إلى خالي الذي يتهمني بأنني أنا من أقنعت الطبيبة أن تكتب لنا التحويل.. الكثير من الأيمان المغلظة لكن لا فائدة.. علمت حينها أنه لا بد

من اجتياز كل ممرات هذا النكد والذل والتسويف والسباب من أجل الوصول إلى مجرد مشوار إلى مستشفى.. لله ما أسعدنا!! والمشكلة التي تزيد الألم أنيناً والمر علقماً عندما تكون تعرف الحقيقة كاملة ثم تضطر أن ترمي بها إلى جانبك أو تحت قدميك بحجة سلطة الآخر عليك.. عندها رددت..

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله..

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم...

فكم كان الفرق كبيراً بيني وبين هناء التي ارتاحت لأنها تعتبر أن تصرفات خالي هي جزء من الواقع أما أنا فاعتبرها جزءاً من مظلمة كبيرة تكاد أن تعود بنا إلى أيام هُبَل.. أو ما قبلها بكثير.. كثيراً ما تمنيت أن أكون مثلها حتى يرتاح هذا الجسد المتعب من كثرة البحث عن الحل.. عن الحقيقة.. عن العدالة.. وحدي أمشي.. وأفكر وأحترق.. وأبكي.. وحدي دائماً..

كان ما توقعت بقليل من التفاؤل «هناء تعاني من وجود حصوات بالكلية اليمنى وارتفاع في نسبة الكيرياتين في الدم عن المرة السابقة التي كانت قبل ستة أشهر.. الدكتور يحذرها من احتمال فشل الكلية في حالة عدم شرب كميات كبيرة من الماء والحرص على تناول المضاد والأدوية الأخرى..

ـ هنو أنا اللي رح أعطيك الدواء عشان أتأكد إنك رح تأخذينه على وقته..

ـ الله يخليك لي يا سحر من دونك ما كنت باوصل هنه.. كان دمي كله تسمم وكليتي فشلت..

ـ بس على الله يجيبك في كل مراجعاتك صار ضروري ما تقطعينها أنا ما بجلس أعلمك في مصلحتك، الله سبحانه نهانا عن قتل أنفسنا عشان كذه لازم تقاتلين عشان تجي وتراجعي فاهمة.

ـ أحاول.. لو كان بيدي ما وصلت إلى هذا الحال تعرفين «غصة وبكاء»

ـ هناء وش فيكِ؟

ـ مدري أحس إني أبغى أشوف الدنيا تصدقي أول مرة أشوف هذا الشارع أحس أني بأموت وأنا ما شفت من العالم غير بيتنا ومدرستنا.. ولو ما فيه تعليم ما كان شفت غير جدران غرفتي..

ـ قولي غيرها يا بنت الحلال.. إن شاء الله العمر قدامك بعدين كثيرين وصلوا إلى مرحلة الغسيل بعدين كلاهم تعافت تماماً ورجعوا مثل أول وأحسن بس السر في الإرادة القوية في الشفاء.

خالي بعد صمت مصطنع لأنه أكثر رجل ثرثار في العالم..

ـ غطي عيونك عساها فقع يا قليلة الأدب..

ـ السيارة مضللة من يشوفني في عزّ الظهر «هناء»

ـ مين يشوفك؟ يعني تبغين حد يشوفك يا خسيسة!

ـ هنو خلاص غطي عيونك حياتي يمكن ينط عليها رجال يا خذها منك من الشارع وإلا تفتنينه خصوصاً مع التظليل فتنة فله!! صدق شر البلية ما يُضحك.

بعد أن وصلنا للمنزل توجهت إلى المطبخ لعمل إفطار لهناء التي لم تأكل من الأمس وبعد أن اطمأننت عليها أنها مرتاحة توجّهت إلى وجه اشتقت له كثيراً جداً.. إنه جدي.. الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتي إنه أحلى أمل يضيف لسوادها بريق النجوم.. أخذت إفطاري وتوجهت إليه ليشاركني فيه..

تشير كل الحجارة في الطريق إلى منزل جدي المتواضع الذي هو عبارة عن «صندقه» من الحديد إلى قلبي الذي يحفر في الصخر بلا توانٍ ولا هوادة.. مثلك أيتها الطرق أحفر دونما دليل.. مثلك أيتها السحائب أمشي أحمل المزن المحملة بالكثير من الحكايات والألم.. مثلك أيها الشيخ الثمانيني هو عمر صمودي مشرئب بالتفاؤل كلما استحكم إغلاق الصندوق ونسيتني الحقيقة.. كانت هذه الأفكار تدور بمخيلتي وأنا أحث الخطى إلى منزل جار الله ترتعش خطواتي كما ترتعش أطرافه وتغرق عيناي بالذهول كما تغرق أضلاعه النحيلة في العزلة.. وحيدٌ عالميٍّ!! هذا ما كنت أسميه في نفسي عندما يتحدث.

ـ صباح الخير جدي أنا سحر جيت بغير العادة لأن ما عندي وقت مناسب في العصر..

ـ هلا والله بنيتي خوفتيني وخليتي عقلي يجي ويروح.. أنا سويت شاهي كني حسيت بجيتك..

ـ يعني أقدر أقول القلوب عند بعضها..

أجلس على الأريكة المتواضعة في فناء منزله المتهالك أتأمل كل الأرجاء وكأني قد غبت عنها دهراً من الزمن.. أسرح هناك بعيداً في عالم أفل وتولى.. عالم كان فيه جار الله في ربيع عمره.. كيف كانت الحياة.. وهل تزوج.. وأين زوجته..

ـ أقربي كلي يا بنتي ورا عيونك كن فيها دموع.. أنتِ باكية..؟!

ـ أي والله يا جد هناء أختي تعبانة وأمي بالمستشفى وسعيد بالسجن.. وأنا مع كل هذا مهددني خالي يفصلني من الكلية عشان علمت على سعيد.

ـ أنا يا بنتي يوم قلتي سعيد ما هو موجود نشدت عنه وقالوا مسكوه مع بوطار في البيت اللي ورا الجبل معهم مخدرات.. لا تضيقين يا بنتي أمك اللي ضيعته.

ـ ما بزعل يا جد أصلاً الناس ما عندها غير الكلام والحقيقة لو غابت اليوم بكره مصيرها تطلع.

ـ وأمك وش علومها؟

ـ أمي هو اللي ضربها الين كانت بتموت هذا اللي استفدناه منه ألم وضياع وسمعة زي العسل.. الحمد لله.

ـ لا يهمك يا شُرحتي.. أنا حزامك لاشتدت الدنيا عليك..

ـ أدري يا جد أنك ما بتقصر.. بس أنا جيت عشان أسألك وش هو الحب؟!

ـ الحب.. يا سحر.. الحب إحنا من دون الخطايا.. إحنا من دون النوايب والتجارب.. إحنا.. الحب.

ـ ياه ياجد يعني إنت كنت تحب؟!

ـ الحب هو اللي خلاني أعور.. وهو اللي خلاني في عيون الناس مجنون ولا سهيت منه ولا سهى مني..

ـ يعني إنت كنت متزوج زمان؟!

ـ ما تزوجت غيرها ولا عرفت من العذارى غيرها سمعت كلام أهلها وخلتني.. استعرت مني..

ـ جدي وش هي حكايتك مع زوجتك أنا أسمع من الناس إنك كنت فارس وكان فيه حروب بينكم وبين القبائل الثانية..

ـ الحرب ما هي مع القبائل كانت مع الفخوذ.. يعني عيال فلان يحاربون عيال فلان.. كل يوم كانت تنشب والناجي يبقى والمغلوب يهج..

وكنت رجال قوي وصلب طول بعرض وكل ما نغير على حد ندمحه ونأخذ مكانه وحلاله، وكانوا يخلوني عند الغنائم والحلال أسهر عليها بالليل معي بندق ومعي سيوف وأحميها نتكافى كل يوم رجال، الين جاء ذاك اليوم اللي غشتني فيه غشيه مدري وش سببها ورقدت في مقعدي ودخلوا عليّ قطاع الطريق وخذوا كل ما في الخيمة واستاقوا الحلال وأنا سبحان الله مع أني نبيه ما حسيت بهم من بين الحلال حلال الشيخ وأبو زوجتي وما حسيت بعمري إلا في طلعة الشمس يوم قمت إلا ما في الخيام إلا أنا.. والسلاح والحلال راحت انسرقت عاتروا بي وحملوني أوزار ما قدرتها وديون كثيرة وعيّروا قبيلتي باللي سويته وقالوا فيها قصايد كثيرة باقي الناس ترددها إلى اليوم، يوم شاف بو زوجتي عيرة الناس لهم بي طردني من بيتي وبعد أسبوع خذها وشدوا وراحوا وأنا ما طلقتها وبعد شهرين أرسلوا لي حد يأخذ الطلاق مني وحتى هي استعرّت مني وشمرت مع أهلها.. سعيت وراهم في كل بلاد ونشدت عنها كل ناس كانت معي من خمس سنين ما خلفت ولا خذت عليها ولا مرة.. الين خذوا حتى بيتي وحلالي في الديون لا بقي لي أهل ولا مال ولا عزوة غديت أمشي على وجهي في الجبال أصبح في جبل وأرقد في ثاني.. بكيت لين راحت عيني.. وما لقيت لها بينة.. سنين اشتغلت حمال عند كل من عطاني قوت يومي.. وبعدها عودت لأهلي أن مت أموت بينهم بنيت لي

هذه الغرفة لي عشرين سنة فيها والحمد لله عايش على صدقات أهل الخير وربك كريم.

- وش اسمها زوجتك كيف عرفتها؟!

- اسمها «رفيعة» ربيت معها من صغري ماتت أمي وأنا عمري شهرين وبعدها مات أبي وأنا عمري خمس سنوات ورباني أبوها اشتغلت عند أبوها في مزرعته كنت أصرم أنا وياها ونحصد ونزرع ونبيع في السوق وما عمرها غابت عن عيني الين خطبتها من بوها وأنا ما كان ينرَدّ لي سيف ولا تخيب لي صيده وتزوجتها.

- يعني يا جد كان عندكم اختلاط؟! «عيناي كانت متسعة الحدقة»

- وشنهو اختلاط يا بنتي ما عرفته؟!

- يعني الرجال يشتغلون مع النساء في نفس المكان!!

- ايه يا بنتي فهمت الزمن غير الزمن هذا أول كان كل يشتغل في بلاده معه حريم قريته ورجالهم يأكلون مع بعضهم ويرزقون مع بعضهم والله مع يد الجماعة الدنيا أمان وما به سوء الحمد لله.

علمت حينها أن جدي لم يفهم قصدي أبداً إذا كان قصدي أن كيف يُسمح له برؤية عروسه وخطبتها بل والعمل معها في نفس المكان وربما حتى التغزل بها على غدير

الماء.. من دون أي تدخل من الأجهزة الرقابية المعنية بذلك أم أن الإسلام كان عندهم مختلفاً أو أن الإنسان في زمنهم يختلف عن الإنسان في زماننا لست أفهم.. سوى أن جداراً من العزل العنصري قد تطاول وزاد بنيانه سماكة وقوة مع الأيام حتى غدونا لا نعرف حتى رجال عائلتنا من غير المحارم ولا حتى من المحارم أحياناً.. آلاف الفواصل والسدود والموانع التي حوّلتنا إلى فريقين لا نجتمع وفسطاطين لا يجمعها ميزان واحد.. كل في فلك.. لا نعرفهم ولا يعرفوننا..

فبات الرجل السعودي يحملق بعينيه في الدول الخارجية بشكل يدعو إلى السخرية والاشمئزاز لأنه للمرة الأولى يرى فيها نساء.. وأصبح يتساءل بكل بلاهة.. هل هذه سعودية؟! كنت أسبح مجدداً في أفكاري وجدي يركز ناظريه إلى السماء في شكل دعاني للتأمل هل هي نظرة عاشق ذكرته بحبيبته فأسره الحنين أم نظرة نادم على أيام الصفاء التي ولت ولن تعود بعد أن هجمت على صفائها جحافل ما أسموه بالصحوة فهو حنين من نوع آخر؟.

ـ جدي لو أنا حبيت واحد غصباً عني.. يصير أخليه يجي يخطبني وإلا عيب؟!

ـ العيب إنك تحبينه وتصدينه الزواج سُنة الله في أرضه يا بنتي..

- بس الناس يقولوا الحب قبل الزواج عيب وبعضهم يقولوا حرام!

- الناس ما بتعيش عنك الهم والحزن والوحدة إنتِ عليك من الله وحده ما عليك من الناس..

كانت تلك الجلسة من أروع الجلسات مع جدي، لقد كان يتحدث بشجن واضح في نبرة صوته ويوجه لي نصائحه التي أفخر بها.. كما أنه أراني أغلى شيء يمتلكه كما قال لقد كان خاتماً من الحديد مزيناً بحجر كريم أزرق اللون.. قال إنه ملك زوجته وقد كان في جيبه عندما هربت مع أهلها.. كان أعزّ عليه من كل حطام الدنيا يحمله أينما ذهب ويضعه في صُرّة بيضاء مهترئة يرى أنها أغلى الكنوز.. وأفضل الذكريات.. كان صباحاً رائعاً توجهت إلى المنزل وأنا مترعة بالحنين إلى الأمس الذي تولى لم أكن من أهله لكن حكايات جدي جعلتني أتمنّاه.. كم هو جميل ذلك الزمن الذي شكلته براءة القلوب ودماثة الأخلاق وفزعة الرجال.. وكم أنت عاشق يا جدي لتترك كل نساء الدنيا فلا تتزوج على إنسانة تركتك تحتسي الوحدة كل مساء.. كم أنت رائع أيها القلب الذي تجرّعت كل سخافات أهلك وبقيت بينهم فلم تهجرهم ولم تحقد عليهم.. كم هو متواضع قلبك الذي يسامح بلا حدود حتى تلك التي كالت لك الطعنات واختارت أن تحمِّلك ثمن خطأ بشري يرتكبه كل إنسان.. فبقيت لها جسد الذكريات وأخذت روحك معها

أينما حلت.. أحبك يا جدي وأحب زمنك الجميل.. هل مات الحب الحقيقي يا جدي.. أم أنه تغرب عن مواطنه فبات لا يأبه لتصرفاته لأنه غريب.. كم هو مؤلم شعورك بالحب لشخص تجهله ولا تعرف عنه سوى أنك تحبه فتجهل مرة أخرى استحضر مشوارك يا جدي وكفاحك من أجل اللقاء.. وكفاحنا في هذا الزمن من أجل عدم البداية نخاف الحب لأننا لسنا قادرين على خدمته والوفاء بديونه لنهرب منه إلى أبعد ما نستطيع.. نغرق في ماديات حياتنا لأنها الأكثر قبولاً لجفائنا. . . نحن نحب مثلك يا جدي، لكن الحب ميثاق والزمن الذي نعيشه والعبودية التي تحاصرنا تجبرنا على الإخلال بكل عقود ذلك الميثاق فيغرِّبنا ويغترب..

الفصل الثّامن

«الجبن هو أن تمتلك كل هذه الحقائق وأن تكتم كل هذا الألم.. ثم تطالب الجاهلين بانصافك!!»

أبذل قصارى جهدي لاصطياد أفكاري حتى لا يضيع منها شيء في زحمة الكتابة، عشرات المسودات ولم يستقر رأيي على واحدة، أجمع أهم العناصر وأريد أن تكون رائعة بروعة الحقيقة ومضيئة ضوء الإيمان وصادقة صدق المحبة والحضور والولاء والإخلاص.. أريد أن تكون كاملة الوضوح دقيقة التفاصيل بؤرة للضوء.. أريد أن تكون بدايتي في هذا العالم الرائع الصاخب المثابر، أريد أن تكون معبِّرة عن حجم قناعاتي ومقدار محبتي.. أريد أن تكون مقالتي الأولى وبداية انطلاقي في عالم الصحافة لذلك عملت على إعدادها جيداً كتبت عنوانها «وللقاعديات نصيب» وأرسلتها إلى إيميل صحيفة الوطن.. كم أتمنى أن أراها على صفحاتها وفجأة.. كانت إيمان تناديني بكل امتعاض..

ـ تعالي كلمي.. تلفون..

ـ هناء فيها شيء.. وش فيك مو على بعضك..

ـ لا ما فيها شيء.. لكن نادية تقول خالي يسأل ليه التلفون مشغول كل هذا الوقت خذيها كلميها..

ـ ألو.. السلام عليكم.. كيف الحال يا سحر..؟ من بعد الظهر اتصل وينك؟

ـ الحمد لله.. ليه لهذي الدرجة اشتقتي لي..

ـ لا اسمحي لي ما عدت أشتاق لك بعد اللي سويتيه في «سعيد» لكن أبويه قال بلغيها إن ما عاد لها روحة للكلية..

ـ طيب خالي موجود عندك ممكن أكلمه؟!

ـ ما يبغى يكلمك أنا نصحتك بس ما سمعتي كلامي ألحين هو مطلق ما تروحين الكلية.

ـ طيب حرام ما بقى غير الامتحانات وأخلص ما فرقت يعاقبني في الإجازة..

ـ بصراحة هو يقول اللي مثلك ما يصلح تشتغل ولا تطلع من البيت إلا على بيت زوجها وإلا هذي سواه في أخوك تبلغين عليه الشرطة عاد من زينك إنت..

ـ نادية.. ممكن تقفلين السماعة لو سمحتي ما أبغى أسمع أكثر..

أفلت السماعة من يدي وأنظر إلى كل شيء حولي بانشداه كامل هل أحلم؟! أسوأ كابوس من أحلامي لم يكن ليأتي هكذا.. بعد كل هذا الجهد وهذه السنين يكتشف

خالي بأنني لا أصلح للعمل.. ولا لشيء.. سوى الزواج بعد كل هذه الأحلام.. والطموحات والاجتهاد.. يكسر خالي حلمي في داخلي بكل برود.. هل أستطيع أن أمنعه.؟! هل أستطيع إيقاف ظلمه حتى لا يطال مستقبلي؟! هل أستطيع أن أقول لا؟! قولاً وعملاً.. لا أبداً لا أستطيع.. لا أستطيع أن أدفع ظلم رجل عني حتى ولو كان مَنْ بمثابة أبي.. لأنه لا أحد يسمع صوتي.. ولأنني ينبغي أن أعيش بظله بقية عمري.. لا يوجد جهة رسمية أوجه لها شكواي فهو ولي أمري والأدرى بمصلحتي؟! هل يصلح أن أعيش كما أريد؟! هل يصلح أن أحلم بالمستقبل؟! لا.. ما كان ينبغي لي أن أسترسل في طموحاتي.. ما كان ينبغي أن أفتح عينيّ أكثر.. ما كان ينبغي أن أمشي واستمر في المشي وأنا المقعدة.. ما كان ينبغي أن أسيء إلى قيود وتعليمات السجَّان وأنا السجينة!! للمرة المائة وربما أكثر تشارك حواء في صناعة سجنها تشارك في صناعة الرجل الذي يستعبدها ها هي نادية تؤيد والدها في كل ما يفعل وتذوب والدتها وأمي في كل أوامره فلا يخالفونها قيد أنملة.. ها هي المرأة الجاهلة والتابعة والعمياء تشارك في تاريخ استغلالها والتنكيل بها وتضييع حقوقها وتهميشها وتعميق الاعتقاد بعدم أهليتها لإدارة أمورها واستقلالها. ماذا أفعل.. غير أن أبكي وبعد أن أملّ البكاء.. أعود فأبكي.. لا أحد حولي ليسمع شكاتي.. مجرد يتيمة تعيسة تحاول عبثاً أن تعيش عزيزة النفس مرفوعة الرأس هيهات أجمع رباطة جأشي

وأتوجّه إلى المكان الذي يحلو لي فيه البكاء بلا خوف ولا ملامة.. أبكي كالأطفال أرفس بقدمي في الأرض بعيداً عن كل عين يمكن أن يطالني منها شماتة.. في سطح منزلنا وفي زاوية حفظت مكاناً لجسمي الغض النحيل.. أبكي فأشعر بها تضمني في أحضانها وأشكو لها حالي وأرجو منها أن تقوم بأي شيء من أجلي..!!! لا أدري لماذا لم أفكر مجرد تفكير في الشكوى لأمي إنها حتى لم تضمني في حياتها، يكفيها التفكير في حياتها بلا رجل ولا حتى «حيطة».. إنه جدي ليس عندي سواه.. ربما فعل شيئاً من أجلي.. حتى لو جاملني ببضع كلمات.. سأذهب إليه.. لكنني كنت عنده في الصباح.. أنا ما فتئت أبدأ الخوف من مشاعر الحب.. حتى تملكني الخوف على مستقبلي وحلمي الكبير.. ايه يا وطني.. هل تعلم ما يجري لي وتصمت!! إيه يا من أنا وكل قطرة من دمي فداءً لك.. هل تسمع صوت بكائي وانتحابي هل تشعر بي.. هل تستطيع مواساتي.. إن صوتي صغير قزم بمثل قزامتي ربما لن يصل إليك قبل أن ينتهي.. وطريقي طويل وعر ومليء بالأشواك والكدر.. لن أصل إلى نهايته قبل أن تدمى قدماي.. وتخر قواي.. وينتهي أملي..

تذكرت.. «مرام» ربما بإمكانها مساعدتي سأتحدث إليها حالاً..

ـ ألو السلام عليكم.. كيفك مرام؟!

ـ ماني مصدقة أخيراً تواضعتي وكلمتيني.. الحمد لله جينا على بالك..

ـ والله ماني عارفة وش أقول يا مرام.. أنا واقعة في مشكلة كبيرة وأتوقع رح ألقى عندك حل إن شاء الله.

ـ خير حبيبتي وش فيه صوتك أمك فيها شيء؟!

ـ أنا اللي فيني شيء «يا مرام» صاير عندي مشاكل في البيت وأختي تعبانة من الكلى والاختبارات ما عاد عليها إلا أسبوع وأنا ما عدت أقدر أداوم بالكلية.. مقدر أوضح لك كثير لكن أبغاك لو تقدري تروحي كلية التربية في أبها وتقدمي لي على تأجيل السنة عشان ما أخسر مرتبة الشرف أكيد إنك عارفة الإجراءات إنت خريجة مثلي تقدرين؟!

ـ بكل سرور يا سوسو.. أأمري بس متى أروح.. لأنني ممكن أسافر السبت أنا وفيصل عشان دوامه..

ـ ما تقدري تحاولي عشاني صدقيني مارح أنسى لك هذي الخدمة أبداً.

ـ خلاص أكلمك بعد خمس دقائق أكلم فيصل يمكن قد حجز..

ـ بعد دقائق معدودة تعاود الاتصال والموافقة التامة..

ـ مشكورة يا مرام أنا رح أرسل لك الأوراق اللي رح يطلبوها منك مع نادية ورح أغلفها عشان ما تعرف وأنا بأقول لها إنك وحدة من زميلاتي في القاعة عالعموم إحنا رح نكون على اتصال..

لحظة يغضب فيها رجل أي رجل يتحطم حلم أنثى أي أنثى!! تتهشم الحكايات والأحلام والوجوه الجميلة تتكئ على أعتاب الزمن الراحل وبقايا الذكريات وتشيخ بعينيها الصور الجميلة ويعلو محياها الهم، تقتات من الزفرات والأنين وتسطر أمنياتها على السحب.. كل ليلة.. ولحظة يرضى فيها رجل أي رجل، يلتئم جرح أنثى أي أنثى!! تعاود البناء من جديد بكل أمل وتفاؤل.. تختط من الفرح قصائدها وتشيع في العالم بهجة من حولها تتفتح كزهرة الربيع وتوشك أن تغادر أسقامها والألم.. وعلى حين غرة من الزمن يعاود ذلك السيد غضبته فتتحطم تلك الأنثى مرة أخرى وثالثة ورابعة لكنها أبداً لا تمل.. كم هي عصامية وقوية وحازمة ومثابرة.. كم هي سعودية!!

تتكرر المكالمات بيني وبين «مرام» حتى أخبرها بكل أسراري وبحالي وتساعدني وتقف إلى جانبي كأخت لم تلدها أمي وتعمل كل ما بوسعها لمساعدتي.

كان يوم الجمعة الذي يسبق اختبارات نهاية العام «وهناء» يعاودها الألم والتعب من جديد وأنا أتنقل خلفها من مكان لآخر، كم عليك أن تتحملي من الألم دون أن يلتفت إليك أحد، لم أكن أعلم أن في داخلك كل هذا الصبر إلا بعد أن رأيتك.. يعتصر قلبي عليك وزهرتك تذبل وتتوارى خلف أرتال من الآهات.. ينحت العجز نقوشه الكئيبة على وجهك فلا أرى سوى عجوزٍ في العشرين أبكي

معها همي وهمها.. والقصة أننا بلا رجال.. غُصة نتوارثها كالعميان.. لا نريد أن نبصر سواها نتعاهدها من النسيان.. نرددها مع كل آهة.. حتى الجدران التي حولنا ملّت من تكرارنا لمآسينا وعودتنا إلى نفس المكان والدوران اللانهائي فتهشمت وتآكلت لكأنها تحاول أن تطير.. وتعتق الحيرى في داخلها.. أكاد أشعر أنها بدأت في ذلك.. أتذكر خالي عندما أصابته الأنفلونزا كان يذهب إلى المستشفى كل يوم لأنه باختصار لا يريد أن يشعر بالألم ولو للحظة واحدة.. وأخي سعيد كان لا يفارق المستشفى عندما التهبت لديه اللوزتان.. لا يريدون الألم لأنهم بشر لأنهم يشعرون لأنهم حساسون ولو حتى للحظات.. لكن غيرهم.. يتجرع من الألم الساعات الطوال حتى يتنازل أحدهم ويحملها معه في سيارته ويطفئ ليل أنينها الذي طال حتى أخرسها الألم وتعلّمت الصبر.. وأصبحت تترقب الموت من كل نافذة.. وتعدّ له عدته!!

تخرج أمي من المستشفى ليلة السبت دخولها إلى البيت كان صامتاً وعادياً.. وكأنها كانت فيه بالأمس أشتاق إليها كثيراً كثيراً وأبتعد عنها أكثر.. إنها حتى لا تتحدث عن موضوع الكلية حتى لا أواجهها باللوم فهي عاجزة أن تقف في وجه أخيها الذي يصغرها بسنين لأنه الآمر والناهي من بعد «سعيد». آه يا أمي كم أنتِ ضعيفة وكم أكره هذا الضعف والعجز وكم أريد الهروب منك إليك وكم أتمنى أن

أضمّك إلى صدري وأن أقسو عليك في ذات اللحظة.. لماذا تسلميننا جميعاً لمزاج أخيك لماذا وأنت تعلمين بتفوقي وحبي للدراسة.. لماذا توقعين دائماً على نهايات أحلامي.. بإطراقك وصمتك الغبي.. لماذا؟! لا أريد أن أرى ذلك الخنوع والاستسلام في وجهها، أهرع إلى غرفتي وأقفل الباب وأشرع في رسم إحدى لوحاتي.. سأرسم أمي وخالي.. سأرسم حالي سأرسم حلمي.. سأرسم ألمي.. أحب المدرسة السيريالية وأحاول إتقانها والقراءة عنها ومتابعة آخر أعمال فنانينها العالميين رغم أني أعلم بما لا يقبل مجالاً للشك ولا حتى التفاؤل أن لوحاتي لن تبارح مكانها، وأن الغبار سيعزف عليها أنشز الأنغام قبل أن يراها سوى الدود..!!

مكالمة هاتفية من صديقتي «تهاني» تقطع علي سيل الألوان والزحام العبثي لإتقان لون الوجه..الذي سيطردني خالي بهِ من الدين تحت ذريعة تحريم رسم ذوات الأرواح وكأن ثمَّةَ أرواح!!

ـ هاي سوسو.. إنتِ أول وحدة اختارها عشان أعمم عليكم قراري النهائي غير القابل للنقض بكرة ألبسي أحمر نبغى نكون شلة مميزة ونكون أحلى خريجات.

ـ غصة لا أستطيع مقاومتها.. آه.. أحمر.. أكيد رح ألبس أحمر بس..

ـ بس أيش..؟!

ـ ولا شيء أنا مستعجلة وعندي شغل رح ألبس أحمر بغيتي شيء ثاني.

ـ لا بس الله في شريط «الأماكن» عشان تكون أحلى ذكرى.. كل ما سمعناها نتذكر بعض.

ـ خلاص من عيوني أي طلبات ثانية.

ـ لا.. خلاص روحي أنا بأكلم أمل والبقية..

أية حفلة تلك التي سأذهب إليها وأنا المحكوم علي بالسجن والإضراب عن كل أنواع الحياة حتى ترسل لي رياح الزمن بأحدهم ليتزوجني؟! كنت أعلم بأنني سألبس الأحمر ليس ابتهاجاً بلونه الصارخ وتعبيره المميز لكنني سألبسه لأنني دماء.. دماء من الحلم.. دماء من الأنين والآهات، نزيف يلبسني دون أن أملك حتى قرار إبعاده عني.. سألبسه «يا تهاني» لكن هنا لوحدي.. هنا في لحدي.. هنا سأقتسمه أنا والجدران والقصائد واللوحات والدموع.. سأرتدي لبس الفرح.. والألم. . . وسأرقص على دمائي.. وسأسمع «الأماكن».. لأنها لن تشتاق إلي أبداً فأنا لم ولن أفارقها.. ولن تعرف في حياتها جسداً أوفى مني.. هنا لوحدي سأحيي حفلتي بالآهات والحُداء الباكي.. سأوقد شمعة وحيدة وسأطفئها عندما تغلبني دموعي وتغسل كحل عيوني.. سأفعل ما بوسعي «يا تهاني» لتكون حفلة تليق

بحجم الألم.. تليق بحجم الاحتراق.. لن آلو جهداً يا صديقتي لأحرق كل شيء.. وأبكي كل شيء.. لن آلو جهداً في توزيع الطعنات حتى لا تجتمع على مكان واحد من جسدي المرهق المنهك.. المغترب.. الحليم.. الذي أبى أن ينتهي.. يتقوقع في داخل فقاعات الوهم كل ذات فتنة ويهيم على وجه الليالي حلماً من سراب تطفئه نفحات الفجر فلا يفتأ يعيد سرابيَّاته لليلة أخرى!.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً وصديقتي «حنين» ترسل لي رسالة من إيميلها إلى جهاز الجوال إنها تطلب مني الاتصال بها على MSN هل هو الوقت المناسب لأتحدث مع صديقتي التي لم تمض سوى شهرين في بريطانيا برفقة زوجها المبتعث، لقد تزوجته في غضون أسبوع واحد فقط ما بين خطوبتها وزواجها وهي ابنة خالته وذلك ليس لها في شيء ولكن «عشان يحصنون الولد» مثلما قالت والدته عند خطبتها، لم ينتظروا منها جواباً ولا حتى رفضاً لأن المسألة عندهم كانت منتهية فابنهم سيذهب إلى بلاد يخافون فيها عليه من الغواية وهي ابنة خالته وليس لها أن ترفض لأنها بجانب الغاية السامية لأجل ابنهم لا تساوي هي وكل مشاعرها وجيش الإنسانية في داخلها شيئاً، لأنها في النهاية مجرد امرأة.. مجرد جسد يقضي فيه ذلك الواعد المبتعث الذي سيعود ذات يوم بشهادته لتزف له التهاني من كل صوب.. يقضي فيه نزواته

وكل ما يريد.. وتنسى شهادتها وتعليمها وهل ستكون أفضل حالاً إذ هي يجب أن تبتهج وهي تسافر إلى تلك البلاد ولو برتبة «فراش» فقط!!..فهو حتى لم يكلف نفسه الاتصال بها خلال أسرع أسبوع خطوبة في العالم، فهي في النهاية لن تكون سوى لزمة من لوازم السفر والبعثة!! هذا ما كانت تشكوه لي وتخافه وتوصيني أن لا أنساها في بلاد الغربة لذلك وجدت أن دخولي إلى المسينجر ومحادثتها أفضل وسيلة لنسيان أزمتي التي لما تنته بعد!!

أدلف إلى غرفة سعيد التي هي عالم آخر في منزلنا المتواضع، هاتف مستقل ومحمول وكمبيوتر آخر وفضائيات لا تكاد تعرف هوية ساكن الغرفة لأن معظمها كانت أوروبية ولاتينية.. لست أدري كيف يجرؤ على النظر إلى هذه القنوات التي حتى أصحابها يأنفون نسبتها إلى أنفسهم!! دقائق «وحنين» معي على نفس الحال.. غريبة جسد مع غريبة الروح هل نشبه بعضنا؟!

ـ حنين بأكلمك في المايك أحسن.

ـ هلا سوسو.. والله لك وحشة.. كلكم وحشتوني فوق غربتي طول الوقت جالسة بروحي في هذي الشقة ما أشوف أحد ولا أسمع أحد.. وتالي الليل يجي تعبان بس يبي ينام.. ونفسيتي صارت مرة صعبة.. أحس ماني قادرة أواصل..

ـ قولي خير يا بنت أنتِ في بلاد «الألف حلّ».. والوعي.. عاد قولي لي كيف الزواج؟!

ـ الزواج.. ههه.. ضحكتيني.. أقول كيفك إنتِ؟!

ـ أنا الحمد لله أقاوم الدنيا وهي تقاومني بس صابرين.. بالله كيف الزواج؟

ـ يا سوسو صدقيني ما أعرفه إذا عرفتيه علميني عشان يكون عندي فكرة عنه أنا من أول ما جيت هنه قال لي لا تفشليني من زملائي بعباتك والحشمة الزايدة ولا تقولي لحد إنك سعودية إذا حد سألك قولي أنا لبنانية..

ـ واو.. وملامحك السعودية البحتة..

ـ عاد.. لازم أسمع كلامه يقول إن سمعة السعوديين سيئة ولازم أكون لبنانية في نظر الجميع عشان أكبر في عيونهم..

ـ هذا شاك في كل شيء ابتداءً من ذاته وليس انتهاءً بدينه وقيمه إذا كانت العباية تفشل ليش هنه يعتبرها شيء رئيسي ويمكن ينزل في الشارع ويضربك لو ما لبستيها وإلا الرب اللي في لندن غير اللي في الرياض؟!

ـ تصوري حتى ما يخرج معي ولا يطلعني مكان إذا احتجت شيء قال انزلي لوحدك! وأنا ما عندي من الإنجليزية غير Donkey..! إلا وش معناها؟!!

ـ اسم الدلع لزوجك؟!

ـ والله الغربة صعبة.. ومع الوقت اكتشفت أن الحرية

اللي ندور عليها ما رح نلقاها حتى في أنجح الديمقراطيات بالعالم إذا ما حرّرنا ذاتنا في البداية.. إحنا عبيد أنفسنا يا سحر.. كنت أفتكر إني لما ما ألبس العباية وأحط الماكياج وأمشي في الشوارع لوحدي.. وأسوق السيارة واشتري أغراضي بنفسي إني رح أحس بالحرية.. كنت واهمة.. واهمة كثير.

ـ إحساسك بالحرية من خلعك لعبايتك سببه الإحساس اللي متركز في لاوعيك بأنها وحدة من القيود اللي فرضت عليك وما اخترتيها كثير منا يحس بهذا الإحساس لأن التربية من أساسها غلط..

ـ اكتشفت كمان أني ما أكنّ لهذا الشخص اللي يقتسم معاي سريري ولا مشاعر.. لا أكرهه ولا حتى أحبه.. غريب ومزاجي.. ولا يجمعني معه ولا قاسم مشترك.. الله يا سوسو مع إنه ولد خالتي إلا إني ما أعرفه ولا عمري شفته غير يوم الزواج ما أعرف عنه شيء نهائياً!!

أحس إني بالنسبة له مجرد مجاملة وشيء يراضي فيه أهله وما يخسر بعثته..

ـ ليه وافقتي عليه طيب؟!

ـ قصدك ليه ما قدرت أفتح فمي بكلمة أسبوع كامل.. وأول ما دخل عليّ الغرفة قال أنا بأقولها لك من الآخر.. أنا ما أحب الحرمة اللي تدلع.. ولا اللي تثرثر.. وما أحب وجع الرأس أنا إنسان عملي..

ـ ولا يهمك يا حنين أنا معاك بقلبي ورح أدعي لك بس في زخم الماديات عندك لا تنسي صلاتك تراها سرّ حياة الروح..

ـ الله لو تدري إنه حتى ما يصلي.. ويشرب الويسكي.. ويسوي كل اللي يبغاه كأنه طفل.. والله اشتقت لأبها.. اشتقت لترابها وأهلها.. اشتقت لغبائي.. وإحساسي بالقيود لأني لابسة عباية!! اشتقت لأمي.. اشتقت لنفسي!! أصعب إحساس في الحياة إنك تحس إنك موجود عشان غيرك.. ولا لك أي أهمية ولا استقلال..

ـ طيب حنين التحقي بأي معهد للغة إنت ما رح تجلسي سنة وترجعي هذي خمس سنوات لازم تطلعين من فشلك بنجاح.. ولو واحد على الأقل.

ـ بحاول أفاتحه في الموضوع وعلى الله.. المهم إنتِ لا تقطعيني واصليني بأخبارك لو بس بالبريد مو لازم تتصلي..

ـ أكيد يا حنين أنا رح أحاول باللي أقدر تعرفين كل شيء في حياتنا مرهون بغيرنا.. تأكدي إن الشمس مكانها في أعماقنا حتى لو توهمناها في كل شيء حولنا.. لا إله إلا الله.

ـ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هل قلت إن حنين تشبهني!!! شتان بين الغربتين..! إن غربتي أشد ألماً وأكثر حنيناً يا حنين.. إنها غربة من نوع

فريد.. نوع استحدثه نمط الحياة وعادات الناس.. نوع أدى إلى نشوئه ذلك الفصل الرهيب بين الفعل والفاعل، بين المبدأ والتطبيق، سنين من العزل والتغريب والتهم والخوف المفتعل على تلك الجوهرة المكنونة إلى أن أصبحت مع السنين أسطورة لا يفهمها حتى زوجها!! إن غربتي يا حنين ليست لأنني لا تجري في عروقي الدماء السعودية فأنا سعودية أباً عن جد.. لكن لأنني أشعر أن جدتي أكثر فاعلية مني.. وأكثر قدرة مني على إبراز مواطنتها، لقد دفنوني يا حنين خلف الإسمنت!.. وعلى مقاعد الدراسة! لقد قبروني بطريقة حضارية جداً.. من حيث أعتقد أنني أستطيع أن أتنفس.. أن أفعل شيئاً حتى إذا عزمت عليه وجدت أمامي ألف باب موصد باسم سد الذرائع!!

لقد ضّيقوا واسعاً يا حنين.. فاغتربت هنا بين أهلي أكثر منك ولم أستطع التعبير عن ذلك.. استغرب كثيراً عندما أسأل العجوز التي لا أراها إلا كل عيد جدة «سعدى» عندما تخبرني أنها كانت تعمل لحسابها الخاص وتتاجر في السمن والعسل.. تحمل الجرة على رأسها وتذهب بها سيراً على الأقدام أو على الحمار إلى سوق السبت لتبيعه بنفسها!! بنفس المشقة وبنفس الطريقة!! هل كانت جدة سعدى ذات سمعة سيئة مثلاً.. لا وألف لا.. فأبناؤها الآن أفضل رجال القرية.. وأكثرهم مع الأسف الشديد تشدداً.. إنهم لا يسمحون لها الآن أن تخرج بلا عباءة وغطاء للوجه وهي من القواعد من النساء!! هل كان

الوقت طويلاً ومستحيلاً بين شباب جدة سعدى وبين شيخوختها.. من الذي بدّل الأدوار ووضع الأسوار؟!.. من الذي أحالنا إلى أرتال من اللحم والملامة؟!.. من الذي ألغانا واستعبدنا من بعد عز وسؤدد؟! من الذي ألجمنا بعد أن كنا ذات صباح نساوم في سعر سلعة لم يعجبنا سعرها؟!..

إيه يا حنين هل علمت الآن كيف أن غربتك المحسوسة لا تقارن أبداً بغربتي المعنوية التي إلى هذه الساعة لا أستطيع التعبير عنها ولا الصبر عليها.. معجز حالي.. وعاجز عقلي وإرادتي عن فعل شيء فأنا مجرد صوت في الزحام.. صوت لا يسمعه أحد.. وإن حصل فلن أجد سوى رجع الصدى.. أطلقي العنان للتعبير عن غربتك يا حنين أما أنا فإلى أن أستطيع فهمها أولاً.. إلى أن يعترف بها أحدهم.. إلى أن يُقام لها جمعية تحمل اسم «المغتربات السعوديات عنوانها «من قتل المرأة؟!» عندها أعدك أن أكون أول المساهمات في عضويتها.. وأن أكون أول من يصفق لها وأول من يباركها؟! إلى ذلك الحين سأواسيك في غربتك واعترف بها. هل أقول بأن غربتنا! انتقلت معك حتى إلى لندن.. هل أقول إنهم يستطيعون صناعة نفس الصندوق والتفكير في داخله حتى في لندن.. هل أقول بأنك لو غيرتي كل جزء من جسمك ولم تعد ملامحك تُعرف ستبقين تلك المغتربة المتعبة التي تبحث عن ذاتها في بقايا رجل..؟! هل أقول بأنك ستعودين بخفي حنين.. وأننا رغم

كل هذه الفلاشات والصور.. واللقاءات والفرقعات والمظاهر.. والمديح.. والاعترافات مازلنا في داخل الصندوق؟! وأن نصف المجتمع كما يحلو لهم تسميته مازال يموت وهو واقف يبتسم بكل بلاهة!!

لست أدري.. وأتمنى أن أكون واهمة.. متشائمة.. لكن شيئاً من ذلك لا يكون.

السبت بعد صلاة العصر كنت أنتظر على أحرّ من الجمر ما فعلته مرام في الكلية وهل تركتها نادية في حالها بدون أن تحشر أنفاسها في كل صغيرة وكبيرة، وقبل أن أتمّ صلاتي كان الباب يطرق بقوة.. أمل تتجه إلى الباب في الواقع إنه هوايتها المفضلة ربما لاستعجالها فتح باب الموت ربما!!

ـ مين؟!

ـ حاتم: جبت الأكياس اللي طلبتها سحر؟!

ـ أي أكياس.. أدخل.. هي في غرفتها تصلي..

حاتم الصغير ذو السبعة أعوام يسلمني أكواماً من الهدايا جمعتها صديقاتي وسلموها لنادية ابنة خالي التي أنا متأكدة أنها قامت بتفتيش كل هدية منها، لا يهم فهي بالنهاية مجرد مجاملات لا تعني لي شيئاً كان ما يشغلني هو معرفة ردّها عن «مرام» لكن شيئاً من ذلك لم يكن..

أتأمل الهدايا دببة وألوان وعطور وكثير من النفاق وقليل

من الصدق، هدية سميرة جذبتني بالذات ففتحتها إنها عبارة عن صورة لها وهي ترتدي الثوب والشماغ الرجالي وتضع شارباً! اصطناعياً وكتبت في أسفلها «أحبك موت»!! لست أدري أي فتاة هذه الفتاة وما الذي تريده، قرأت رسالتها فكانت كلمات يستحي منها حتى الرجل المكتمل الرجولة أن يقولها لزوجته بعد الزواج بخمس سنوات ألغاز واستعارات جنسية بحتة.. وفي آخرها عرض للزواج.. أقصد للسحاق.. لكنه غير مباشر. . . أسأل نفسي كثيراً ما هو سبب ظهور هذه الحالات الشاذة بيننا ونحن الذين نوصف بالبيئة الدينية المحافظة فأعرف أن السبب هو نفس ما قلت.. إنها محافظة إلى درجة القمع والقمع لا يخلف إلا مزيداً من النفوس المتهورة والنفسيات الشائكة، إنه العزل الرهيب المتزمت الطويل بين المرأة والرجل فاستعاضت بعض الفتيات بأنفسهن ليكن شباب المرحلة ورجالها وتبحث في قريناتها عن ذاتها.. هل أستطيع أن أقول إن حاجز الفصل العنصري هو السبب في ظهور سميرة وأمثالها عند الرجال المخنثين.. فيفهمني الجاهلون خطأ.. أنا لا أحرّض على الرذيلة ولا أدعو إلى الفساد، ولكن حالتنا وما وصل إليه الشباب هو أشد فساداً وأكثر ذبذبة وأغبن للقلب الطاهر والنفوس السليمة.. فتاة تعرض على فتاة مثلها الزواج!! وشاب يتبادله الشباب بينهم لأنه يشبه الممثلة والغانية الفلانية هل هي ردة اجتماعية!!
اللهم لا تجعلها كذلك اللهم سلم سلِّم..

جذبتني هدية فاخرة عبارة عن درع فخم كتب فيه اسمي بكل أناقة إنها جائزة الرسم فقد فزت بالجائزة إذاً.. على الأقل خرجت من موهبة الرسم بشيء في حياتي ولو كان تقديراً شكلياً فقط.. لكن «أمل تستوقفني بكل صرامة وعلامات الجد على وجهها».

ـ وش هذي الدبة كلها حرام؟!

ـ مين اللي حرمها؟!

ـ المشايخ يقولون إنها تشبه بالكفار.

ـ مشايخك اللي شماغه صناعة إنجليزية فاخرة صح؟!

ـ وش قصدك؟

ـ ولا شيء بس إذا قدرتي تحددين لي سبب الحرمة تعالي تكلمي معي بشكل منطقي أنا ما أحب الألغاز.

ـ بكفيك حطيها في غرفتك وتتحول إلى جن كثير من المشايخ يقولون إنها يتلبّس فيها الجان.

ـ هذا إذا كان الجان هذا يتلبس بالإنسان من أصله عشان يتلبس في دمية! نفس الطريقة الترويع والتلويح وكلنا رعاع.. مثلك يا أمل..

ـ وش معنى رعاع؟!

ـ يعني عوام.. يحكمهم تفكير نمطي وما يحبون الخروج عن النسق.

ـ وإذا كان الخروج معصية..

ـ قرري كونها معصية وأنا أعطيكِ رأسي!!

ـ نفسي أفهم ليش دائماً تشوفين نفسك على حق نفسي لو مرة وحدة تقولين كلامك صح؟!

ـ ونفسي لو مرة تقولين كلام ما هو كلام غيرك عشان أحس إنك بدأتِ تفكرين.. الفكرة الجاهزة والرتيبة ما تعجبني هذا خطئك.

اتصلت بي مرام وأخبرتني أنها قامت بكل الإجراءات اللازمة للتأجيل وطلبت مني دلالتها على موقع منزلنا لتسليمها لي بعد المغرب لأن ذلك كان أفضل ما تستطيعه قبل سفرها صباح الأحد..

كانت مرام تأخذ مني أوصاف منزلنا وأنا أغالب شعوراً بالخجل والفخر والذل والشوق كان كل شعور يمكن مروره على قلبي وقتها.. خجل من منظر منزلنا المتهالك مع كوننا نعيش وسط كل هذه البيوت الفارهة!! وفخر لأنني تمكنت من إنقاذ مستقبلي قبل أن يحكم عليه خالي بالإعدام والذل لأن سعيد لن يكون بانتظارهم، فالأخ الوحيد الذي خرجت به من الدنيا يقبع خلف القضبان في قضية أخلاقية!! والشوق لأنني سأتمكن من رؤية عيني فيصل الباذختين في البداوة مرة أخرى!!

نصف ساعة بعد صلاة المغرب وسيارة فيصل في فناء

المنزل، آه كم كان قلبي يخفق! إنه متمرد.. كم طلبت منه ألا يفعل فلست أنا من تحب لأنني لست ملك حتى لنفسي!! لكنه يصرّ على التشبث بكل بارقة «غزل» وانحناءة «هوى» ونفحة «فتنة»!

كانت مرام أكثر عجلة مما طلبت منها حتى لا يلاحظ خالي سيارتهم وهي تقبع في فنائنا فتقوم الدنيا ولا مجال لأن تقعد بعد هذه الجريمة.. ارتديت أفضل ملابسي وتأنقت ورششت كل جسدي بعطري المفضل أردت ألا يفوتني شيء في الاستمتاع بهذه الفرصة لاستراق لحظة من عناد الفرح لأنه لم يكن كثيراً في حياتي لم يكن كذلك أبداً.

ـ أهلاً مرام حياك الله الوالدة في غرفتها ما تقدر تستقبلك تعالي ندخل لها.

ـ الله يا سوسو ما قلتي لي إن بيتكم بعيد إلى هذه الدرجة كنا بنضيع!!

ـ متأكدة أحسن إن اللي قلبه دليله بالنهاية يوصل.

ـ هذا بالنسبة لفيصل وحده.

ـ أجل الحمد لله إنه هو اللي يسوق.

ندخل إلى غرفة أمي للسلام عليها بعد أن أوهمتها أن مرام لم تأت سوى للسلام عليها رغم أنها لم تصدقني لكنها لم تكن في حال يسمح لها بالأسئلة..

كانت لحظات فقط شعرت فيها أن الله بعث لي فيصل

لينتشلني من داخل الألم والقيد والعزلة.. أعطتني مرام وردة أخرى وورقة كانت أكبر حجماً من سابقتها حاولت جهدي ألا تلاحظها إيمان وأمل وطلبت منها الدخول إلى غرفتي لشكرها بشكل خاص..

ـ هذا إنتِ شايفة الحال أنا ما أحب أتجاهل وضعي الاجتماعي يعني شفتي الفرق بيني وبين أخوك زي المسافة بين الرياض والجنوب!!

ـ فيصل ما يفكر بهذي الطريقة ولا حتى أنا دائماً قيمة الفرد في رأسه «أنا أفكر إذاً أنا موجود» وإلا؟!

ـ عاد... أنا أحاول بقدر الإمكان أكون واضحة ورغم هذا كتبت ورقة لفيصل أتمنى توصل له شيء من اللي أبيه يوصله.

بعد خروج مرام أهرع إلى النافذة المطلة على الفناء لأتأمله وهو ينصرف، لقد خرج من سيارته وجلس على مقدمتها أشكر له تلك البساطة لأنها سمحت لي بذلك أن أراه كاملاً مرة أخرى، آه كم يخيفني شعوري تجاهك أيها الفيصل بيني وبين المستقبل.. لكني لا أستطيع.. أرجوك لا تتوغل في تضاريسي بكل هذه القوة والحزم.. أنت.. أنت.. أنت فيصل.. كانت هذه الكلمة ما نطقتها بصوت مرتفع الأمر الذي جعل إيمان وأمل تلاحظان ذلك بوضوح..

ـ اسمه فيصل..

ـ من هو؟! «أربع أعين باتجاهي تماماً تحمل ألف أصبع اتهام»

ـ أخو مرام.. سألتها عن اسمه.. تصدقون.. إعلامي.. هممم!!.. العرق يتصبب من وجهي..

ـ وش كان ما يكون عيب أنك تسألين عن اسمه يا وقحة!!» أمل:

ـ هذا اسمه.. مو موعد غرامي معه يا أمل..

ـ دائماً عندك ردّ.. الكلام معك مرض.

لم يكن لكلام «أمل» أية أهمية في ذلك الوقت لأنني كنت مشغولة بانصرافهم حتى أتمكن من قراءة الورقة التي أرسلها لي بعد أن خبأت الوردة تحت وسادتي فتحت الورقة وقرأت هذه الكلمات «يوشك الصمت أن يستحيل إلى صدمة، أعدك ألا أدعها تعبر وسأصرخ بأعلى صوتي» أحبك «حتى رغماً عنكِ!»

كم أثارت هذه الكلمة في داخلي من مشاعر.. ما أغرب الحياة وتقلباتها البارحة في نفسي هذه الساعات البكاء يعبر من كل اتجاه.. والأنين يعزف أوتاره على ليل انكساري.. وبعدها بيوم في نفس الساعة تبهرني هذه الكلمة المكونة من أربعة أحرف بقدرتها على استدلال الروعة من مكامن اليأس وتحيل الأرض حولي إلى زهور وخضرة ومروج وشلالات وعصافير كم هي ساحرة هذه الكلمة.. في

لحظات أستطاعت الدخول إلى مكان لا يدخله من قلبي إلا قليل من الكلمات.. وأنا أيضاً يا فيصل.. وأنا أيضاً أيها العنيد الذي ستفعلها حتى رغماً عني، لن أتحداك لأنني أنا أيضاً مهزومة أمامها.. وأنا أيضاً يا فيصل في داخلي مضغة تعترف بالأمل وتصفق للحياة وتمتلئ بالدماء الحية.. لكنني اختلف عنك في أنني أعيشها في داخل قبر من العادات والأعراف والحواجز والمسافات والعيون والرقابة والويل والثبور.. فاستكين لأول إطراقة وأستسلم لأول جندي!!

وهناك في سيارة فيصل كان يتوقف على جانب الرصيف ليتمكن من إعادة قراءة الورقة التي كتبتها له للمرة العاشرة بعد أن قرأها وهو يقود:

(أتَيتُك أحمِلُ زهرَ الموانِئ.. وأنظُمُ شعري بِكُلِّ ارتباك..فُؤادِي مَرساكَ والأُمنيات..وكُلّ التَّنَاهيدِ والأغنيات..وليلي وهمسُ الهوى والجروح.. لِلُقيَاكَ تُقنا وَسِرنا طَويلاً..أتَيتُك أحمِلُ في داخِلي.. حُقُولاً مِنَ الحُلمِ تَرجو سَمَاك..فَضُمَّ يَدَيَّ وَقَبِّل فُؤَادِي)

كانت تلك الليلة من أروع الليالي التي مرّت على قلبي المتعب، مازلت أمتن أن الزمن أعطاني فرصة استراحة.. تحدثت مع مرام طويلاً حتى تأكدت من وصولها إلى الرياض، وكانت كلما ابتعدت كلما شعرت بألم غريب ينغص عليّ جمال تلك الليلة.. فعلاً يكاد يكون الحب

سحراً حلال إنه يُنسيني ببساطة كل ذلك الحزن الذي استعمرني سنيناً طويلة.. لكن ما هي المفاجآت القادمة من وراء هذا الشعور؟؟ هل سيكون فيصل زوجي؟ أوه كم أشعر بالخوف ألا يكون لي من هذه المشاعر سوى مقاومتها ومصارعة الشوق.. كتبت في مذكراتي تلك الليلة..

ويذهب حلم ويعود.. مرتدياً وشاحاً من الإغراء بآخر.. تكاد لا تنتهي هذه الأحلام.. تتوسد الأمل فلا نملك سوى التوقيع على الموافقة لها بالمرور.. فقط تحققي أيتها الأحلام ولو سهواً»

نمت تلك الليلة كما لم أنم من قبلَّ احتضنت الوردة إلى صدري ونمت إلى جانبها.. كثير من التفاؤل.. وقليل من الأرق!

لكن الصباح كان مختلفاً جداً.. صباح لم أضعه في حساباتي، صباح مؤلم ومزعج.. تلقيت فيه الخبر كالصاعقة على مسامعي.. لم أكن أريد التصديق ولم أكن أريد أن تخذلني قواي ويُفتضح أمر مشاعري القوية تجاهه.. لكنني لم أملك نفسي لحظتها صرخت بأعلى صوت وبكيت بكل انتحاب ورددت اسمه كثيراً كثيراً، مشيت في كل اتجاه، وغسلت وجهي مراراً لكن الإحساس بفقدانه كان قوياً مؤلماً، فلما عرفته وأحببته وأنست إلى وجوده في حياتي حتى أخذته الأقدار مني.. لم أعي وقتها أن الجميع ينظر

إليّ باستهجان وتعجب فليس بعد الموت مُصيبة لقد مات مات إذاً.. ذهب إلى التراب.. إلى العالم الآخر.. لقد قتل.. لقد قتله السفاحون!!

هذيان طويل.. مؤرق مبكي ختامه: «لقد مات جدي»

تحفر صورته في داخلي رمزاً يستحثُّ خطاي على المواصلة.. رغم هذا الظلام الذي يتوعدني بالصمت سأصرُخ يا جدي!

الفصل التاسع

«هُنا قصَصتُ عمري!»

ـ إيمان: كل هذا البكاء تتعاطفين معاه؟!

ـ من قتله؟!

ـ حراميه سرقوا بيته يقولون لقوا عنده مية ألف.. خطير هذا المجنون عنده كل هذي الفلوس وملابسه دايماً مقطعة لو أنا كنت عمرت فيها بيت.

ـ إنتِ ايش ما عندك إحساس.. هذا كل اللي تفكرين فيه الفلوس.. يختي صدق اللي اختشوا ماتوا.. هذا إنسان تدرين وش معنى إنسان؟

ـ وإذا.. ما له أحد لا قريب ولا بعيد وحداني إذا مات ما حد بيسأل عنه تصدقين أشك إنك بس تتعاطفين معه.. لو اللي مات سعيد ما بكيتي عليه كذه!

ـ إنسان انغدر به وهو نايم ودافع عن نفسه وممتلكاته حتى بروحه جدير بالاحترام والبكاء روحي من قدامي أشوف.

ـ لا تخافين أبشرك الشرطة بعد الظهر مسكت اللي قتلوه ومعاهم الفلوس ما أمداهم يتهنون بها..

ـ من هم الأنجاس؟!

ـ يمنه.. يقولون خمسة أشخاص..

ـ الله يلعنهم.. أكرههم.. وأغرق في بحر من الدموع التي لا تملّ من معانقتها لعيوني.. كنت أبكي وأصرخ.. آه يا جدي كيف أعيش غداً بعد العصر من دونك؟ من يشرب الشاي معي؟ من يسليني ويقهر الهم والدنيا معي غيرك؟! آه يا جدي أين أنت الآن.؟! كيف سيعاملون جثمان مجنون في عرفهم.. غسلتك مياه الجنة يا جدي.... غسلتك الرحمة.. والإيمان.. غسلتك البركة والذكر والإحسان.. آه ماذا أنا بعدك؟ آه كيف أمشي من جانب بيتك المتواضع بعد اليوم.. لماذا يا جدي في هذا الوقت بالذات؟! لماذا تركتني أنت أيضاً؟! لماذا رحلت ولمّا تستلذ بوجودك الحنايا الملتاعة؟! لماذا يموت الطيبون؟! لماذا قتلوك يا جدي هل قاومتهم بسلاحك القديم؟! لم فعلت ليت الدنيا كلها تذهب وأنت تعود، ليت المال كله يحترق وأنت تبقى!.. لماذا يا جدي كلما اطمأن قلبي المُترع بالوحشة! انسلّت سيوف الدنيا وحركت الليل!! أين سأحتمي من معمعة العبودية والخنوع الطويل حتى أستطال معه السهر؟! آه يا جدي لَمَ تركتني أصارع الألم وأبكي على قلوب الطيبين كلما

اصطدمت بقلوب كالحجارة ترمي الورود بكل شرٍ فتحترق!.. لكنها حتماً ستُحرق عندما تكثر الورود المحترقة!! فكرت كثيراً في الخاتم الذي أوصاني عليه جدي لقد وضعه في تلك الصرة البيضاء المتسخة وقال لي «إنه لي» عندما يباغته القدر.. هل سرقه السفاحون هو أيضاً.. إنه من الحديد!! لكن من يقبل لا يأبه إن كان بعدها سيقتل حتى الذكريات والليالي المنقطعة بسهام الشوق.. أعرف أن كل من حولي مازال يرمقني بنظرات الريبة وهل بكائي تعاطف أم حكاية طويلة عمرها سنوات من الأنس بقربه وحنانه وتجاربه ووصاياه.. إذاً سأذهب إلى بيت جدي وليكن ما يكن فهنا فقط تستطيع المرأة أن ترتكب أفظع الجرائم ولن يدري عنها أحد إنه لا بصمات ولا صورة ولا بطاقة لها لذلك لن يدري بي أحد، سأستخدم المفتاح الذي أعطانيه جدي وأذهب لأخذ الخاتم وملابس جدي.. فلن يعلم عني أحد سأنتظر حتى يقترب غروب الشمس وأذهب لأخذ الأمانة التي أوصاني عليها جدي.. كانت مرام تواصل الاتصال على هاتفي وأنا لا أستطيع الرد عليها لأن البكاء غلبني بشدة، لم أكن أريد أن تلاحظ عليّ ذلك لذلك تركتها تتصل المرة تلو المرة كنت فقط أتخيل حياتي في غياب جدي لقد كان بمثابة حلقة الوصل بيني وبين العالم الخارجي، إنه مثل الزائر الذي يزور سجيناً كل أسبوع.. كان يحضر لي كل ما أطلبه منه ويعطيني النقود عندما أحتاج

إليها، أذكر أنه هو من أحضر لي آخر شامبو لغسيل الشعر.. كان لا يترك في داخلي زفرة ألم إلا بعد أن يقوم بكل ما يستطيعه من مساعدة حتى لو كانت دمعة صادقة من عينه السليمة.. أشعر برغبة في الصراخ.. أريد ألا تقف بي خطواتي إلا أمام أولئك المتسللين العقارب السفاحين الذين قتلوا «جار الله» فأغرس أصابعي في رقابهم وأطلق لروحي المتعبة العنان في الاستمتاع بصوت الألم في حناجرهم.. آه كم أنتم ظالمين!.. كيف قتلتموه؟!.. لماذا هان عليكم؟! ألأنه مجنون؟! إن لم تهمكم حياته فهو كل حياتي.. آه كم أتمنى أن أراكم تتعذبون وتشعرون بالخوف والموت يطاردكم والسيّاف يرفع سيفه على رقابكم أيها المفسدون..

أتوارى عن الأعين خوفاً من الملامة والمراقبة، أصعد إلى سطح المنزل حيث مكاني الذي اعتاد على دموعي، لن يسألني عنها لأنه ملّ السؤال ولن يلوم عليّ كثرتها لأنه لو عاشها لبكى!!

بعد أدائي لصلاة العصر.. اتجه إلى بيت جدي أرقب خطواتي وأتحسس نبضاتي المتسارعة وأمسح دموعي وأغالب جيشاً من الحزن يجثم على صدري، كانت تمطر.. ترى هل تعزيني السماء في فقد جدي!! تغسل السماء دموعي فأبكي أكثر.. هل تبكي السماء على موت الطيبين؟! آه أيها الطين كم ابتعدت عن أصلك فاستعمرتك القسوة حتى غدوت في لحظة شيطانية تقتل شيخاً هرماً بدم بارد!!

آه أيها الطين كم غافلتك الدنيا فاستحوذ اليباس على نداك فما عادت تردعك النظرة المكسورة في عين ذلك الوحيد عن اغتيال أنفاسه وتذوق دمائه.. ايه أيتها السماء أبكي على جدي مرة وأبكي على الحجارة القلوب مرات علّها تسمع، عّلها تعود! علها تستغفر.. كان لي من الرجال جدي فمات.. قتلته القسوة والمادة، يا سماء أمطري على قلبي علّه يلين.. أمطري على عزمي علّه يغدو شامخاً رغم أخيلة اليأس وجحافل الإسمنت. . . أمطري على الإنسان في أعماقي ليقول في ذات سكينة «إنّا لله وإنا إليه راجعون» لله ما أعطى ولله ما أخذ..

أدخل إلى بيت جدي بعد أن أثارني منظر الدماء على التراب إنها مازالت رطبة رطوبة قلب صاحبها، سائلة كما يسيل في أعماقي مملكة للإنسانية ومعيناً للزمن الراحل والذكريات العذبة.. فتشت في ملابسه عن الصرة فلم أجدها بحثت في كل مكان ولم أجدها أيضاً.

عندما يئست وهممت بالخروج جلست بيأس في فناء منزله أرقب الذكريات الطويلة والأنس الذي احتال إلى وحشة أكاد أسمع صوته العذب ينساب إلى قلبي كما الشهد، أتأمل كل ركن وكل مكان وفجأة.. أجد الخاتم وقد أخرجوه من صرته وهو مرمي على الأرض ربما بعد أن تأكدوا أنه من الحديد ولا فائدة فيه لكنه بالنسبة لي كان كل شيء بقي لي من جار الله المجنون «العاشق الذي استسلم

لرياح الحب فعصفت به ووأدت قلبه، أخذته وعدت مستعجلة إلى البيت كي لا يراني أحد.

يكاد الحزن أن يعزلني عن الإحساس بما حولي، البارحة فقط كنت عاشقة الزمان وأميرة المكان واليوم نسيت قوة تلك المشاعر أمام طوفان فجيعتي بجدي الذي واروه التراب بعد صلاة العصر.. نسيت فيصل ونسيت حلمي الذي قتله خالي بعد أن شارف على الاكتمال، نسيت أمي المرهقة التي تغالب تعبها وقلة حيلتها وتصر على رفع رجلها إلى المغسلة عند الوضوء!! نسيت كل ذلك وأنا أتجرع طعم فراق جدي مراً طيلة أسبوع كان كفيلاً بإنقاص وزني إلى النصف وجفاف عيني من كثرة الدموع، كنت أرفض خلالها الحديث مع أي كان.

لكن الأخبار القادمة من السجن كفيلة بالاستماع.. سعيد يطلب محادثة أمي ويطلب منها عدم زيارته لأنه لن يستقبل أحداً، كان كلامه يحمل الكثير من التهديد لكنني متأكدة أن ذلك تأثير نزوح السم من جسمه فهي مرحلة من أصعب المراحل التي يمرّ بها مدمن الكحول لذلك لم أعر كلامه اهتماماً شديداً وعدت إلى عزلتي.. كنت خلال هذا الأسبوع أتواصل مع حنين ومرام بالرسائل القصيرة دون أن أتحدث معها أشعر أن الحزن كالحمى تغشاك بقوة ثم تبدأ في التلاشي كلما اغتسلت!!

اذكر أنني خصصت دعوة في كل صلاة أدعو فيها بالمغفرة لجدي الذي مات قبل أن يلتقي بحبيبته الهاربة.. كم أتمنى أن أجدها لأعطيها الأمانة التي تركها لها.. وأغني لها القصائد الطويلة التي نظمها لها. كان يوم الجمعة مليئاً بالاستعدادات للامتحانات النهائية في ما سواي كنت خارج الزمن حتى أجلٍ غير مُسمى.. لست أدري كيف يسمح لابنته بالمذاكرة ومواصلة مشوارها التعليمي ويحرمني أنا!! وبأي حق.. شعور مرير بالحسرة يكسر قلبي المكسور أصلاً وأنا أشاهدهم يتجهون إلى امتحاناتهم وأنا لا؟! كانت هناء مثلي تحضر امتحاناً وآخر لا تستطيع الذهاب إليه بسبب نوبات الألم التي تعتادها من كليتيها المتعبتين.. أجد فيها بعض العزاء.. وكان فيصل دائم السؤال عني. وعدتني مرام بعد انتهاء اختبارات الفصل الثاني بأنهم سيحضرون جميعاً لخطبتي من خالي، لا أدري لماذا لم يحرك ذلك العرض في داخلي سوى عاصفة من التشاؤم والخوف الذي يقيّد كل أطفال الفرح في داخلي فلا أملك سوى الصمت ألف مرة..

في هذه الأثناء وفي هذه الأوضاع المتأزمة معها ومع تهديدات سعيد ربما يكون فيصل جزءاً من الخيال لذلك لم أعلّق على كلامها وجعلتها تتوهم أن سكوتي رضاي في حين كان سكوتي صدمتي من الزمن والأشخاص، أتساءل هل سيأتي علي يوم أقول فيه «لا» بملء إرادتي لأي شيء لا تقبله نفسي ولا أرضاه لمجرد عدم الرضاء أم إنه منذ أن

كُتب اسمي أنثى في بطاقة أحوال لأب سعودي قبليّ فقد رُسمت حياتي ولا مناص عن عيشها كما رسمت بالضبط لأن أي خروج هو اعتداء على سيادة القانون العرفي المقدس!! لست أدري هل سأختار حتى اسم ابني في المستقبل.. كل اختيارات الحياة بأيديهم!! الرجال هم من يحدّدون متى نفرح ومتى نبكي فيحفر الدمع في وجوهنا الأخاديد ويقولون إننا جواهر محترمة وإننا نُعامل حسب ما جاء به الدين!! يا لهذا الدين.. لم يدخل أحد أولئك المتشدقون إلى كل بيت ليجد أن حتى طريقتي في اللبس محكومة بمزاج رجل ما.. حتى وإن كنت أبعد الناس عنه قرابة فما بالك عندما يكون سيدي؟!.

أنا «أمَة» أقسم بالله أنني أمةٌ مُستعبدة ضعيفة مسكينة مرغمة على اختياراتي، مرغمة حتى على تذوق ما أراده لي من الطعام من قال إنني حاصلة على جُل حقوقي وأنا التي مازلت أعاني دقائق الانتظار أمام سعيد عندما أقدم له كأساً من الماء لينثر البقية من الماء في وجهي ويصرخ بكل احتقار «ما عندكم موية باردة يا حيوانات!!»

كان أسبوعاً الامتحانات من أصعب الأيام التي مرّت في حياتي فبعد أن كنت الأولى على قاعتي ها أنا أنزوي في أحد أركان غرفتي لأن رجلاً ما قد غضب لأن سيداً ما قد شعر بالتوتر.. إيه يا سجن السخافات والفضاء الواسع الضيق عندما يكون العابر «امرأة»!!

في الجمعة التي تلت أسبوعي الامتحانات هاتفتني مرام بعتب شديد على عدم ردي عليها طيلة أسبوعين، اعتذرت منها بمرض أمي وهناء التي كانت خيال شابة لم أر في حياتي أقدر منها على كتمان الألم.. حدثتني عن فيصل وأنه خائف عليّ إن حصل لي مكروه، أخبرتها أن لا مكروه أكثر مما أنا فيه والحمد لله.. لكن مصائب الدنيا كلها تهون إذا تحسست إرادة الله في روحك التي لا تعلم لها سراً سوى أنها رغم كل شيء لا تتوقف على النبض والدفء في دمائك فتعلم يقيناً أن الله معك.

كان فيصل قريباً منها عندما كنت أتحدث معها ويطلب منها إخباري بضرورة قراءة اسمه في فريق إعداد البرنامج المباشر الاجتماعي الأسبوعي.

«فيصل!» لا أدري ما هو الشعور الذي اجتاحني وأنا اقرأ اسمه يعلو في الشاشة سريعاً كلحظة رؤيتي له أول مرة شعور بالفخر الخائف! نعم كل مشاعري لا بد أن يعتريها الخوف حتى ولو كانت هي الخوف ذاته!!

كان موضوع الحلقة عن كشف الحكومة لإحدى الخلايا الإرهابية وإبطال عدد كبير من الأسلحة والمتفجرات.. يا له من فخر أن يكون فيصل أحد الجنود المجهولين لأجل هذا سأحبه أكثر.. سأحبه بلا خوف فقط هذه المرة!!

بعد أسبوع من تلك الجمعة كان فيصل وأخته ووالدته في منزلنا.. ساعات يعزفها البخور وتتأنق فيها العطور وتسطرها ابتسامة مرام.. وتشمخ في عيني فيصل!

وكان خالي كعادته عندما يشعر أن ثمة رجلاً قريباً من منزلنا ولو على بعد كيلومتر كأنه يعاني من لسعة أفعى.. يشتم ويحملق بعينيه ويطلب باستمرار خفض الصوت.. وكأن البيت استحال إلى مايك كبير!! فكيف سيكون حاله عندما يكون ذلك الرجل في داخل البيت إنها مصيبة لا بد أن يتحمل وزرها حتى تزول..

كنت في غرفتي أستعد للقاء أم فيصل بعد أن تحدثت إلى أمي قبل أسبوع في الهاتف وأخبرتها بالموضوع وكذلك فيصل أخبرتني مرام أنه تحدّث إلى خالي وطلب منه إعطاءه موعداً لمقابلته.. ارتديت قميصاً أحمر وكنزة لونها بيج لم أشأ أن أضع أية مساحيق فقد حباني الله جمالاً طبيعياً لكن مرام طلبت مني وضع الكحل في عيني وقالت إن فيصل سبق له أن رآك على الطبيعة ولن يكون هناك ضير من بعض الماكياج، أسدلت شعري الأسود المسترسل ونظرت إلى المرآة.. قوام رشيق وصدر نافر وعينان سوداوان وفم صغير.. كان كل شيء يبدو أنه يمدحني حتى مشطي الذي وضعته في اللحظة الأخيرة قبل أن أتوجه إلى الصالون بعد أن ناداني خالي..

ـ هيه بنت إذا دخل الرجال ما أبغى قلة أدب.. ولا حركة ولا كلمة. فاهمة!

كنت أعلم أن ثمة مواقف تجبرك على الصراخ لكنه الضحك هو ما بدر مني ولا أعلم لماذا، ربما لأن خالي يبدو مثل اللاعب المجتهد الذي طُلب منه في اللحظة الأخيرة وقبل أن يُسجل أن يغادر الملعب بلا تعليق.. لذلك لم أزد بأن قلت:

ـ طيب!!.

كانت سناء وإيمان في المطبخ يتهامسن أثناء إعداد القهوة للضيوف دخلت مسرعة لأسألهن كيف يبدو شكلي؟ ردت إيمان بكل برود..

ـ عادي ما فيه شيء جديد بس كان ما لبستي أحمر بتفتنين الرجال حرام..

ـ يعني وش ألبس مثلاً..

ـ سناء: أسود!! عاد ياالله روحي عند سعيد الحظ قبل ما يموت خالي.

كانت أمي تغالب ألمها وهي تحاول جاهدة أن تبتسم للجميع.. آه يا أمي كم يروقني كبرياءك فرغم كل هذا الفقر واليتم تُجادلين أم فيصل وكأنك تملكين الملايين.. لكن

شكلك وأسلوبك سيبدو مختلفاً عندما يكون هناك رجل لا تستأسد المرأة عندنا سوى على امرأة مثلها.. فلتمض الساعة على خير يا رب..

طلب فيصل من خالي دخول أمه وأخته معه بدلاً من خالي لكن ذلك التمساح رفض ذلك إلا بوجوده.. لذلك شُغلت بمتابعة حركاته وإيماءاته المتوترة عن فيصل عندما دخل إلى المجلس.. لكن بعد ثوانٍ وضعت عينيّ في عينه وهو يقول «مبروك علينا يا عروسة» آه.. كم هي رائعة هذه الكلمات من فمك يا فيصل هل صحيح مبروك علينا.. أخذتني عيناه إلى عالم فسيح من الحلم والخيال لم أرد أن ينتهي أبداً، أعطاني خاتماً من الألماس كتب عليه اسمي.. عندها انتفض خالي كما هي عادته دائماً حتى لا تلمس يدي يد فيصل وأنا آخذ منه الهدية وقال:

«يالله يا بنت روحي آشوف»

مضى أسبوع على خطوبتي بعد أن وعد خالي فيصل بإتمام مراسم الزواج وعقد النكاح بعد خروج سعيد من السجن حتى يكون شاهداً على الزواج وحتى يستكمل فيصل استعدادات بيت الزوجية.. كان الحلم ينسج نفسه بنفسه ولا أدري لماذا وافق خالي على فيصل حتى قبل أن يسأل عنه ربما لأنه يريد التخلص مني في أسرع وقت ممكن، وعلى أي كان، لذلك كانت تلك الفترة ذهبية بالنسبة لخطوبتي.. كثير من الورود والأطفال والابتسامات توقع الليالي وتختال

الرسائل.. أعطيت فيصل رسالة قبل رحيله من الخميس كتبت فيها.. «أشعلي يا ليلتي في ظلمتي ذكراه.. واستفيقي يا عيون النجم من طيب شذاه.. لا تغادر أيها العاشق أبراج المُعنى.. واستميتي يا دمائي في تعاليل عناه.. ولتكن لي كل يومي.. كل حلمي.. كل شيء في الحياة..»

كانت الليالي تمرّ دون أن نشعر بها أنا وفيصل، كنا مغرمين إلى درجة نسيان كل مشاكلي السابقة، أردت أن أقول ما أجمل الحياة ذات ليلة من ليالي الشوق المدلل غير أن سناء قطعت عليّ تلك الموجة من التفاؤل الموشح بالجمال.. عندما دخلت عليّ في غرفتي وهي شبه غاضبة للمرة الأولى أشعر أنها بإمكانها اتخاذ قرار ما، لقد بدأت تفكر بذاتها إذاً.. مرحى ها أنا أنجح إذاً..

ـ سحر ممكن أتكلم معاك أحس أني متضايقة بالمرة.

ـ وش عندك سناء أدخلي مرة ابغي أسمع صوتك.. صوتك لوحدك صوت أعماقك وإحساسك وذاتك المستقلة..

ـ بصراحة مليت من جسمي أبغى أنحف، كل البنات لم يسألوا عني يقولون «البنت الدبا» تعبت وأبي ارتاح كيف أسوي..

ـ المهم القرار.. بعدين الشجاعة والإرادة في التغيير أكيد لازمك نظام غذائي ورياضة باستمرار.

ـ وين يا حسرة الرياضة اللي تقولين عنها شايفة

الدنيا متروسة أندية رياضية نسائية السمنة ذبحتنا والرياضة مهمة ولا حتى نقدر نمارسها في الحوش أخاف خالي يقصّ رأسي.

ـ أمشي فوق السطوح العمش ولا العمى وإلا؟!.. إذا أردتِ النتيجة فلا بد أن تتحملي مشقة الأسباب. حاولي.. الله يوفقك أنا بأطلع لك من النت آخر رجيم مضمون ويحتاج وقت وفيه تنوع غذائي.. وتأكدي رح أخاصمك إذا شفتك تأكلين شيء خارج النظام يعني باشتغل مراقبة عليك.

ـ الله يخليك يا سوسو.. ويفرحك زي ما فرحتيني.. أتمنى ألبس فستان مقاس ميديم من دون ما يشترك ثلاثة في رفع السحاب.

تذكرت من كلام سناء كم نحن تُعساء حتى المشي، لا تستطيع تلك الخصوصية السخيفة المتبلدة الجاهلة منحنا مكاناً نمشي فيه.. وعندما تحاول سناء فعل ذلك في فناء المنزل فستغدو سُمعتنا أسوأ من سمعة سعيد.. لأنها حاولت ذات نشاط أن تخبر جسدها أنه يستحق الاهتمام.. تُرى ماذا أبقوا لكِ يا حواء سوى الأكل والشرب والنوم!!

كانت إجازة الصيف فرصة لقراءة الكتب التي أحضرتها سوزان لي من بيروت كنت كل ليلة التهم كتاباً أو اثنين، ومضت الليالي لا يعكرها سوى هاجس مرض هناء التي رغم ألمها تصرّ على اللعب مع «رامي» ابن

جارنا أبو أحمد «الذي كثيراً ما لاحظت عليه علامات الضرب في أنحاء متفرقة من جسده وعندما أسأله يخبرني بأن والدته هي من تفعل ذلك.. أكاد أجن أن تكون هذه علامات ضرب من أم لفلذة كبدها!! لو كان رامي هناك حيث النور لقامت الدنيا ولم تقعد إلا بعد تعهدات طويلة من جمعية حقوق الإنسان بحمايته ومعاملته بإنسانية.. كنت أقول لا ضير يا رامي طالما أن المصيبة واحدة، الفرق أنني في الرابعة والعشرين ومازلت أُضرب كالنعاج لا فرق أبداً سوى أنك عندما تبلغ الرابعة عشرة ستصبح رجلاً تضرب أنت بدلاً من أن تُضرب، لكن أنا ولا حتى بعد الخمسين ألم أقل لك لا فرق!!

كثيرٌ من حفلات الأفراح وقليل جداً من الفرح، هذا ما أصبح يميّز مناسبات الناس هذه الأيام،كان ذلك العُرس مأتماً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، جلست مع سناء وإيمان في ركن قصي من تلك القاعة المتواضعة بعد دعوتنا لمشاركة جارنا أبي أحمد بزواجه مع ابنه في نفس الليلة!! الكثير من التملق والنفاق والألوان والابتسامات الصفراء لكن طفل الفرح مازال يُغالب المحاولات المستميتة لقتله فيظهر براقاً في العيون، كانت تلك الليلة واحدة من الدروس الجديدة في حياتي.. فقط لا تجادل جاهلاً حاول ذلك ما أستطعت لأنك أنت المغلوب حتماً.. بعد أن بدأت الفتيات في الرقص على صوت الكاسيت والجميع يتابع

باهتمام، كان طفل الفرح ما يزال يحبو، فجأة تخترق الصفوف إنسانة ترتدي السواد ولا تضع أية مساحيق ولا ترتدي أية مجوهرات، للوهلة الأولى تعتقد أنها خرجت للتو من الحداد.. أطلقت على نفسها الداعية أم جلال «هكذا دونما أن يقدمها أحد أوقفت الجميع وأخذت «المايك» من يد أخت العروس وطلبت من الجميع الانتباه إلى ما ستقوله من بشائر وما ستحذر منه من مصائب قادمة، لقد كانت تتحدث عن علامات الساعة!! يا لها من مناسبة!! وأمرت الفتيات أن يتوقفن عن الرقص لأن ذلك من عادات اليهود، وأن فتاة ما كانت ترقص والتبسها الجان وطار بها واختفى وإلى الآن لم تعد لأهلها «مسكينة!!» كما طلبت من النساء عدم التزين لأن ذلك تبذير وإسراف، وطلبت من الجميع أن يقضي الليلة في الاستغفار والتسبيح ليكفروا عما ارتكبوه من ذنوب في هذه الليلة المباركة من عمر الإنسان!! كل ما أثارني موجة التصفيق التي قوبلت بها، لقد كانت من نفس الأشخاص الذين كانوا منتشين طرباً مع الراقصات والطبول وبنفس الحرارة!! كم هو منافق هذا المجتمع!! ذات النساء أصبحن يصلين لها صلوات الرحمة والتوفيق ويتوجهن للسلام على قاتلة الفرح.

عندها توجهت إليها وأخبرتها أن هذا عقد نكاح شرّع الإسلام إعلانه بالفرح لأنه ليس خطيئة فيكفر عنها بالاستغفار، أذكر أنها نظرت إلي بكل رأفة وقالت «أخشى

عليكِ من النار كيف تبعدين الناس عن الدين هل أنتِ من دعاة جهنم!!» أما أنا فقد صمتُّ لأول مرة في حياتي ليس لأنه ليس لديّ رد بل لأنه ليس ثمة أمل في عقل المستقبل.

المهم أن أكثر ما أثارني في تلك الليلة هو أن زوجة أبي أحمد أصغر سناً من زوجة ابنه أحمد، جارنا كان في الستين من عمره وهذه الفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، سألت عنها باهتمام وكيف توافق على الزواج من شيخ مُسن ربما لم يعد بإمكانه الوقوف دون اهتزاز!! فأجابوا لأنها ليست متعلمة وتعيش مع زوجة أبيها.. أي قيمة للإنسان عندكم أيها الأشرار.. لم تكن سعيدة أبداً لمحت الخوف في كل خطوة تخطوها.. كان الله في عونك يا زهرة الريف فليس مكانك عندهم سوى فصل ربيع يعيد فيه رجل ما ذكريات الشباب! حتى ولو كانت على أنقاض إحساسك وقلبك الغضّ، كم تمنيت الحديث معها لكن شيئاً من هذا لم يكن ليقدم أو يؤخر، إنها قاصر.. إنها قاصر.. كانت كابوس تلك الليلة وفي الصباح تماماً كما يفعل الجميع «نسيت»!!

كان خالي قد تحدّث مع أمي قبل يومين عن رحلة دعوية انتدبته لها وزارة الأوقاف إلى خارج المملكة لمدة شهر.. أي دعوة هي التي سيدعو لها تمساح مُغلق؟ هل سيتهم نساء موريتانيا بالفسق والفجور لأنهن غير منقبات!! أعان الله الدعوة إن كان لن يمثّلها سوى خالي وأمثاله. ما

كان يهمني جداً في هذا الأمر هو خلاصنا من العبودية المؤقتة النسبية لمدة شهر لأن خالي لم يكن وحده من يمارس ذلك بل كانت ثقافته مجتمعاً كاملاً.

طلبنا من أمي الموافقة على عروض عمتي المستمرة للسفر إليهم في جدة لأن الصيف بالنسبة لها هو أيضاً فرصة الترفيه لأن زوجها يسافر إلى إحدى الدول الأجنبية مقابل إعطائها بعض المال وعدم سفرها معه «رجال!!» كانت عمتي الأخت الوحيدة لأبي رحمه الله، تزوجت من رجل تقول عنه أمي «صانع» أما أنا فأراه إنساناً كامل الأهلية، يتمتع بكافة حقوق الإنسانية، لكن أمي كانت دائمة الغيرة من رغد العيش الذي تعيشه عمتي مع شخص تستعرّ أمي منه وتكرر مراراً وتكراراً إنه أقل منها وإنها لا يمكن أن تزوج سعيد من إحدى بناتها ولم تعلم أنهم أفضل من سعيدها الذي تفتخر بانتمائه إلى وهم قبيلة.. كانت منال ومنى ابنتي عمتي في قمة السعادة لأننا أخيراً سنزورهم بعد سنتين من الغياب، وكنت قد تحمست لذلك من أجل فيصل الذي كان في تلك الأثناء في جدة بعد أن سافر أهله إلى روما لقضاء إجازتهم أما هو فقد فضل البقاء حيث نقتسم الوطن والأمنيات والأحلام.

جاءت منال مع أخوها محمد لأخذنا من الخميس، كانت المسافة طويلة للمرة الأولى لأن قلبي كان يقبع في منتصف جدة، أشعر أن نسمات هواء الطائف أبهى قصيدة

غزل يمكن أن يرتلها العشاق.. ما أروع شعورك بالقرب ممن تحبه تَعُد اللحظات للقياه وتحبس أنفاسك كلما خطا خطوة نحوك!! ساحرٌ فيصل.. أشعر أنه أوسم شاب في السعودية. كانت منال كثيرة الكلام في السيارة أسمع من كلامها القليل ويفوتني أكثره مع طيف الحب..

ـ أما إنك تحفة أثرية يا سحر يصلح نحطك في متحف اللوفر على هالخاتم «منال».

ـ هذا ذكرى من حد عزيز وقديم وأصيل زي الخاتم اعتبريه طريقة مظاهرة صامتة رغبة في العودة إلى الإنسان.

ـ الإنسان؟! أما عليك غرابة..

ـ لا غرابة ولا يحزنون الإنسان اللي من طلعنا من الخميس إلى جدة ما لقيناه شفتيه أو لاحظتي أمل في وجوده؟! مجرد أكوام من الإسمنت والصرافات والمحال التجارية والمطاعم والسيارات وينه؟! أكيد من حقي ألبس خاتم أثري يذكرني فيه.

ـ والله ما فهمت من هذي الثرثرة شيء لكن حيّاك الله في بيتنا أنت وراسك اليابس.

كان فيصل يقف بسيارته في الشارع المقابل، مجنون فيصل، لكن الأكثر جنوناً هو هذا الشعور بالتباهي الذي يسيطر عليّ، إلى أي درجة يحبني ليطاردني بعينه إلى حين دخولي مع ابنة عمي ويرسل قبلة على الهواء..

كل عاشقة تشعر أنها أميرة النساء في لحظة يرقص فيها الوريد على أنغام جنون حبيبها ، لو لم تكن أمامي كل هذه الحواجز لقفزت إلى أحضان فيصل وأخبرته أنني أحبه أكثر!!

في الليلة الأولى في جدة كان البدر مكتملاً كوجه فيصل وهو يراقبني خطوة بخطوة، كان الليل باسماً والسهر مع بنات عمتي ممتعاً لولا شعوري بعدم اشتراكي مع أحد في اهتماماته.. تحدّثوا عن كل شيء في ما عدا العدالة.. كل الأحاديث مختومة بنبرة استنكار أو تظلم أو دونية هل كان هذا سمةً لأحاديث العبيد في مكان ما؟! تحدثت «منى» كثيراً عن مواصفات فارس أحلامها بعد أن أخبرتهم عن فيصل.. وكذلك منال وبنت جيرانهم نُهى وسناء وإيمان.. فسألتهم بكل استغراب ورغبة حقيقية في الوصول إلى جواب..

ـ نفسي أفهم ليه كل جَمعة للبنات الموضوع الرئيسي فيها فارس الأحلام والأوهام هذا؟! ليه هو ما عند بنات السعودية غير التفكير في الزواج، صحيح هو نص الدين لكن فيه شيء اسمه أولويات وإلا ارتهنتو كلكم للبرواز والصورة؟!

ـ منى: مع أني ما فهمت البرواز والصورة هذي لكن فعلاً أنا ما أفكر طول الوقت غير في الزواج وش عندك يعني بخجل لا أنا أقولها بكل وضوح أبغى أتزوووووج.

ـ نهى: بس مو أي شخص الإنسان اللي أحبه الأول الحب رئيسي وإلا وش رأيك سحر.

ـ لا هذا ولا ذاك والله ما مُهم غير نهى اللي في داخلك وش سويتي عشانها عشان تفكرين في الزواج بعدها.. الحب وحده مو كفاية إذا ما كان فيه وعي بقيمة الرباط الوثيق.. كثير زيجات تقوم على مبدأ التكافؤ والاحترام وتنجح.

ـ منال: عاد تفلسفي علينا يا سحر عشان إنت ضمنتي نفسك وطيرك الغرام وإلا حلال عليك وحرام على غيرك.

ـ صدقوني ما أحد فهمني أنا أقصد مسألة الأولويات ومسألة الاستغراق في تقديس الآخر وزيادة سماكة البرواز وزيادة الذوبان فيه يلغي كينونتك واستقلالك يلغي فُرصاً كثيرة للتطوير والتنوير..

ـ إيمان: سحر وش رأيك تخلينا نسولف مرة في حياتك من دون ما يكون لك وجهة نظر.. الله يعافيك من مرض الجهل مو هذي دعوتك دائماً.

ـ بكفيكم أنا رايحة أنام أتمنى ما حد يكون فهمني غلط.

أيعقل أن تكون المرأة قد صدقت الأسطورة فارتهنت إلى الرمز وباتت تقدس الجسد لأنه الوسيلة إلى التقرب من السادة؟! تهتم بجسدها وبكل تفاصيله تتمايل يميناً ويساراً

في الشوارع والمقاهي تبرز مفاتنها وتقضي الساعات في صيانتها ليسمك البرواز وتبدو الصورة أكثر وضوحاً، السيد يقف والجواري يتحلقن حوله.. صَدَّق وصَدَّقن فضاعت العقول وأصبحت الفياجرا أغلى من الكمبيوتر!!.. صدَّقَ وصدقن فأضحت الفضائيات أكواماً من الموديلات والغثاء والغرائز.. صدق وصدقن حتى قذفها بكل ألوان الشبق والسفور والفتنة والغواية واللعوب والغانية والقائمة تطول، أصحبت كل ابتسامة بريئة لها معنى خبيث، وكل كلمة عابرة هي دعوة مبطنة إلى الفراش.. والسيد مازال يقسّم الأدوار والجواري مازلن يغسلن قدمه كلما عاد من الحصاد رغبة في رضاه وتقديساً لريادته، لكن أي واحدة منهن لما تعلم يقيناً أنها مجرد جارية توهم نفسها بالموضة ومراعاة العصر لكن أول بادرة لقدوم السيد هي فرصة سانحة للصيد من أجل حياة تحسبها كريمة وتتوهمها سعيدة.. فنسيت أن في داخل ذلك الجسد عقلاً يموت جوعاً ويتضور ألماً من قلة الاهتمام، تبتاع المساحيق والعطور والأقمشة والأحذية وتغرق وتغرق وتغرق لكن ليس ثمة خشبة لتمسك بها في لجة الماديات، ألم أقل إن الإنسان بات ذكرى في يدي!!

كان ذلك الصباح مختلفاً في وجود فيصل في الأسفل يلقي عليّ تحية الصباح بنفس طفوليته عندما التقينا في المستشفى.. آه كم تغدو الشمس مشرقة في ثغرك يا فيصل

أحبك كل صباح.. هكذا كتب على شاشة الجوال رسالة قصيرة.. «صح النوم جده البارح ما نامت لأن القمر سهران.. أحبك كل صباح»

كان ذلك اليوم لا يُنسى لأنني ذهبت بصحبة منى إلى معرض لمجموعة من الفنانات التشكيليات المبتدئات، كان أكثر ما يثير الضحك هو الطريقة السيئة لدخولنا إلى الفندق الذي أُقيم به المعرض حيث لم نكن نملك دعوات فاحتلنا على ذلك بمساعدة أحد الشباب الذين تعرفهم مُنى.. دائماً هناك مساعدة ودائماً هناك رجل! لا تستطيع المرأة عمل شيء هنا من دونه؟! حتى ولو كان ذلك من الأبواب الخلفية!! أعجبني المعرض وسعدت بالحديث مع إحدى الفنانات من دولة البحرين، كان واضحاً فهمها العميق لأهمية الفن في تكوين ذائقة راقية ومساحة رحبة من التعبير والقدرة على التواصل مع كل الثقافات والشعوب، الرسم لغة عالمية هذا ما قالته وما رسخ في بالي أيضاً.

عند عودتنا من تلك الزيارة التي سرقناها سرقة طلبت منى من السائق الذهاب إلى الشارع إياه.. وقالت بكل برود..

ـ تبغين أوريكِ كيف نصيد الهوامير؟

ـ ليه هم حيوانات عشان ينصادون..

ـ أرخص من الحيوانات.. شوية حركات ونظرات

وماكياج عيون تخلص المهمة بس المهم يكون ولد نعمة عشان نستفيد.

- من ايه تستفيدي وليه تسمين المسألة صيد؟!

- منه يا غبية نطلع بكم ألف أو طقم ألماس أو لو بس يسحن لي جوالي بس هذي المرة حاطة في بالي اشتري محمول وفيه واحد تعرفت عليه قبل أسبوعين واضح إنه دفيع بس ابن كلب وعنده ضعف جنسي!!

- ابن كلب بلعناها بس كيف عرفتي إنه عنده ضعف جنسي ارتكبتي الخطيئة معاه..

- لا.. يا بنت الحلال أنا بس مهمتي التسحيب آخر شيء أفكر فيه أغلط مع هيك موديلات، هذا بس مشهور عند البنات إنه دفيع وسالفة الضعف قالتها وحدة من البنات وهو المسكين يدفع كل اللي يقدر عليه لأنه يعرف إنه شين.

- وعندك خبره بعد؟!

- في كل أنواع الرجال لو بدك..

- لا ما بدي إلا أرتاح وأرجع البيت كنت أفتكر طلعتي معك لمكان زي المعرض يمكن تفتح عينك على مكان لعرض العقول وتستغنين عن شارع عرض الأجساد بس الظاهر الوقت أتأخر كثير معقولة كل هذا يصير في سنتين بس..

ـ لا وبعد سنتين تجين وكل شيء تغير كمان وكمان..

ـ طيب من كثر هذي الطلعات ما تسألك أمل وين رايحة ومنين جاية.

ـ لا ما عمرها سألت نقولها رايحين السوق وجايين من السوق هذا لو سألت.. المهم عندها إننا ما ننام قبل ما نتعشى!!

صدقيني ما نغلط لا أنا ولا منال إحنا بس نتسلى مادامهم صايرين زي الشطرنج في يدك حطيهم في المكان اللي يبونه واستفيدي إحنا في زمن إذا لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب!

ـ قصدك إذا لم تكن جسداً أهلكتك الأجساد..

ـ ما فهمت.

ـ ولا عمرك رح تفهمي!!.

أتذّكرُ كلّ هذه الكلمات وكل تلك المواقف لأشدّ بها أزري على المواصلة رغم كل هذه الجروح التي أدمت قدميّ.. وهذا الليل الذي يُطبقُ على أنفاس الحقيقة لتعود فتتنفسني!! لا أدري لماذا لم أتوقف عن السير رغم الظلام ورغم الإرهاق..ربما لأنني قتلت الخوف عندما أقسمت على ذلك وأنا في بيت الله.

الفصل العاشر

«مادامت هناك طبقة دنياً أنتمي اليها، ومادام هناك عنصر اجرامي يمسني ومادام هنالك انسان واحد في السجن فانني لن أكون حرا أبدا»

يوجين فيكتور

- منال: مدامك فرحتي وانبسطي كل هالبسطة لما رحتي المعرض ليه ما تروحي في الخميس.

- لأنهم معترفين جداً بالمرأة لدرجة أنهم يتوسلون مشاركتها في النادي الأدبي وما هي راضية من كثرة الشُّغل والمسؤوليات «التهميش»!!!

- قصدك إنك ما تقدرين؟!

- صدقيني إذا كان الشعر عند خالي من الكبائر فما بالك أروح للنادي الأدبي. بس المشكلة إن أعضاء النادي أنفسهم نساؤهم ما لهم أي مشاركة تذكر في الحياة الثقافية والفكرية للمنطقة يعني إقصاء من السلطات العُليا وإذا كان هذا من مثقفين المنطقة طبعاً ما فيه حرج على عوامهم وجهلتهم زي خالي.

ـ يالله عاد لا تنسين الليلة حفلة الدي جي بنروح كلنا كيفك إذا عندك اعتراضات اجلسي لوحدك.

ـ معقولة أمل رح تجي معاكم؟! وهي عارفة إن السالفة فيها مخالفات من وجهة نظرها يعني رقص وموسيقى وبنات لابسات ضيق وعريان..

ـ هي قالت مارح تجي بس أنا أقنعتها..

ـ بهذي السهولة تغيّر رأيها بس لا تكون ناوية على شيء.. يعني محاضرة وعظية وإلا اتهامات.. وتالي تقول لأمي وأمي ما عاد تسمح لنا نجي معاكم.

ـ والله ما أدري أنا ما أضمنها لكن اللي أعرفه إني أعرتها واحد من فساتيني.

تأهبت بكل إمكانياتي المحدودة أن أكون في مستوى أناقة بنات عمتي وحتى لا تشير بوصلة الجميع إلى حيث الفقر هناك في الجنوب حاولت ونجحت.. ارتديت فستاناً لونه أورانج ووضعت الماكياج اللازم وأطلقت لشعري العنان في التعبير عن تمرده، كانت منال في باب غرفتها عندما استوقفتني..

ـ سحر إنتِ متأكدة إنك بنت خالي..؟!

ـ ليه وش قصدك

ـ بصراحة ما أقدر أغامر وأعرف البنات عليك على

إنك بنت خالي رح أتحاشاك عشان ما أحد يقول إنك جاية من أسبانيا.. وإلا من إيطاليا.. إنتِ فاتنة.

ـ مرسيه.. هذا ذوق وإلا حسد الله وأكبر على عينك.

ـ ما شاء الله بس من ندخل القاعة لا أعرفك ولا تعرفيني.

ـ ولا يهمك أنا دائماً ما أحتاج إلى حد يعلمني كيف أعيش فرحتي أو حتى مأساتي دائماً بوصلتي هُنا «في الرأس»..

كان محمد هو من أوصلنا إلى الحفلة وفيصل يتبعنا وبنات عمتي وأخواتي لا يتوقفن عن تعليقاتهن واتهامه بالمجنون بينما أنا لست على الأرض أبداً.. أشعر أنني أطير!!

بعد وصولنا ومغادرة محمد استغليت دخولنا وذهبت إلى فيصل في سيارته وأعطيته وردة حمراء كتبت عليها «أحبك» لكن فيصل كان ينظر إليّ بكل ذهول، أشعر أن لسانه مربوط، كان الغرور يأخذني بعيداً وطلبت منه أن ينتبه للطريق.. نزل سريعاً من السيارة بينما أسرعت في اللحاق ببنات عمتي.. والجميع كان يضحك من منظر فيصل.. ودخلنا إلى الحفلة التي كان كل شيء فيها رائعاً.. جلست على طاولة لوحدي وكأنني مدعوة لوحدي بينما كل من كان يمرّ بجانبي يرمقني بنظرة غريبة من تكون هذه التي تجلس

لوحدها وكأنها من عالم آخر.. تقدمت إليّ إحدى الفتيات وسألتني..

ـ ممكن أعرف اسم القمر؟!

ـ اسمه كوكب مظلم يستمد الضوء من الشمس؟!

ـ والله مافيه شمس ولا قمر غيرك بس وش اسمك؟!

ـ اسمي سحر.. سحر الجمعان.

ـ من وين من جدة؟!

ـ لا أنا من الجنوب.. وأنت وش اسمك؟!

ـ اسمي غرام.. من هنه.. تصدقي تشبهي آيشواريا راي ممثلة بوليود..

ـ تشرفنا..

ـ الشرف لي ممكن ترقصي معاي؟!

ـ ما أعرف أرقص خيرها في غيرها..

ـ طيب وش تشربي الحفلة عيد ميلاد أختي.. يعني تقدرين تسميني صاحبة الدعوة..

كانت غرام اسماً على مسمى روح مرحة ومليئة بالحياة والتواضع واللباقة أشعر دائماً أن بنات الغربية ساحل لا نهاية له من الطيبة وحسن التعامل تماماً كبحر جدة.. بينما كنت أسترق النظر إلى بنات عمتي وأخواتي

كانت أمل قد اعتزلت الجميع وخرجت إلى فناء الاستراحة، وقتها علمت أنها قد ندمت على الحضور، ليس من السهل الاستغناء عن قبعة الولاء للسياق العام والاستتباع والتملق..

في طريق العودة كان فيصل يسمعني على هاتفي المحمول أغنية «المعازيم» لمحمد عبده، كنت أستمع إليها وابتسم وعيناي تدمع لأن الشعور بالبهجة كان مؤلماً تماماً كما هو حال معدة من يأكل بعد الجوع الطويل تؤلمه!.. وعيناي تؤلمني أيضاً!

كانت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل.. عند وصولنا أويت للنوم بينما أمل توجه اللوم والتوبيخ إلى بنات عمتي على خداعها وأخذها إلى مكان أستطاع أن يصنع البهجة في غفلة من الزمن.. كان كلامها كثيراً وأنا مُتعبة من السهر لذلك تركت لهم أمر تهدئتها قبل أن تصل الأخبار إلى أمي..

في صلاة الفجر كانت منال ما تزال مستيقظة تجلس أمام المرآة فسألناها إن كان المؤذن قد رفع الأذان أم لا؟!

ـ أذن بس لسى ما قامت الصلاة.. قومي شوفي أختك أمل وش سوت فينا قالت لأمك إن الحفلة كلها كفر في كفر.. أنا ما أدري وش خلاني آخذها معي..

ـ أنا حذرتك وما سمعتي الحين أحلمي تطلع معاكم بعد اليوم آه كيف أقدر أشوف فيصل.

ـ أجل لو كان فيها شباب وش كانت قالت؟

ـ ممكن ترتكب فيكم جريمة قتل.

ـ غريبة يا سحر بأسألك بس ما تفهميني غلط إن واحد زي فيصل البرجوازي يحبك وأنتِ يعني.. فقيرة!!

ـ على فكرة الفقر اعتبره وصف زيه زي لما تقولي إنتِ بشرتك بيضاء يعني مو عيب لكنه واحد من السمات الشخصية ويؤثر فيها، ولو خيروني بين الملايين وفقري اخترت فقري لأنه علمني أشياء كثيرة الفلوس ما تقدر تعلمني إياها لأنها حياة مترفة تفوت فيها كثير من فرص الصدام مع الألم والإرادة والتفكير وأهمها تذوق الحياة بمعناها الواسع، الفقير كل شيء له طعم عنده.. لكن سؤالك كيف حبني بكل تواضع من يقدر ما يحبني بالأخير الحب شعور ما يخضع لأي قوانين يعني يجي وقت ماوده يجي وكيف ماكانت أطرافه الحب رباني عشان كذه هو الشيء الوحيد اللي باقي خاضع للعدالة الاجتماعية وديمقراطية التوزيع.

ـ حظك على كثر ماحاولت يكون اللي بيني وبين أي واحد أتعرف عليه حب ما قدرت لأن الحب بالنهاية شيء ما ينصنع..

ـ طول ما إنتِ تدورين على الحب عند كل من هبّ ودب مارح تلاقيه أهم شيء حبي نفسك وبعدها الحب يركع لك ركوع..

ـ كيف أحب نفسي!! أنا أكيد أحبها كل الناس يحبون نفوسهم..

ـ لو تحبيها ما خليتيها مشروع حب للبيع في كل شارع وكل مول. حبك لنفسك يعني بناء الذات وتطويرها وتنميتها وبعد ما توصلين للهدف اللي حددتيه لنفسك على الصعيد الشخصي وقتها فكري بالزواج ليه برأيك كل الشباب السعوديين أو أغلبهم بعدما يكون عنده التعليم اللي يرضيه عن نفسه والوظيفة المناسبة والدخل الثابت يجي عند أمه ويقول أبي اتزوج بعدما كوّن ذاته اللي ترضيه بحث عن نصف دينه واحنا نعتبرهم كل ديننا ودنيانا.. يعني ما فيه تفكير استقلالي للبنت السعودية فهي إما مشروع زواج في الأسر المحافظة وإلا مشروع مغازل في الأماكن اللي تكون العيون فيها مستعدة لالتقاط كل شيء!! في الأسر الثانية.

كان فيصل في إجازة لكنه أحب أن يستغل إجازته بما يعود عليه بالفائدة أخبرني أنه يجمع مادة برنامجه الاجتماعي وأن الحلقة ستكون عن «حقوق المرأة ترف أم ضرورة» كنت قد زوّدته بكل ما أستطيع من المعلومات وانتظرت عرض تلك الحلقة بفارغ الصبر..

استغليت وجودنا مع بنات عمتي لأخذ هناء إلى المستشفى وعمل الفحوصات اللازمة لها، كان المستشفى العام يعني تسجيل الملف والعديد من الإجراءات ثم طابور الانتظار الطويل، فضّلت أن تذهب إلى عيادة خاصة حتى وإن كانت مكلفة فقمت ببيع خاتمين من الذهب وأسورة هي

كل ما أملكه من حطام الدنيا بعدها توجهنا إلى العيادة، وبعد أخذ عينات الدم والبول كان علينا الانتظار ثلاثة أيام أخرى ثم أخذ النتيجة.. لكن عودتنا إلى «الخميس» حالت دون ذلك، أوصيت منى أن تأخذ النتيجة وترسلها إلينا فيما بعد.. لكن الدواء كان مكلفاً جداً ولا أستطيع شراءه فاحتفظت بالروشتة مع ورقة الاشتراك في الحوار الوطني وأوراق أخرى كثيرة.

بعد عودتنا إلى منزلنا كان موعد عرض الحلقة التي شارك فيصل في إعداد المادة لها ويقدم من خلالها إحدى التقارير تسمّرت أمام الشاشة طويلاً حتى ظهر.. كنت أكاد أن أقبلها من شدة شوقي له..

كانت الإجازة الصيفية تمّر دون أن أشعر بها فقد كان فيصل يجعل كل شيء سريعاً كسرعة اختراقه لقلبي، كان لابد أن أكبح جماح مشاعري تجاهه لكنه الحب.. لا يعرف التوقف.. ولا يتقن الإنصات..

خالي يعود من رحلته الدعوية ومعه المفاجأة التي جعلتني أتساءل.. «ألا يستطيع أحدكم الاستغناء عن أعضائه التناسلية حتى وهو في مهمة دينية» لقد تزوج ذلك الناسك بامرأة مصرية رآها في موريتانيا.. كانت أفضل هدية يمكن أن تكافأ بها خالتي.. إنه شهر واحد أيها التمساح فماذا لو كانت أشهر هل كنت ستتجاوز الأربع!!

لكن الذي أتساءل عنه بشدة كيف يقنع خالي تلك

المرأة بتغطية وجهها ويديها وهي على المذهب الشافعي وهل ستقبل.. كان الفضول يدفعني لرؤيتها.. كيف تقبل الزواج بمثل خالي أم أنهم يتحولون إلى ملائكة هناك في الخارج.. ربما فلم يحصل لي أن رأيتهم لكني سمعت عن طوابير طويلة من اللحى والثياب «القصيرة تتسمر أمام مكاتب الزواج في ماليزيا وأندونيسيا بعد فتوى الزواج بنية الطلاق، كل شيء هنا عندما يرتدي ثوب الدين فهو حق للرجل، حق لا مراء فيه.. ولا جدل.. ربما لأن الخانعة المستسلمة الضعيفة في الداخل لم تعد تغريهم فتاقوا إلى أخرى تحتاج إلى ترويض قبل أن تقع في حبال ذلك الناسك.. لكن أحداً لم يتحدث هناك عن العفة ولن يتحدث لأن المسألة كلها ساعات.. يا سلام بارات إسلامية!! هذا ما يصلح أن يطلق عليها.. والإسلام من كل هذا براء.. كان خالي لم يخبر زوجته الأولى بأمر زواجه ولم أستغرب حين عرفت فهي بالنهاية في نظره مجرد شيء من الأشياء التي يمتلكها.. مَن فكّر أن يخبر سيارته القديمة بأنه سيشتري أخرى جديدة!! ربما أصيب بعرض من الجنون كانت خالتي تولول وتبكي وتندب حظها ليس لأنه فقط تزوج بل لأنه زيادة في احترامها أسكن زوجته المصرية في غرفة نومها التي كانت جديدة بينما أصلح لها الملحق لتنام هي فيه «بشكل مؤقت كل شيء بشكل مؤقت» هذا ما كان يردده ذلك العابد الزاهد لأن الوقت لم يمهله حتى يجهّز نفسه

للزواج، لذلك عليك الصبر ريثما أتزوج الثالثة وعندها يكون الملحق نعمة تحمدين الله عليها كثيراً..!! جاء خالي إلينا في صبيحة وصوله إلى بيته ومعه أكوام من الأشرطة الإسلامية والكتب وبعض قطع القماش الرخيص وهو في غاية الغبطة، أمرنا أن نقوم بتنزيلها من السيارة بينما هو يتأملنا كان يقول..

- هذي الكتب والأشرطة أسمعوا اللي تبغونه ووزعوها في الزواجات وقولوا من عند فاعل خير، الواحد ماله غير اللي يعمله لآخرته!!

أستطيع أن أحلف أنه لم يقرأ أي كتاب فيها ولم يسمع أي شريط لكنها المظاهر.. التي لا ينافس خالي فيها أحد.

جاءت نساء القرية لزيارة والدتي بعد عودتها من السفر.. ليس لشيء سوى لمعرفة آخر أخبار زواج خالي من تلك المصرية وآخر أخبار سعيد وسجنه.. كم تحب هؤلاء النسوة تتبع التفاصيل.. جلست أمل وإيمان وسناء معهن أثناء تناول القهوة في حين انكفأت هناء على نفسها في المجلس.. وخرجت إلى الخارج لاستنشق بعض الهواء وأحضر النعناع لأضعه على الشاي.. لم يكن هناك جديد في مجالس هؤلاء الأميات سوى مصرية خالي وردة فعل خالتي.. فيما عدا ذلك كانت «خضراء» تسرد حكاياتها مع الجن وكيف أنهم استولوا على حياتها الزوجية السعيدة

وأحالوها إلى مطلقة.. لقد كان زوجها مسحوراً حسب روايتها وابنها مصاباً بالعين لذلك لم يتمكن من الزواج حتى الآن ولم يجد له وظيفة!! أما «شريفة» فقد رأت الفتاة التي أعلنت الشرطة عن اختفائها من بيت ذويها وهي تطير في السماء مرتدية عباءتها، قلت في نفسي «حتى الجن يحافظون على الفضيلة!!» وتحلف الأيمان المغلظة بأن الجن هي من فعلت ذلك وأن إحدى قريباتها طارت ولم تعد من ذلك الحين، فتساءلت «لم لا تفتح الجن شركة للطيران فعلى الأقل ستحل مشكلة تأخر رحلات طيران الخطوط السعودية!!».. أما «سعدية» فقد كانت أكثر أولئك العجائز روعة فقد تحدثت عن الحرب في العراق وقالت بأنها سمعت المذيع يقول بأن العراق لن تكون «فيتنام جديدة»!! كانت رائعة وهي تنطقها ولا تدري ما هي «فيتنام» ولا حتى الفلبين!

العجيب أن أمل وإيمان وسناء يصدقن كل ما يقال ويصفنني بالمعقدة لأنني لا أجلس مع النسوة الكبار ويعتبرن هذا تكبراً مني في حين أنني لا أستطيع الجلوس مع أشخاص لا يفكرون بطريقة جيدة ويعملون العقل السحري في كل ما أشكل عليهم من أمور حياتهم.. اخترت العزلة لأن الجميع يفكر بطريقة أسطورية وبدائية، لا أحد يشبهني هنا حتى البنات المتعلمات لم تكن أمية أبجدية بقدر ما كانت أمية ثقافة وفكر وحوار وتواصل..

لم أكن أعلم أن بإمكاني عمل شيء مفيد حتى جاءت

تلك الليلة التي لا تُنسى من ليالي الصيف عندما سمعنا كما الجميع من جيراننا صراخاً يعلو ويختلط بصوت البكاء وصوت النسوة والرجال والجميع يردد.. «بتموت.. بتموت» كان الجميع معلقون في نوافذهم وأسطح المنازل يطالعون آخر المحاولات البائسة «لصالحة» ابنة العشرين ربيعاً وهي تحاول الموت مرة تلو المرة بعد أن نجت من ثلاث محاولات للانتحار السابقة عندما شربت كميات كبيرة من «الكلوركس» ثم ابتلاعها لأقراص «البندول» ثم محاولتها قطع الوريد، إلا أنها في كل مرة وبعد إسعافها في المستشفى يتم استدعاء ولي أمرها وأهلها وتغطية الموضوع وإعادتها من حيث أتت حتى رجال المستشفى متآمرون على «واد المرأة».. وعشان الفضايح! كانت الضحية تُعاد كل مرة إلى جلادها حتى يتأكد من أنه قتلها كما يجب.. منذ أن قبض والدها عليها وهي تكتب أولى محاولاتها الشعرية الرقيقة وهي في الصف الأول الثانوي أحال حياتها إلى جحيم من الشك والمساءلة والمراقبة المستمرة إلى أن أنتهى الأمر إلى حرمانها من المدرسة وحبسها بين أربعة جدران فقط لأنها حاولت أن تكون إنساناً معبراً وأن تحب كما يحب كل البشر، ومنذ ذلك الحين لم تعد هناء التي تدرس معها تعرف عنها شيئاً وكلما سألت عنها أمها في المناسبات تخبرنا أنها مشغولة أو طفشانة ولا تحب الاجتماعات، كنت أشعر أنها تنسحب من الحياة تدريجياً وتمّ إرغامها

على السجن مع الأشغال الشاقة.. كُسِّرت تلك الوردة من ساقها ولمَّا تتفتح بعد.

أبو أحمد الأميُّ الذي لم يمض على زواجه سوى شهر واحد.. يزيد آلام صالحة ويدخل عليها ضرة ـ لأمها التي طلقها أكثر من مرة ـ لا تعرف الرحمة لم تكن تلك الصغيرة هينه فقد أستطاعت أن تحيل ذلك الشيخ إلى خاتم بإصبعها.. حين أقصت صالحة عن الحياة تماماً واتهمتها بالجنون وأمرت والدها أن يغلق عليها في غرفتها ويعاملها كما تعامل الوحوش الأكل والماء من تحت الباب، استغلت «صالحة» فرصة خروجها لقضاء حاجتها فهربت إلى السطح وهدّدت الجميع بأنها ستسقط إذا ما اقترب منها أحد.. كان المنظر مأساوياً وكان أبوها يتوعد فيها وكأنها محتاجة لكل ذلك في ذلك الوقت بالذات.. الأمهات يرمقنها بنظرة اشمئزاز ويتهمنها بالفاجرة، أما والدها فقد كال لها اللعنات وهو يقترب منها.. كانت تهدد بالسقوط لكنها أجبن من أن تفعل وعندما أمسك بها وتأكد من ذلك أخذ يضربها بعقاله بكل قوته ويشتمها:

ـ الله يلعنك ويلعن أمك يالزنوة يالعاهرة يالمصيبة..

كانت ترتجف كالعصفور المذعور وتلطم وجهها بشكل لا إرادي وتتبول على نفسها، منظرها كسر قلبي ولم أملك نفسي.. حاولت أن أتحاشى منظرها لكنها كانت مأساة قوية الحضور.

تساءلت كيف تكون صالحة التي لم تر في حياتها سوى وجهك أيها الشيخ الهرم.. عاهرة وزانية.. أم أن تلك الصفات باتت من المسلمات التي لا بد أن تكونها كل صالحة إذا ما حاولت أن تعبّر عن امتعاضها من الظلم!! كيف تكون التهمة بارتكاب الخطيئة مشاعة على كل لسان إذا ما كان الثائر امرأة فهي إما زانية أو مشروع زانية ولا يجب أن تخرج عن هذه الحلقة المفرغة من الاتهامات.. أي قلب هو الذي بين أضلعك يا صالحة.. حتى لا يكون لك في الحياة من أمل.. تبحثين عن الموت في كل مكان وتتجرعينه بحساب الوقت والزمان.. أمك تقول بأنك بيتوتية ولا تحبين الاجتماعات، وأختك تصمت عندما نسأل عنك.. وفي زواج والدك كنتِ كالخيال من الإنسان نحافة مفرطة، وشحوب، وابتسامة لا مكان لها من الحقيقة.. حاولت أن اقترب منك لكن الخوف من ردة فعلك هي التي منعتني.. اعذريني يا زهرة الذبول.. فلم أعلم أن تحت صمتك كل هذه المأساة.. كانت النسوة يتبادلن الاتهامات لصالحة في صباح اليوم الثاني وأولى المتحدثات هي جارتنا «سعدية».

ـ الله يصيح عليها قليلة الأدب يوم صوتها واصل آخر الدنيا تقولين والد أقول اختلفنه بنات اليوم ما عاد إلا تهاويل.. ودي والله إن ودي يكون بوها ذبحها.

ـ أمي: ماريتي ذيك الثياب فوقها ذيك ثياب عاقلة

سيقانها عارية وشعرها عاري والله إن الموت خير لها من حياتها الله يعين أمها.

قلت في نفسي.. من أخبر المقهور الذي وصل به الاضطراب النفسي إلى درجة حالة صالحة أن عليه أن يلبس لباساً محتشمة قبل أن يسرق فرصة الهرب الوحيدة واستلام الموت.. هل كان عليك يا صالحة أن تراعي كل سخافاتهم وظلمهم حتى وأنتِ تخرجين من حالة العقل الواعي تحت تأثير الرغبة الجامحة في الموت.. ربما كتب عليك يا حواء ألا تضطرب نفسك وألا تثوري إلا بعد أن تتأكدي أن ذلك في حدود أصنام العادة والتقاليد.. تلك الليلة لم أستطع النوم، كان البكاء يخفق صوتي وأنا أتحدث مع فيصل عن حالة صالحة وما جرى لها، أخبرني أن بإمكاني مساعدتها فمسحت دموعي واعتدلت في جلستي وصرخت:

- كييف؟!

- تتصلين على جمعية حقوق الإنسان وتعطينهم المعلومات اللي عندك وأنا رح أساعدك في إرسال المشكلة عن طريق الفاكس أو الإيميل وهم يقومون بالإجراءات اللازمة.

- يعني ممكن يساعدوها غصب عن أهلها.

- إذا تأكدوا أنها تُعامل بشكل لا إنساني فعلاً وأن السبب في محاولات الانتحار بس معاملتهم أكيد رح يرفعون ولايتهم عنها ويساعدون على علاجها.

ـ يالله يا فيصل أخيراً فيه أحد ممكن يسمع صوتنا.

ـ الجمعية رغم حداثة مزاولتها لعملها في الداخل إلا أنها أثبتت جدواها وقدرتها على العمل وبدأت تكسب ثقة المجتمع.

ـ بس وش الفايدة إذا كان عملها في النهاية يقتصر على الشجب والاستنكار من دون سلطات التنفيذ والقرار!!

ـ غالباً كل القضايا اللي تبنتها تسلط عليها الضوء وبالتالي التعامل معها كان أكثر دقة وموضوعية يعني مهمتها لحد الآن مازالت رقابية فقط.

ـ الله يخليك لي يا فيصل اتصل عليهم وابدأ إجراءاتك وأنا مستعدة أزودهم باسم المستشفى اللي نجت فيه من ثلاث محاولات انتحار ومكانك سر!.. وهم عن طريق التقارير الطبية رح يتأكدوا إنها كانت تبغى أحد يسمع صوتها ولو عن طريق عزرائيل.

ـ خلاص يا حياتي بكرة أوعدك أروح بنفسي لمقر الجمعية وأقدم لهم البلاغ ورح نكون على اتصال بك عشان يسجلون إفادتك.

ـ فيصل قول آمين.. الله يسعد الإنسان اللي في داخلك..

مرّ أسبوع واحد منذ أن بدأت مع فيصل رحلة النصرة

لصالحة في وجه استبداد ذويها وبعد جمع المعلومات اللازمة قدم وفد من الجمعية ومعهم إذن دخول إلى البيت للاطلاع على حالة صالحة الصحية والنفسية وكتابة التقرير.. تماماً كما توقعت لم يمض سوى أسبوع آخر حتى تمّ نقل صالحة إلى المصحة النفسية بالطائف وتمّ رفع ولاية ولي أمرها عنها.. لا أدري هل ما فعلته كان لصالحها الآن.. فعلى الأقل ستتلقى العلاج المناسب والتأهيل لعودة انخراطها في الحياة من جديد. أعلم يقيناً أن أهلها سيكونون آخر من يتمنى استقبالها في منزلهم بعد هذا، لكن ذلك ربما يؤثر على مدى فاعليتها في تلقي العلاج.. تحدث الكثير عن وشاية من «ابن حرام» وإبلاغ الجمعية لكن أحداً لم يفكر لو للحظة بأنه أنا من فعلت لذلك اطمأن قلبي إلى استقبال أم أحمد في الأسبوع الذي يليه كانت تدعو على من فعل بهم تلك الفعلة المشينة ومن لطخ باسم عائلتهم العريقة التراب.. وكان عليَّ أن أقول «آمين»!!.

كانت الأنباء عن حالة صالحة الصحية والنفسية تصلني باستمرار عن طريق فيصل الذي كان يتابع حالتها كأختٍ له ووعدني أن نقوم بزيارتها بعد الزواج بمشيئة الله.

أخبرني أنها تعاني من اكتئاب مزمن مع سلس في البول وفقدان للشهية وأنها تحظى بكل رعاية وتأهيل من أجل أن تستعيد قدرتها على الكلام بعد أن صمتت لأربع سنوات متتالية؟!

أبو أحمد أطلق الأيمان المغلظة بأنها إذا فكرت بالعودة إليه فسيكون الرشاش بانتظارها لأنها أصبحت وصمة عار يجب أن تُغسل عفواً «تُقتل» والقانون آخر من يسأل لم غسلت عارك الذي توهمت أيها الشيخ الأمي المتسلط القاتل.

فالجميع يحمل ثقافة غسل العار كابراً عن كابر، وهي ثقافة لا جدال فيها بل إن من يقوم بها يُعدّ بعدها بطلاً قومياً تُفتح له الأبواب وتمتد إليه الكفوف لتصافح يداً لطختها الدماء في احتفاء لا شعوري بالقدرة على السيطرة على النسق العام ووأد كل محاولات المساءلة والتفكير.

لذلك وأكثر لن يتوانى أبو أحمد أن يكون ذلك البطل المرتقب، فأصبح يكرر اسطوانته المكرورة في كل مناسبة ليحظى بأكبر قدر ممكن من القبول والعودة في نظره إلى السياق وبالتالي القدرة على نيل بناته فرصة للزواج فلا تثريب إذا كان مصير التي أفلتت من الزمام القتل إرضاءً لكل هذا الترسب العنصري المقدس.

كان خالي قد بدأ فرض أوامره غير القابلة للنقاش على زوجته الثانية وطلب منها أن ترتدي النقاب والقفازين إلى جانب العباءة التي تكون على الرأس وترك عملها كمترجمة مستقلة للغة الإنجليزية، لكن الذي لم يخطر على باله أنها لن تقبل كل ذلك وستحاول أن تثبت له أنها مسلمة

أيضاً بكل خصائصها السابقة، كان يعتقد أنها تحتاج إلى مثل أمي «لتعقلها» وتعلمها أن العرف هنا أقدس من الاعتبارات الأخرى، وأن المرأة العاقلة هي فقط تلك التي تنفذ كل ما يطلب منها دون شرط أو قيد، وأن كل محاولة للاحتجاج هي خطأ جسيم يجب أن تعاقب عليه لأنها ناشز!! هكذا كانت أمي تُكيل الاتهامات «لأمينة» زوجة خالي وهي لا تملك الردّ على كل ذلك القذف حتى من دون أي أفعال تذكر.. لمحتها من غرفتي وهي تحاول أن تجمع كل ما تستطيع من قدراتها على الدفاع فانطلقت إليها وكأنني أحاول منعها من قول المزيد، لقد كان آخر ما أتمناه في حياتي أن أطالب في لحظة عجز عن كل الحلول بالصمت نعم لقد طلبت منها أن تصمت في الوقت الذي كنت أتبنى وبقوة حرية التعبير والتفكير واحترام الرأي الآخر لكن ذلك كله لم يكن شيئاً أمام زوجة خالي التي أعجزني الحال عن مجاراتها واستيضاح الأمور.

ـ مش معقولة يا سحر اللي بيعمله خالك ده هوه المسلم الوحيد وإلا إيه؟!

ـ لا ما هو المسلم الوحيد لكنه الحنبلي الوحيد وعبد العادة والتقاليد مشي حالك يا أمنية وحاولي تتأقلمي مع الوضع.

ـ أنتي تقصدي أسيب شغلي وأقعد له في البيت زي

البخت المايل هو إيه ما بيرحمش ولا يسبش رحمة ربنا تنزل.

ـ أنتِ وافقتي عليه من الأول تحملي نتيجة قرارك وإذا ما قدرتي اختاري نفسك لأن العبودية أكبر همومي اليوم.

ـ أنا وافئت يا سحر لما هو وعدني أن كل اللي اتفقنا عليه حيتنفذ السكن والشغل والنفقة وكل حقوقي.

ـ إذا كان قالها كلام بس فإحنا أكثر شعوب الأرض اتقاناً للكلام اللي في الهواء، أما إذا سجل شروطك في العقد فلك الحق في المطالبة بفسخ العقد لأن المسلمين على شروطهم.

ـ المسلمين دانتو أتالين أتلا..

ـ حرام يا أمينة والله لو عليه كنت حطيتك على رأسي المشكلة إنك ما عندك أي فكرة عن حياة الجنوب السعودي هو ما يختلف عن صرامة العُرف في الجنوب المصري عندهم ثار وشعوذة وجهل وعندنا تشدد وإقصاء للمرأة وفقر وجهل.. يعني كلنا في الهم جنوب.

ـ أنا مش عايزة أغطي وشي ولا عايزة أتعامل زي البقرة أنا عايزة أبئا زي ما كنت.. وإلا حأرقع بلدي تاني ما هو مش معقول اللي بيجرى لي ده دنا باتعامل زي مأكون جارية عنده..

كنت قد تذكرت أن خالي يعتبر صفع خالتي عندما

تفتح له الباب متأخرة هو نوع من الشكر على التأخير! بينما يعتبر الجلوس مع المرأة في ذات المجلس تقليلاً من قيمته فيخصص لنفسه مجلساً في وسط المنزل يسمى مجلس الرجال فقط يجلس فيه مع أولاده الذكور ولا يمكن أن يأكل مع خالتي وبناتها في نفس المكان ربما حتى لا تحصل النجاسة فيما يأكله ذلك الداعية الهُمام فيؤثر ذلك في صفاء سريرته ويدخله إلى متاهات الفتنة فيصبح خطابه الدعوي فاسداً لأنه قام بلمس النساء ولم يتطهر بعد!

حاولت أمينة التأقلم مع وضعها الجديد وتقبّلت كونها بلا عمل لكن الذي لم تقبله هي الحكايات الطويلة بينها وبين خالتي ضرتها التي تتقاسم معها نفس المائدة للأكل.

وبالتالي كان السفر لزيارة أهلها في الإسكندرية ليس حلاً مستبعداً بالنسبة لي، هناك ستفعل ما كان يجب أن تفعله منذ شهرين مضت هي عمر زواجها بخالي.

كل شيء يمكن أن تحتمله إلا اجتماعك مع شخص جاهل في مكان واحد يجبرك نمط الحياة على التعامل معه في كل شيء.. فقد تضطر مكرهاً على اقتلاع رأسك كلما هممت بالحديث معه!! في الواقع كانت هذه أكثر الأمور التي اعتدت على ممارستها لكن أمينة لم تكن لتتقن شيئاً تملك من دونه الكثير من الحلول قبل أن تُسلم رأسها إلى من لا يرحمه.

وفي الحقيقة فرحت كثيراً لجرأتها في اتخاذ القرار فليس خالي الرجل الذي تندب النساء حظهن على ضياع نظرة منه!! فهو حتى لا يتقن نطق كلمة «أحبك» ويعتبرها من أكبر الخروقات لبروتوكول الرجولة المزعوم وهي في نظره نوع من الهزل الذي ينبغي ألا يكون لأن النساء من ضلع أعوج متى ما اعتاج لها لسانك فستخرب مالطة والصين أيضاً!!.

كان خالي قد شعر بالغبن نتيجة ما فعلته زوجته التي خلعته بمجرد وصولها إلى بلدها، فليس هو من يُخلع كما يقول لذلك ونكاية بها فقد أحرق كل ملابسها وبقية ممتلكاتها البسيطة التي بقيت عنده في إشارة واضحة جداً إلى احترامه لميثاق الزواج والمعاشرة بالحسنى والتسريح بالحسنى أيضاً يا له من داعية!!

أما سعيد فقد واصل تمرده وخيباته الطويلة حتى في السجن الذي نُقل إليه للعلاج في جدة عندما تحدث إلى أمي في المرة الأخيرة نعتني بأقبح أنواع النعوت وطلب مني دعوة أمي لمحادثته.

بعد أن أغلقت أمي السماعة كانت البشرى تعلو وجهها فاستغربت أن يكون لهذا الشخص القدرة على استدرار ابتسامة ما من فم أحدهم ولو حتى بالخطأ فسألتها:

ـ أمي عسى خير أشوفك مبسوطة وش يقول عنتر زمانه؟!

ـ خوك صار يحافظ على صلاته ويأخذ دواه وإن شاء الله ربك عوضني وأصلحه الله يسعدهم في السجن يجيبون لهم دعاة ومشايخ الله يوفقه ويصلحه آمين.

ـ أنا أشوف إن سعيد محتاج أخصائي نفسي وخبير في العلاقات الأسرية مو مشايخ يمه وإلا أنتِ وش فهمك وش قصدي.. تدرين الحمد لله كل اللي قلته يبشر بالخير.

كنت قد انتهيت من إحدى لوحاتي التي أسميتها «شمعة في الريح» وقمت بتغليفها تأهباً لزيارة فيصل إلى مدينتي مع فريقه الإعلامي لإحدى تغطيات برنامجه الأسبوعي، كما قمت بتجهيز أول ديوان شعري لي عندما وعدني فيصل بطباعته في أحد المطابع التابعة لوالده، كم كان لقاؤنا رائعاً عند الغروب وفوق الجبال!! شعرت للحظة أن قيساً لم يبارح جبال الجنوب ومازال يرتادها متأبطاً حبه العميق وذكرياته الدافئة وشِعرهُ الرصين ونظراته المليئة بالطموح والأصالة، كان فيصل يضحك بقوة من منظري وأنا متدثرة بكل أنواع الملابس حتى لا يفتضح أمري وتسري سمعتي على كل لسان، ومع كل تلك الملابس تأبطت اللوحة والهدايا.. وكنت أمسك بالهدية التي أهداها لي فبدا منظري فنتازياً حقاً!

تبادلنا النظرات والصمت كثيراً لكنه أروع أنواع الصمت عندما تخرسك مشاعر لست قادراً على وصفها ولا حتى اللحاق بسرعة أنفاسك وتوارد أفكارك فتفضل التأمل الصامت في وجه من تحب..

ـ آه يا سحر متى أقدر أبوسك؟!

ـ قريب أنا سمعت أخبار حلوة عن سعيد.. يمكن يطلع بعد رمضان أو عند الحج..

ـ من الأحلى أنتِ وإلا الأرض؟!

ـ أنا الأرض يا فيصل..

ـ أحبِّك..يا وطني

ـ أحبَّك..

ـ ظنك لو أحد يلقانا في ها الجبل اللي مدري كيف قدرت أوصل له وش يسوي لنا؟!

ـ السجن وأنواع العذاب في انتظارنا.. لا تفكّر بشكل سيىء أنا أوهامي ممكن تقتل لحظاتي الحلوة.

ـ ممكن تتناقش الليلة على قصائد الديوان استعداد لطباعته.

ـ ممكن ليه لا؟! يا أجمل وأول وآخر قصائدي يا فيصل..

ودّعته وأنا مفعمة بالشوق كان الجو في قمة الروعة، النسيم يحيط بنا من كل اتجاه وحرارة الدفء في يد فيصل لم نفارق لديَّ.. آه كم كان لقاؤه رائعاً ومهماً بالنسبة لي.. كان لقاءً مسروقاً بمعنى الكلمة من الزمن والمجتمع ومني ومن فيصل ذاته.. بقي يراقبني حتى نزلت من ذلك الجبل البعيد وطفقت أحثّ الخطى إلى منزلنا في خوف واضح من كل ذي عين.. وكنت قد أعددت الأعذار فإذا ما سألني أحد فسأقول بأنني كنت أبحث عن أغنام أمي التي تاهت عن بقية القطيع ولم أجدها!

لكن لحسن حظي أنني وصلت ولم يشاهدني أحد، كان فيصل يتواصل معي على الهاتف المحمول حتى دخلت إلى المنزل وأنا أرتجف من أقوى مغامرة قمت بها في حياتي وبعد أن وصلت أخبرته بأنه في الجبال يزداد وسامة وألقاً.. وأنني أقدّر فيه تلك الرجولة والأخلاق البدوية حين شعرت أنه كان يحميني حتى منه.

وقضينا ليلة حالمة من الشعر والرسم والتفكير والأفكار والقصائد التي يقرؤها فيصل وأنا أفسرها له بقصائد أخرى، كنت قد أسميت الديوان «بكائيات سجينة الغربة.. قصة حب لا تنتهي» كنت وفيصل قد اتفقنا على إقامة معرض أول للوحاتي بعد الزواج.

حينها شعرت أن باب الحياة قد فُتح ولن يُغلق

بعدها.. أحببت كل لحظة قضيتها في سماع صوته وتمنيت أن يطول الليل بعد أن كنت أتمنى سرعة انقضائه قبل أربعة أشهر من الآن.. حلّقت مع فيصل في فضاءات لطالما اغتربت عنها وكان الحب طائرنا الذي لا يتعب ولا يُحب النعاس.. صنعنا للمكان روعة لا يعرفها سوى نسيم الجنوب وجبالها الشامخة رغم ألم النسيان وجفوة الحرمان، كانت أماكن محمد عبده هي الجبال هذه المرة، وعندما تكون الأماكن شامخة شموخ جبال السروات فسيكون لها طعم آخر لا ينافسها فيه سوى قلب فيصل الذي يخفق في داخلي حنيناً إليها.

رتّب فيصل كل أمور الزواج واشترى فيلا صغيرة لا تبعد كثيراً عن منزل أسرته، كان قد صور لي غرفة النوم المغرقة بالحب الذي يكاد أن ينطق رغم خرس الجدران.. كتب اسمه واسمي باللغتين العربية والإنجليزية على أحد الجدران وكان لا يطيب له التحدث معي سوى في داخل عُشنا الصغير كما أسماه.. ليالينا لم تكن عادية أبداً لقد كانت هالة من الحلم الذي يغازل الجنون فيصنع لها حلاوة لا تضاهيها حلاوة النوم في شيء.

أخبرني أن كلمة المرور في كل من جواله وكمبيوتره وحتى إيميله الخاص هي حروف اسمي وتاريخ ميلادي.. مرت الأيام دون أن نشعر بها لأننا لم نتوقف لحظة واحدة لحساب الوقت.. نستعجل اللقاء ونصنع الأمل ونحتسي

الفرح.. ويغمرنا الحب فنغرق بكل سعادة.. ونطلب المزيد المزيد.. هكذا هم العاشقون وهكذا كنت أنا وفيصل.

كنتُ أقلب صفحات مذكراتي اليومية والريح تغالب الصفحات فأمسك الدفتر بكل قوة لأتمكن من السير على كل جروحي وأتهجى كل حروفي رغم كل هذا الظلام..أفتحه صفحة..صفحة.. وفي كل كلمة أعود بلا خوف.

الفصل الحادي عشر

سطوري في هواك اليوم هائمة

تنداحُ سكرى بلا خمرٍ ولا كأسِ..

لاكت ببوح الشوق أوردتي..

حبراً يسيل على الأوراق من يأسي..

وانهال سوط من الأشواق في كفي..

شعراً يحيل الروح للرمسِ.

فإذا سمعت بموتي بين أشرعتي..

فاعلم بأن جزاء النَّفسَ بالنَّفسِ..

27/رمضان 1427

كان الجو غائماً والبرد يكاد يتغلغل إلى أعماقي المنكسرة لأنه لا يمكننا حتى شراء «دفاية» بينما ينعم الجميع حولنا بالتكييف المركزي!! ليس هذا ما أثار الرعشة في عظامي وجسدي كله فما أثارها كان شيئاً لم يُحسب له في الحسبان أيه حسابات، كانت الساعة تشير إلى الثامنة بعد تناول طعام الإفطار وعندما كان الجميع يتأهبون لأداء

صلاة التراويح طرق الباب في مثل هذا الوقت غريب جداً فحتى أكثر الزيارات جرأة في قريتنا كان في وقت العصر إلى قرب المغرب.. إذاً من سيأتي في هذه الساعة.. وقفت كثيراً أمام الباب قبل أن استجمع قواي لنطق كلمة «مين؟!» لكن أحداً لم يتكلم. الأنفاس والحركة المريبة أمام الباب تنبؤك أن من خلفه ليس سوى شخص لا يخاف أن يشاهده أحد من المارة المتجهين لأداء الصلاة»

ـ مين؟! مرة أخرى أكثر ارتجافاً ورهبة من الأولى..

ـ افتحي الباب يا زفت؟!

زفت أين سمعت باسم الدلع هذا من قبل؟! إنه قبل ستة أشهر من الآن فقط.. هل يُعقل أن يكون هذا سعيد؟!

ـ سعيد..!!

ـ ايه سعيد وإلا مانا عاجبك افتحي بسرعة يا زفت!!

فتحت الباب وأنا أتجهز بكل جوانحي لأكبر لكمة في تاريخ رياضة الملاكمة خارج الحلبة.. لكن شيئاً من ذلك لم يكن فقط تعبيسةٌ وذهول، كان ذهولي أنا أكبر أولاً لأنه لم يصفعني ثانياً لأنه نحل كثيراً وربى لحية كثيفة تشبه لحى أصحاب الكهف غير مهذبة أبداً فقط تنمو بشكل عشوائي على كل مكان في وجهه.. لم يقل السلام ولم أكلف نفسي عناء الرد لأنه لا سلام!!

أسرعت إلى أمي لأخبرها بالنبأ الذي لن تسعد لمثله

أبداً لقد عاد الشبل الهمام بعد أن شمله العفو في برنامج سنوي يتم فيه إخلاء سبيل السجناء الذين يُتمون حفظ أجزاء معينة من القرآن وبناءً على حسن سيرتهم وسلوكهم، أشك أن سعيد كان كذلك لكن «عش رجباً ترى عجباً» هذا ما كنت أردده حين سمعته يحكي لأمي حكاياته الطويلة عن الالتزام والمشايخ واللحية والثوب القصير والمواعظ والكرامات!!

كانت أمي مستبشرة جداً وتدعو له، لكنه لم يسأل عن أي واحدة من أخواتي حتى هناء التي غادر إلى السجن وهي متعبة جداً من كليتيها، كان آخر شيء يمكن أن يهمّ سعيد هو أخواته.. كان حدسي يثير شكوكي القوية تجاه كل هذا التغيير الذي طرأ على سعيد.. ولماذا لم يعاقبني وأنا التي أدخلته إلى هناك لماذا لم يسأل عن خالي؟! لماذا يصطنع الصمت والوقار لماذا لم يذهب إلى صلاة العشاء رغم هذه اللحية!! حتى لم يصلها في البيت لقد سلم على أمي ثم خلد إلى النوم بعد أن طلب عدم إيقاظه للسحور.

كنت خائفة جداً أن يلاحظ استعماري لغرفته في غيابه فأسررت لإيمان بذلك التي اعترفت لي هي وسناء بسرقتهن لبعض أشرطة السي دي من غرفته على أمل أن تكون أفلاماً لكنهن بعد أن شاهدنها لم يهنأ لهن بال منذ تلك الليلة عندما كنت أنا إلى جانب أمي في المستشفى لقد كانت أشرطة لأشخاص يمارسون الجنس واعترفت إيمان وسناء أنهن للمرة الأولى في حياتهن يرين عضو الرجل.. قالت

إيمان بأنه فاجعة في حين صمتت سناء لأنها لم تستطع التعبير.. أشفقت كثيراً على حالهن لأن موضوعاً حساساً كالجنس حينما يغيب عن فتاة أصبحت في الثالثة والعشرين من عمرها دون أن يُشرح لها بشكل سليم ثم يأتي عن طريق الصدمة فلن يمرّ بهدوء دون أن يبعثر الكثير من الأشياء في داخلها.. إذاً لم أكن الوحيدة التي طالت يدي على أغراضه فعلى الأقل الموت مع الجماعة رحمة..عقدنا العزم على أن نتفق على إجابة عند سؤله لنا بأن ذلك التغير الطفيف لم يكن سوى بحث عن كرت العائلة عندما احتاجته إيمان لأخذ صورة عنه للكلية وأن أمي هي من قامت بهذه العملية نيابةً عنا، في الواقع لقد كانت المرة الأولى في حياتي التي اتفق فيها مع أخواتي جميعهن في شيء ما، لكن وللأسف الشديد كان هذا الشيء الوحيد هو الكذب!!

في اليوم التالي كان واضحاً أن هدوء سعيد البارحة كان هدوء ما قبل العاصفة تماماً.. استيقظ مبكراً ومزاجه في قمة السوء.. كان يشتم أمي كما اعتدنا لكنه شتم من نوع آخر هذه المرة إنه يلومها على سماعها لكلام خالي وأنه فضحه على كل لسان وأنه سيرد الدين إلى كل من أساء له، لم يكن فيصل من ضمن الأمور التي استعد لها لذلك اطمأن قلبي وأنا أتحدث إلى فيصل في هاتفي المحمول وأخبره بعودة سعيد كانت فرحة فيصل لا توصف فقد أصبح بإمكاننا عقد القران الآن.

وبعدها لا يهمني إذا كان سعيد سيقتل خالي أو سيشنقه.. أخبرني فيصل بأنه سيأتي إلى الخميس لمقابلته في العيد والتعرف إليه وأصبحنا نعدّ الأيام والدقائق بل وحتى الثواني..

في الخارج هناك كان الجميع يستبشر بالتغيرات الرائعة على سعيد قالت جارتنا أم أحمد بأنه حفظ القرآن كاملاً!! وقالت أخرى أنه أصبح لا ينام الليل متهجداً.. أما الرجال فقد قدّموه في الإمامة وأطلقوا عليه لقب الشيخ سعيد العائد إلى دروب الأمان وإلى حضن النسق وإلى دوحة الإيمان!!

أما سعيد فقد صدّق كل ما حوله وبات يحرص على تقصير ثوبه وإطلاق العنان للحيته ويكثر من ذكر اسم الله والاستغفار فقط عندما يكون ماشياً في الشارع.. أعجبه المسواك أيضاً فبات يقتني أفضل الأنواع.. أخبروه عن العودة والمشلح فلم يقصّر اقتنى نوعاً فاخراً من العودة.. ومشلحاً لأوقات الفزعة!!

عاش سعيد الدور وهو في قمة السعادة من غباء المجتمع الذي يقدس المظاهر.. فساعده ذلك على الانتقام من خالي في وقت الذروة فعندما اعتلى سلم أمجادهم المتوهمة دعاه خالي إلى بيته وقدم له القهوة بعد أن كان يكيل له الضربات واللعنات ويشتمه بابن الحرام!! وبعد

مقدمات غزلية طويلة قدّم له حبيبته القديمة على طبق من ذهب.. وقال بلا أدنى تردد.. أنا أزوجك نادية!! لكن الذي لم يخطر على باله أن سعيد خرج من السجن محملاً بالكثير من الحقد على كل شيء ولم يكن حظ خالي من ذلك قليلاً رفضها بكل صراحة وقال إنه لا يفكر في الزواج وسيتفرغ للدعوة!!

لكن العيد بالنسبة لي كان مأساة جديدة لم تخطر لي على بال فحتى أنا بدأت أصدق مثاليات سعيد والملاك الذي التبسه في الخارج.. كانت صبيحة عيد الفطر كالسهم الذي اخترق قلبي وأدماه أعددت وفيصل لقاءً رائعاً وطلبت منه القدوم بعد أن تحدث إلى خالي وطلب مقابلته إلى جانب سعيد.

كنت أرتدي ملابسي وأضع الماكياج وأحلّق مع أحلامي.. فاليوم فقط سأودع حياة العبودية وسأصبح ملك نفسي كما أرتضي لها كائناً كامل الأهلية والحقوق، كان فيصل يجلس في المجلس وأنا أقدم الشاي إلى خالي الذي بدا مكفهراً على عادته فلم أعر ذلك اهتماماً فهي عادة دائمة لخالي إن وجهه في الحقيقة لا يعرف العيد.. في الواقع أصبح الجميع لا يعرفون العيد لقد مات منذ سنين، مات بكل ألوانه وبهجته ولا زال المسؤول عن قتله هو نفس المسؤول عن تقديسه وإفراده بالفرح استشعاراً لشكر الله على نعمة الصوم.. كانت دقائق تمنيت أن لا أعيشها أبداً..

صوت سعيد يرتفع بالصراخ وفيصل يطلب منه الهدوء.. استجمعت قواي واقتربت من النافذة أكثر هل ما أسمعه صحيح!!

ـ اطلع برا من بيتي أنا ما عندي أخوات للزواج ما عاد إلا هي أنا على آخر عمري أزوج أختي لواحد آخر اسمه «با» إلا على فكرة أنت تعرف أصلك يا شخص!!

ـ أخ سعيد احترم نفسك وما فيه داعي للغلط أنا ولد عائلة محترمة وأهلي ناس طيبين ويعرفون ربهم..

ـ أقول رح يا طرش البحر.. تلاقي أمك لاقطتك من أقرب زبالة يا خكري..

ـ أنا لا يمكن أقدر أتفاهم معك وأنت عنصري بالشكل هذا أتوقع إننا جميعاً نشترك في كوننا إنسان أبسط حقوقه عدم التمييز.

ـ عدم التمييز مسوي لي فيها مثقف يا اليماني أقول رح أقلب وجهك لا أطلعك بالعقال الحين وتراني رجال وولد قبايل وأسويها..

ترك فيصل المجلس وخرج غاضباً ركب سيارته وغادر.. أستطيع القول إن الحياة غادرت معه.. لم أتمالك نفسي وأغمي علي وأنا في مكاني.. بالجرم المشهود وهو التصنت على الرجال يا للعار!! الكثير من الأصوات والأشخاص والدعاء.. أسمع بعضاً ويغيب البعض لا أدري

أين أنا لا أستطيع التمييز بين الوجوه، كانت الحمى تستعر في جسمي واسم فيصل لا يفارق لساني..وللمرة الأولى أركّز على اسم فيصل لقد أنساني الحب إنه «فيصل باشنَّان» وأنني ابنة القبيلة المقدسة!.

مرت ثلاث ليال لا أشعر فيها بسوى الفراغ.. كأن روحي قد خرجت للتو وأنا أرقبها استشعرت قوله تعالى ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ لقد كان هذا ما أشعر به حتماً خوف رهيب وفزع من كل شيء حولي، ما أسرع تبدل الأحوال، كان فيصل دائم الاتصال بي لكن ألمي والحمى منعتني من الرد على مكالماته.

وفي الليلة الرابعة في مكاني على السطح حيث يحلو البكاء.. كان فيصل يبكي على الطرف الآخر ويعدني الوعود الكثيرة وأنا أغرق في يأسي من جديد.. لم أتمالك نفسي وشعرت أن الموت يستعمر أوصالي، وعدته أنا أكثر وقضينا ليلتنا في النحيب لكن الذي لم نحسب له هو كيف يعد العبيد.. كيف يقطعون وعوداً هم غير قادرين على الوفاء بها.. إنهم حتى غير قادرين على حب بعضهم أمام الأعين فكيف بالوصال.. طلب مني فيصل أن أقابله قبل سفره للرياض في نفس المكان لكن سوء حالتي الصحية منعتني من ذلك وشعوري بأنني سأفعل المحظور حال دون ذلك بشكل أكيد.. طلبته أن يسافر.. وأن يعود بعد أن أكون في حال أفضل.. مضى أسبوع آخر وأنا معلقة بين الأرض

والسماء.. لا أدري إلى أين تتجه بي حياتي ولا ما الذي يحصل من حولي.. أعيش بجسدي بينهم وروحي تجري في جسد فيصل.. ملامحي يكسوها الحزن وصوتي تخنقه العبرات..

حاولت أن يفعل خالي شيئاً لكن استئساد سعيد كان قد قضى على كل أمل لقد عاقبه برفضه الزواج من نادية.. وزيادة في التنكيل توجّه بكل ثقة إلى عريفة القرية الذي كان ذات يوم يبصق في وجهه ويصفه «بالسكرجي» ليستقبله اليوم في بيته بمرتبة شيخ!! ويقدمه على ضيوفه ويذبح له أشهى الولائم!! غريب هذا المجتمع الذي يغدق على الرجل كل أنواع الأصالة حين يظهر التوبة رياء أو يفعلها بشكل صحيح.. في حين لا يكون للمرأة من ذلك الهباء نصيب.. ليس لها الحق في الخطأ أصلاً لذلك فإن الموت أو النسيان مصيرها عند الخطأ.. لا يفتح لها باب ولا يُقتل منها كلام.. هي معزولة عنه دون أن تخطئ.. ومحرومة منه بعد أن تخطئ.. في الواقع هي خطيئة تمشي على الأرض وفتنة لا بد من إخمادها.. ولعنة لا بد من اجتنابها.. وبلاء لا بد من الصبر عليه.. ومصيبة لا بد من الدعاء بانجلائها.

بعد ثلاثة أسابيع من توجه الشيخ سعيد إلى منزل عريفة بالقرية كان الخبر يسري كالنار في الهشيم.. سعيد وزواجه من «أميرة» بنت أفضل رجال القرية والجامعية التي تستعد للتدريس!! تتزوج الشيخ الذي لا يملك سوى شهادة

الثانوية العامة التي حصل عليها بشق الأنفس لأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه ولأن الشيخ يملك العصمة من كل أخطاء ابن آدم ولأن المرأة «ما لها في النهاية إلا زوجها وبيتها».

هكذا إذاً تأتي الدنيا مُفعمة بالظلم من حيث يصفق لها الجميع وتأتي المباركات من كل مكان هو يعطل أخته ويمنعها من الزواج ممن تريد ثم يتزوج بأفضل بنات القرية كما يريد!! هكذا هي عدالة المجتمع الذكوري التي أقرّها ميثاق لا تُحَّل له عروة ولا يُسأل له نزوة.. لكن الذي لم يخطر على بالي أبداً هو ما خطّط له سعيد حتى قبل خروجه من السجن إنه أراد بكل بساطة أن يجعل الفرحة فرحتين فقد كنت آخر من يعلم أنني لن أكون سوى العروس الأخرى في تلك الليلة الحالمة!! وأن زوج المستقبل لن يكون سوى أحد المشايخ الذين زاروا سعيداً وهدوه إلى طريق الصواب فكنت أنا الطريقة المناسبة لذلك الشاب الوديع أن يقول بها لشيخه ذي النسوة الثلاث شكراً!!

نعم لم أكن سوى هدية متواضعة لرجل لا يعرف كم عدد أطفاله من كثرتهم.. أن أفجع في فراق حبيبي وأبقى على أمل تغير الأمور والعودة إليه فهي مصيبة لا بأس بها.. لكن أن تجتمع معها فجيعة زواجي من رجل لا أريده ولا أعرفه ولا أتمناه حتى في أسوأ الكوابيس فهي فجيعة أخرى لا يمكن أن أقف أمامها مكتوفة الأيدي أنتظر المصير.. كُنت أشكو لأمي فتكرر أنه أخي وأدرى بمصلحتي وأن

الرجل الذي اختاره هو أفضل الرجال خلقاً وديناً.. لكن الذي أراه أنه أفضل البدناء وزناً إن كرشه يتدلى أمامه بشكل مقزز ولحيته كثة بشكل مؤذٍ، كان هذا ما بقي في بالي من صورته عندما أجبرت على الخروج اليه لرؤيتي!!

يا للسعادة من فرط ثقته بنفسه يطلب هو رؤيتي دون أن يكون هناك «رؤيتي أنا له» فبالأخير أنا مجرد امرأة لا يُعتد لها برأي حين يكون هنا رضا من السيد.

كان موعد الزواج بعد أسبوع.. قضيته كالمجنونة أبحث عن مخرج لمصيبتي فلا أجد سوى التأييد لما يفعله سعيد.. إنهم يتحدثون عن مهر غالٍ ومنزل مستقل والكثير من الذهب..

- نادية: احمدي ربك أنتِ أحسن من غيرك الرجال مقتدر والله عاطيه ويبغى يعدّد وش المانع؟!»»

- إنت شايفة إني أبغى أكون أحسن من غيري أنا بس ما أبغى أكون رقم 4 ولا حتى صفر.. أنا ما أبي أتزوج من الأصل.

- مصيبتك أهون أنا اللي كُش في وجهي أنا وحظي المايل يوم صار شيخ تركني وراح يتزوج غيري.

- والله المفروض تسجدين سجود الشكر على ضياع هذا النحس عنك يا غبية.. تدرين الكلام معك زي عدمه مع السلامة.

تحدثت مع فيصل الذي سرى عني حزني كثيراً وأقنعني بعدم الهرب الذي كان حلي الأخير، أخبرني بأنه سينتظرني مهما طال الزمان وأن الزواج من غيره لن يؤثر على حبه لي أبداً.. أخبرني بأن مرام ستحضر زفافي لتكون إلى جانبي في تلك الأزمة وهو وقلبه وروحه دائماً إلى جانبي.. رجاني أن لا أوذي نفسي وأن أكون الفتاة العاقلة التي أحبها وأحب وعيها وقدرتها على تجاوز مشاكلها.

قبل زواجي الإجباري بيومين دخلت على سعيد في غرفته وهو يستمع إلى أغنية لخالد عبد الرحمن ارتبك كثيراً حيث لم أستطع تمييز الأغنية وأطفأ المسجل ورفع صوته «استغفر الله العظيم الله يلعنك يا» لم يكمل فسلمت عليه ثم نظر إليّ شزراً وقال:

ـ أشرطة قديمة أسمع وش فيها عشان أكسرها!!

يا للعجب لقد كان في منتهى الاستمتاع وشكله يوحي بالإنصات إلى كل كلمة ثم ماذا هل كان يعبدني هذا الجاهل أنا حتى لم أسأله عن شيء!! فقط أريد الحديث معه.. لذلك بادرت:

ـ سعيد هذا إنت تعرف الحب وتسمع له حرام عليك ليش تحرمني من إنسان أحبه ويحبني وتزوجني واحد أنا ما أبغاه.

ـ أقلبي وجهك إنت والحب وقلة الأدب أنا ما عندي

أخوات يحبون قبل الزواج.. وبتتزوجين حمدان يعني بتتزوجينه.

ـ والله ما أتزوجه لو على موتي يا مجرم يا كلب.. ما هو على كيفك تتحكم فيني والله لأتصل في المفتي وأشكي له..

ـ يعني بتتحديني يا سحر.. أنا أوريك لسانك هذا والله لأقطعه لعنك الله يا الخسيسة.. يا..

لم أتمالك نفسي من الخوف لقد أمسك بمكنسة يدوية كانت إلى جانبه وأخذ يطاردني هربت لا أدري إلى أين أذهب فتحت باب غرفة إيمان وسناء ودخلت مسرعة وهو يلحق بي ثم هوى بتلك المكنسة على كل جزء من جسمي وأخذ يضربني بكل قسوة وأنا أصرخ، وبعد أن بدأت أفقد قدرتي على الصراخ لمحت إيمان تتوسل إليه أن يكمل الضرب في جسمها عني.. وتجعل ظهرها دوني وتردد..

ـ خلاص يا سعيد أترجاك سحر بتموت الله يوفقك أضربني أنا خلاص بتتزوج بتتزوج بتسوي أي شيء إنت تبغاه خلاص حرام عليك.. الله يوفقك.. كانت تقبل أقدامه في منظر لا يمكن أن أنساه.. تراجع كالوحش الذي يئس من ضحيته.. وتوجه إلى غرفتي.. بعثر كل أشيائي ومزق كل أوراقي وفتش كل شيء فيها.. أخذ رسائل فيصل وهداياه.. أخذني.. ولم يبق شيء.. كانت إيمان وسناء يُجرعنني الماء..

وأنا أكاد أفقد الوعي أنظر إلى عيون إيمان وهي تكفكف دمعها وأتساءل هل كانت تحبني كل هذا الوقت.. هل ستفديني بروحها إن استطاعت!! آه كم أتمنى أن أقبل كل دمعة من عينيها لكن الوهن أعجزني حتى عن شرب الماء نمت تلك الليلة كأجمل ما تكون العروس.. كدمات في كل مكان والكثير من الغزل حول عيني وفي خدي.. ما أسعدني من عروس وما أعذبها من ليلة!!

كان عليّ أن أبدو كالحمل الوديع وأن أستسلم لكل أنواع الذبح والسلخ والشنق والانتقام والنهايات لأحلامي.. آخر أحلامي في الحقيقة كان الزواج من شخص أختاره.

مرّ يومان وأنا أهز رأسي كالبلهاء.. «هذا فستان الزواج» وهذا حذاؤك «هذه المرأة هي التي ستضع لك الماكياج وتزيّن شعرك» هذا العقد سترتدينه في ليلة العمر «حسناً حسناً..».

لم يعد في داخلي قدرة على المقاومة لكن الذي لا أعرفه هو كيف سيقبل ذلك الحمدان على نفسه إن كان لديه بقية كرامة أن يتزوج من امرأة صرخت في وجهه من أول لقاء بأنها لا تريده لأنه يشبه الغوريلا.. هل كان فاقداً للثقة بنفسه إلى هذه الدرجة أم واثقاً منها إلى تلك الدرجة لا أدري أبداً.. سوى أنني أكرهه جداً جداً.

في يوم الزواج وفي الصباح كان عليّ أن أستيقظ

مبكراً الكثير من النساء والضيوف يملأون المنزل وسعيد يجرب مشلحه أمام المرآة ويُغني «اليوم طالع قامر» أتنقل بصمت بين الوجوه وأشعر أنني أحلم هل هذا يوم زواجي أنا.. وهل سأذهب إلى هناك بكل بساطة.. لحظات و«المملك» يجلس لإتمام عقد القران بيني وبين ذلك الوحش وعقد سعيد وأميرة.. في ذات الوقت.. استجمعت قواي وذهبت إلى أقرب النافذة أردت أن أقول بأنني لا أوافق حاولت لكن حنجرتي خانتني لقد كنت أضعف مما أتوقع.. إنه الخوف يكبّلنا في قيود العبودية فلا نستطيع الفكاك.. أتى سعيد إليّ بعدها وفي يده سجل وقال بكل قسوة:

ـ وقعي يا زفت..

ـ ما أبغى أوقع!! قلتها وأن ارتجف وأنظر إلى الأرض لأتمكن من نطقها كاملة.

ـ أقول وقعي يا بنت الكلب لا أسوطك بالعقال! لين تعرفين إن الله حق.

ـ الله حق واللي تسويه اسمه ظلم باطل.. استكبار في الأرض.

لكزني بقدمه في بطني وكدت أفقد روحي من الألم وأنا أبكي وأدعو عليه أن يسلط الله عليه من لا يرحمه أبداً.

ـ الله ما يستجيب دعاء الـ....!!

إنه يؤمّر نفسه حتى على الدعاء الذي يصعد إلى السماء يا له من ظالم! لقد زوّر توقيعي وتوجه بعدها الى مجلس الرجال بكل انتشاء.

وهناك كان حمدان يتلقى التهاني على الزواج المبارك والرفاء والبنين وأنا ألعنه كل مرة..

في الليل كانت الطبول تدق على رأسي وحلمي.. ومرام تمشي إلى جانبي والقاعة مليئة بالوجوه والنفاق والرعايا والبهائم والرعاع والمظلومين والمحرومين والشامتين أيضاً..

ـ وش تختارين زفة يا سوسو أنت تكملة العقد ولازم نكرمك.

«خالة حمدان في بهجة».

ـ أي شيء هي فرقت يعني ما كله خرابيط والسلام..

ـ شكلك متضايقة؟!

ـ لا أبد بأطير من السعادة.. مرام الله يخليك طلعي هذي البشر من عندي حاسة إني بختنق.

ـ مرام: سحر تماسكي فيصل وصاني عليك حياتك هي كل شيء يهمه والله حالته تكسر الخاطر.. حتى ما هو قادر يكمل كلامه.. عشان فيصل يا سحر خلي الليلة تعدي على خير وبعدين سوي اللي اتفقتوا عليه إنت وفيصل..

ـ هذا وحش يا مرام مقدر أطالع في وجهه وش يفكرني بضاعة ما يكفي ثلاث زوجات يعني؟! شوفي ضعفي عنده أخاف منه أخاف أخاف..

كان منظر أمي وأخواتي في منتهى السخف يتوهمن الفرح.. ولا تنفك أمي تؤلف قصائدها في سيد اللحظة والزمان والمكان سعيد الذي أصبح بقدرة قادر شيخاً يقربه أفضل رجال القرية.. بينما تذبح أخته على ذات الطريقة التي ذُبحت فيها زوجته أميرة مع بعض الرفق..

زفة ودفوف وابتسامات صفراء وزوجات ثلاث يكشرن عن أنياب الحقد والغيرة على الغوريلا الذي هن على ذمته لم العناء!! فلن أكون سوى ضحية رابعة لا تخفن سيداتي فلن آخذ منه شيئاً أبداً إنه حتى لا يخطر لي على بال..

انتهت الحفلة المشؤومة وابتدأ الهم الذي لا يُطاق كان عليّ أن احتمل منظر ابتسامته المليئة بالزفر إنه حتى لا يستطيع أن يفوِّت وجبة العشاء في يوم عرسه.. بالكاد يستطيع الدخول إلى السيارة وكلها تهتز من بدانته.. وبكل ضجيج الأرض..

ـ السلام عليكم..كيف الحال يا سحر!

ـ اممم........

ـ ليش ما تردين السلام خايفة مني؟!

ـ افففففف...

أشعر أن كرهي له سيقتله كان شكله في منتهى القبح..

ـ تعشيتي ولا أشتري لك عشاء؟!

ـ ما أبغى شيء أبغى أنام وبس؟!

ـ غالي والطلب رخيص بس كذه!! بتنامين إن شاء الله..

أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني وأن لا أكون مع هذا الشخص في سيارة واحدة رائحته كريهة حتى في يوم زفافه يبدو أن كل شيء عنده أصبح متبلداً.. عندما وصلنا إلى الفندق أعلنت الحرب وابتدأت المعركة.. كنت قد أقسمت أن لا يلمسني هذا الرجل أبداً حين أجبر على الزواج منه فلن يستطيع كائناً من كان أن يجبرني على النوم معه على سرير واحد..

إنه حتى لا يتقن من فنون اللباقة أي شيء يذكر كان مستعجلاً على كل شيء.. بدأ في خلع ملابسه حتى قبل أن أخلع عباءتي وأصلي العشاء نظرت إليه باشمئزاز أكثر وتمنيت أن يستر بدنه المليء بالشعر وكرشه المتدلي فعلى الأقل لا أشعر بالرغبة في التقيؤ إنه حتى لم بنتف إبطه يا للنظافة!!

أسرعت إلى الحمام لأتوضأ وبدأت في الصلاة التي

كانت أطول صلاة في حياتي كان يزمجر ويذهب ويعود كالثور.. وأنا أضع يدي على فؤادي واستحضر كلمات فيصل التي تكبسني القوة.

ـ خلاص كل هذي صلاة الله يثبتنا معك؟!

ـ نام وش وراك أنا بأنام في الصالة..

ـ أنا ما عندي دلع بتنامين معي وإنت زي الجزمة أنا حمدان ما ألعب!

كان العرق يتصبب من كل مكان في جسمي استجمعت قواي وأبطأت في خلع عباءتي ثم استغليت فرصة التفاته إلى السرير وهربت مسرعة إلى الحمام وأغلقته بالمفتاح وسقطت على الأرض غير مصدقة ما فعلت ونبضاتي أكاد أسمعها تخرج من فمي.. الحمد لله.. توعدته بالصراخ إذا ما فكر على إيذائي..

ـ اطلعي يا حرمه الحمام ما هو زين لك..

ـ أقلب وجهك يا دب يا كرشة يا حيوان يا معفن..

ـ الحق عليه طاوعتك وخليتك تصلين.. والله يا بكرة لأطلعها من قلبك..

ـ أتحداك يا غوريلا..

أشفقت كثيراً على حالي! ممددة على الأرض أحاول النوم عبثاً وأتساءل إن كان بإمكاني الهرب الآن أم لابد من

الانتظار إلى الصباح.. لكن شخيره المؤذي كان يصلني إلى الحمام.. وكأنه صوت قطار قديم.. قضيت تلك الليلة في التخطيط للهرب والكثير من الألم في كل جسمي أشعر بأنني محارب في معركة الحياة الطويلة تزداد أيامها ألماً وأحكامها قسوة وأبقى أقاومها بكل إيمان..

في الصباح كان يتوضأ لصلاة الفجر سمعته فانتبهت كان البرد يؤلمني في عظامي.. قال:

ـ أخرجي يا البزرة الشرهة ما هي عليك على اللي تزوجك ما أكون حمدان إن ما علمتك الأدب.. أنا زوجك وإلا طفل عندك ترقديني لحالي زي الكلب يا كلبة..

ـ الحمد لله عرفت نفسك كلب.. طبعاً.. والله لو بس تقرب من الباب لأصيح وأجمع عليك الناس يا الله أبعد عني.

ـ الله المستعان أنا شكلي خذت لي بلوه ماخذت مرة الله لا يوفقك يا سعيد..

كان قد صلى الفجر ثم توجّه إلى المطعم وأفطر دون أن يفكر في الرهينة التي معه فحتى في حالة مجرمي الحرب يؤتى لهم بالماء والطعام.. كنت في قمة العطش لكنني نسيت أنني معاقبة.. اتصل في والدته التي قدمت لإخراجي من الحمام «بدون فضايح» لأنه استحى كثيراً من زملائه حين سألوه هل كان «سبعاً أم ضبعاً» ليلة البارحة..

أتت والدته التي كانت عجوزاً طيبة القلب وبعد وعود كثيرة خرجت معها وأمسكت بيدها وأنا أنظر إليه بحذر.. وهو يقول:

ـ هذي عندك يمه فهميها حقوق زوجها عليها الظاهر إنها باقي جاهلة ما تعرف شيء وأنا بصبر عليها كم يوم..

ـ أنا اللي احتاج الصبر عليك يا دُب.

ـ أمه: عيب يا بنتي هذا زوجك المرة السنعة ما تقول لزوجها إلا طيب وحاضر..

عدنا من فندق السعادة والليالي الحمراء!! إلى الشقة التي خصصها لي في منزله المترع بالبشر.. كان والده في الانتظار.. وجيش من الأطفال أيضاً!!

الجميع يريد أن يرى زوجه أبيهم الجديدة يا لها من مفاجأة.. تمسكني أمه بيدي وتقودني في الدرج وأنا مطرقة إلى الأرض فكل مشاعر الذل والحرقة والألم تستعمرني فأشعر بالخجل.. مكثت معي في الشقة في حين غادر أبوه بعد أن دار بينهم هذا الحوار:

ـ يا ولدي يمكن إنها مربوطة عنك رح بها للشيخ وشف وش عندها؟!

ـ أقول ما عندها إلا دلع والله لأطلعه من رأسها.

ـ والده: أنا أقول تروحون العمرة وهنياك إن شاء الله إنها بترتاح وإن كان فيها سحر وإلا شيء يروح وبعد العمرة يصير خير إن شاء الله لا تستعجل يا ولدي.

كنت أهزأ به وبهم جميعاً كيف يفسرون أمور حياتهم، ألا يوجد اختراع اسمه «الكره» أنا أكرهه ولن أكون زوجته، كان هذا الموضوع باختصار لكن حمدان الفتوة نفذ وصية والديه في الليلة الثانية أيضاً وحاول بكل قواه أن يفعل شيئاً.. وكان عليّ أن أقفز من مكان إلى آخر في الغرفة التي أغلقت عنوة ونام والديه في الصالون انتظاراً للخبر السعيد الذي لم يأت هذه الليلة أيضاً كان منظره مثيراً للاشمئزاز وهو يطاردني متجرداً من ملابسه ومن عقله أيضاً..

في الصباح كان حمدان مقطباً مرة أخرى ومقرراً أن يُسافر بالمرأة المربوطة إلى مكة ليذهب عنها الجان ويعيش معها في سعادة..

طيلة هذا الوقت لم تتح لي فرصة الهرب ولم أتمكن من التواصل مع مرام أبداً.. فقط كنت أبكي.. وأشكو حالي إلى ربي..

كنت قد أعطيت مرام ورقة في ليلة زفافي كتبتها لفيصل كانت آخر رسائلي إليه في لحظة شعرت فيها باليأس والحزن والوداع النهائي لم أرد أن أعلقه بي أكثر فأنا محكوم عليّ بالإعدام مسبقاً على كل حال كتبت فيها..

«نكتب آلامنا فلا نصدق أي قوة تلك التي اختزلتها عروقنا على الحرمان والألم!!

تمرّ الشهور والأيام وتنسج بمرورها قيداً يلتئم قسوة

كلما طالت.. نعتقد خطأ أننا لن نهزم وأن قوة مشاعرنا تجاه الآخر سوف لن يحطمها شيء نزداد فخراً وتكبر معنا مشاعرنا الحالمة ووهمنا الوردي ثم تصدمنا الدنيا بكل قوتها لنفاجأ عندها أننا لسنا سوى بشر عاديين نخطئ ونخون ونعذب ونتعذب وأن مشاعرنا لم تشفع لنا رغم صدقها عند زيف الزمان وصلافة الأعداء..

تتقاذفنا الذكريات ويطوينا الألم والحنين وننام كاليتامى الجوعى كل ليلة في داخلنا قلوب تتحطم وأمنيات تُبحر في كل الاتجاهات فلا نجد سواه.. وننسى أنه البحر الذي ما فتئنا نغرق في لُججه بكل ترحاب وعذاب!!.. توقدنا الذكريات شموعاً نحترق لنضيء ليل العاشقين فنتأوه ألماً مع كل حلم أو واقع يكاد يصلنا ببعضنا.. تدور الأيام والزمن ونحن نتشبث ببريق الأماني وأحلام العودة.. والحنين إلى الآخر.. ذلك القلب الدافئ الذي ما انفكينا ننشد فيه قصائدنا الغزلية حتى استبدلناه بكل قلوب الدنيا واستقر في داخلنا روحاً وفارقنا بكل عذاباته ذلك الجسد!!

اليوم.. أوقد شمعة وحيدة وأغني أغنية يتيمة وأقف على أعتاب الزمن القادم بك أيها اليوم المعطر بالهزيمة لألتقط همومي وذكرياتي ولا يكاد يُسعفني نزفي لأعبر لك عن لوعتي.. أنت أيها اليوم الطويل من كل عمري القادم.. أنت أيها الذكرى المتقطعة أنيناً وحسرات أنت بكل عنفوانك وقوتك تمرّ على أوتار قلبي بكل ثقلك وكآبتك تمرّ

وحيداً على كمديً وأوراقي..بعمري كله.. يا لك من يوم طويل.. ويا لي من عاشقة بائسة أجبرني الزمان على احتسائك من أولك علقماً لا يرحم أحشائي المتهالكة المعطره بدماء الفجيعة.. وكابوس الفراق.. تمرّ وأتعاطاك سماً زعافاً لا يقتل بقدر ما يُعذب.. أنت أيها اليوم الطويل.. أيها الذكرى المتبخرة باجترار الألم وصناعة الغصص.. افتقدتك اليوم أكثر من أي يوم مضى يا من تركت روحك معي ولم تعدها إلى اليوم.. ذهبت لتعيش وحيداً وتركتني بقية إنسان لماذا أيها اليوم الطويل لا تحثّ خطاك على جراحي المنكوءة أصلاً والمبعثرة على صفحات عمري والهائمة بلا دليل على وجهي.. لماذا لا تسرع أكثر؟! لماذا لا تمطر مثلاً؟! لماذا لا تنطفئ ثم يأتي الغد سريعاً؟! لماذا تريد أن تقتلني ألف مرة؟! من أول الفجر حتى الثانية بعد منتصف الليل أرجوك أيها اليوم الطويل أن تمرّ سريعاً وترحمني!!

سحر الجمعان..

كنت مع حمدان في صبيحة اليوم التالي متوجهين إلى حيث يهرب الجان من جسدي وأعود امرأة عاقلة يمكنها ممارسة الجنس مع غوريلا!! عندما ركبت السيارة وانطلقنا هزئت كثيراً بفكرة شهر العسل حيث لا يوجد نحل أصلاً وهزئت أكثر من طريقته البائسة في التعبير عن الفرح عندما أدخل شريط كاسيت إلى المسجل حمل عنوان «الغزو

الفكري ودعاة التحرر» محاضرة دينية لأحد المشايخ الذي كان ينفخ ويزجر ويكاد صوته أن يكسر زجاج السيارة قلت في نفسي.. «يا له من هاني مون!!»..

الفصل الأخير

2/ 1428هـ بعد شهرين

فيصل يخرج من أحد أقسام الشرطة بعد أن اشتبك بالأيدي مع سعيد ومجموعة من الشبان.. في مدينة الرياض بعد أن استمر في مراقبته لمدة شهر ظناً منه أنه يعرف بمكان سحر وفي الشارع مازال يتوعده بالقتل إذا ما علم بأن له علاقة باختفائها..

في نفس التاريخ وفي نفس اللحظات كان الخبر التالي جريدة عكاظ.. صفحة الحوادث..

مكة المكرمة.. العثور على جثة متحللة في أحد جبال مكة..

عَثر أحد رعاة الأغنام على جثة متحللة لامرأة مجهولة الهوية في أحد الجبال بمكة المكرمة وبعد إبلاغ الشرطة ومعاينة الجثة وحسب المعاينة الأولية لا يوجد أية شبهة جنائية. الملازم ماجد العمري قال إن التحقيقات مازالت في بدايتها للتعرف على هوية صاحبة أو صاحب الجثة. الجدير بالذكر أنه عُثر مع الجثة على حقيبة يوجد بها مجموعة من

الأوراق والأرقام إلى جانب نسخة من المصحف الشريف.

لا أدري لماذا خالجني شعور قوي بضرورة الاتصال بالمحرر وإخباره بأنها لم تكن ميتة طبيعية أبداً.. لقد كانت جريمة خطِّط لها منذ أول يوم خرجت فيه سحر إلى الدنيا لقد كانت جريمة قتل من الدرجة الأولى.. لقد قتلوا سحر أيها المحرر.. قتلوها مع سبق الإصرار والترصد.

الخاتمة

بعد سنة: 4/ 1429 هـ..

سعيد يجلس على الأرض محتضناً طفلته الأولى ويلاعبها ويغني لها.. وزوجته ترقبه من بعيد..

كان يغني لها «يا الله تنام سحر.. يا الله يجيبها النوم.. يا الله تحب الصلاة.. يا الله تحب الصوم».

في حين ترقد هناء بالمستشفى لعمل جلسات غسيل الكلى دون مغادرته أبداً لأنها تحتاج إلى تلك العملية مرتين في اليوم وحيدة كما كانت في الألم..

تتحدث الأم عن سحر وتحنّ إليها.. وتتساءل أين هي الآن بقلب الأم تُفكِّر هل هي جائعة؟ هل تتألم؟.. تعصرها الحسرة ويغلفها الصّمت فهي لا تريدُ أن تُعكِّر صفو ابنها بشيء من هذه الأفكار التي أصبحت سجناً لها يحجبها عن واقعها فلا تكاد تسمع كلام محدثها الا بعد حين.

وفي الرياض كان فيصل عائداً من العمل وعلى وجهه تبدو علامات الإجهاد لأنه بعد الدوام اتجه إلى أحد المطابع لاستكمال إجراءات التوزيع للديوان الأول والأخير

للشاعرة «سحر الجمعان» دخل المنزل مرهقاً جداً استقبلته زوجته وسألته إن كان سيتناول طعام الغداء الآن أم بعد أن ينام.. أخبرها بأنه لا يريد إلا أن يجلس لوحده.. تركته وأغلقت الغرفة نظر أمامه مباشرة وحيث اللوحة التي أهدتها له سحر.. تأملها كثيراً.. أغمض عينيه وبكى.

انتهت....